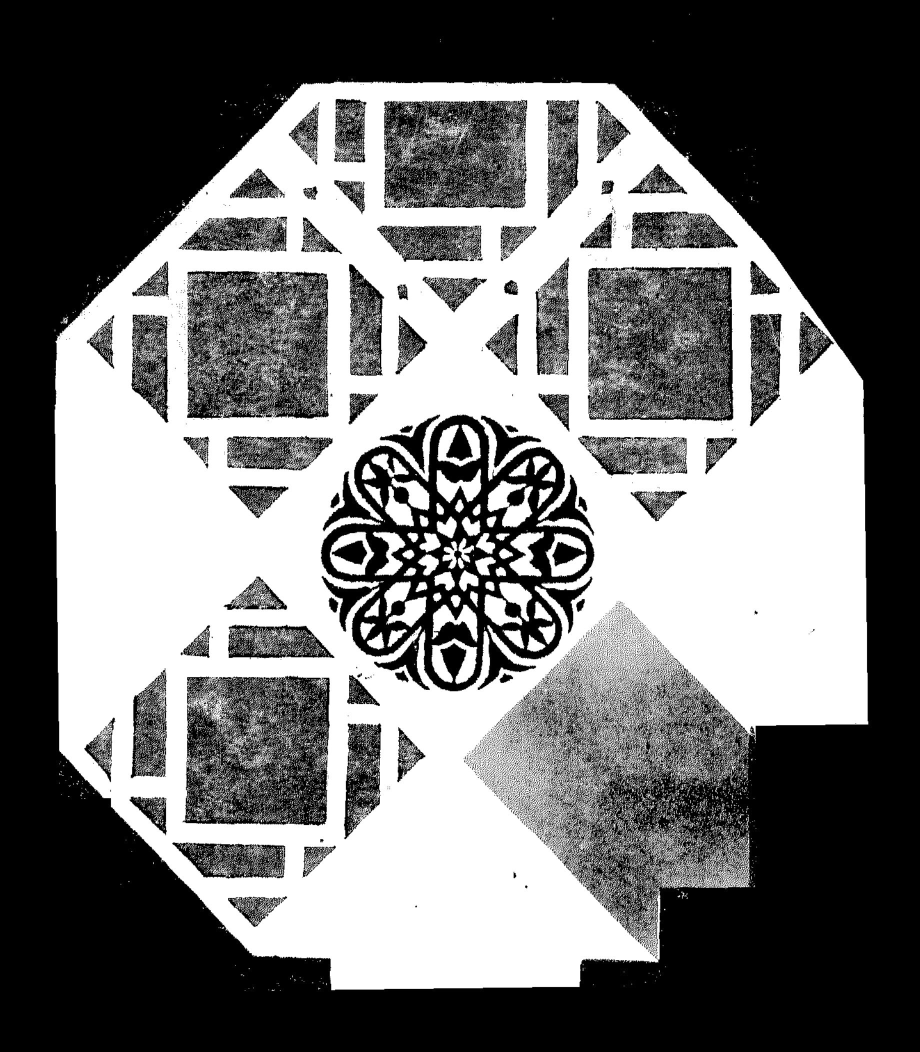
الدكتور محمود محمد الحويري

بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين





بناء الجبهة الإسلامية المتحدة
وأثرها في التصدي للصليبيين

تأليف

الدكتور محمود محمد الحويري

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة أسيوط

الطبعة الأولى

١٩٩٢



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م .ع .

مقـــدمة

تعد الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ البشرية، بحيث لا يمكننا تتبع التاريخ السياسى لعالم العصور الوسطى دون الإشارة إليها. وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوربى المسيحى، باعتباره المخطط والمنفذ لها، واتخذت من الدين ستارًا لتخفى أطماعها الاستعمارية الرامية إلى الإستيلاء على أراضى وثروات المسلمين والعبث بمقدساتهم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى.

وقد اعتاد الباحثون عند تناولهم لأحداث الدعوة إلى الحروب الصليبية أن يبدأوا بمجمع كليرمونت بإقليم أوفيرن بفرنسا، الذى عقده البابا أوربان الثانى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م، وإن كانت جذور هذه الدعوة ترجع إلى ما قبل ذلك بنحو قرن، عندما أسبغت البابوية على الحروب التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى أسبانيا وجزيرة صقلية لونا بغيضا من التعصب الدينى. وكانت البابوية فى الغرب الأوربى قد ارتفع شأنها، وصار لها السيادة على كل الكنائس الأوربية، بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء، فأخذت تشجع أمراء الإقطاع على نبذ حروبهم الداخلية، وتوجيهها ضد المسلمين، بغية إشباع نزعتهم القتالية، ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب.

وفى منطقة الشرق الأدنى تحقق حلم البابوية، بخروج أعداد ضخمة من أهالى غرب أوربا فى سنة ١٠٩٦ م عرفوا بالصليبيين Crusaders على حد تعريف المؤرخين الغربيين بهم، أو الفرنجة وفقا لما جاء فى المصادر العربية، تحت شعار تحرير الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين. وفى فورة من الحماس الدينى المتقد المشوب بالأغراض الدنيوية، اخترق الصليبيون آسيا الصغرى، ومنها زحفوا نحو مدينة بيت المقدس، فسقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩ ، بعد حصار استمر شهرين، وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع أعمال الوحشية، فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالا ونساء ورجالا وشيوخا. ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار فى أيدى الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحرى بأوربا الغربية، واستمر وجودهم نحو قرنين من الزمان، وكان ذلك على وجه التحديد من سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧) إلى سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م).

والواقع أن نجاح الصليبيين فى تأسيس كيان لهم ببلاد الشام، لا يرجع إلى تفوق جيوشهم فى العدد، ولا إلى كفاءتهم الحربية، وإنما يرجع أساسًا إلى انعدام المقاومة الإسلامية، وتراخى المسلمين فى الذود عن أراضيهم، بسبب تبعثر قواهم، وافتقارهم إلى الوحدة والتماسك. فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم ملكشاه سنة ١٠٩٢ م من يستطيع أن يتولى قيادتهم، ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين، فى الوقت الذى انكمشت فيه الخلافة الفاطمية فى مصر، بسبب ما أصابها من ضعف وانحلال.

وكان أن استغل الصليبيون فرصة ضعف المسلمين وانقسامهم فى بلاد الشام، وفى سبيل الحفاظ على كيانهم فى تلك البلاد، أخذوا يغيرون على المدن والقلاع الإسلامية، وزينت لهم قوتهم أن يهاجموا شواطئ الحجاز لهدم الكعبة الشريفة، وينزلوا الأذى بمقام الرسول ﷺ فى المدينة المنورة. ولقد استطاع الصليبيون أن أن يقطعوا الاتصال البرى بين العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر، وبذلك بات مصير الشرق الأدنى الإسلامى معلقا بأيديهم.

على أن هذا الوضع المتردى الذى أمسى فيه المسلمون لم يستمر طويلا، إذ أبت نفوسهم أن تستكين وتستسلم للغاصب الصليبى، وتترك أرضها نهبًا له. فانبعثت حركة الجهاد التى أخذت طابعا دينيا من منطقة الفرات فى أعالى العراق، وعلى وجه التحديد فى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م)، أى بعد سنوات قليلة من استقرار الغزاة الصليبيين ببلاد الشام. وقامت عدة محاولات استهدفت توحيد الموصل وحلب تحت قيادة واحدة لمقاومة الصليبيين، ولكن هذه المحاولات قد تعثرت فى كثير من خطواتها، بسبب تفرق كلمة المسلمين وافتقارهم إلى الوحدة وحرصهم على الاحتفاظ بمصالحهم، ووصل الأمر ببعض الحكام المسلمين إلى الارتماء فى أحضان الصليبيين للوقوف معًا ضد من تولوا عبء المقاومة الإسلامية، ويبدو ذلك واضحًا فى التحالف الذى قام بين مملكة بيت المقدس الصليبية وحكام دمشق على حساب أبناء القوى الإسلامية الأخرى.

وبات من الواضح أن المسلمين كانوا فى أشد الحاجة إلى زعيم قوى يقضى على دعاة الفرقة والانقسام، ويعمل على قيام جبهة إسلامية متحدة تقف فى وجه الصليبيين. ولم يكن هذا الزعيم المنتظر إلا عماد الدين زنكى، الذى أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة بحماس شديد. فمنذ أن تولى حكم الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) جعل خطته تقوم

على أساس توحيد أراضى المسلمين فى بلاد الشام تحت قيادته، والانطلاق جنوبًا إلى فلسطين لاستئصال شأفة الصليبيين، ولهذا بادر إلى توطيد ملكه فى الموصل وحلب، وحاول جاهدًا أن يضم دمشق إلى حوزته، ولكنه أخفق بسبب تحالف حكامها مع مملكة بيت المقدس الصليبية. على أن عماد الدين زنكى حقق أهم إنجازاته التى بدأ بها صفحة جديدة فى ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى، وهى استيلائه على الرها أولى الإمارات الصليبية فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م). وكان لهذا النصر أهميته، فقد أثبت مدى قدرة المسلمين على مجابهة الخطر الصليبى، بالإضافة إلى أنه كفل حرية الاتصال بين الموصل وحلب، وهما جناحا دولة عماد الدين زنكى.

ولا ريب أن زنكى مهد الطريق لمن أتى من بعده للسير على نهجه وتتبع خطاه. فبعد وفاته سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) واصل جهوده ابنه نور الدين محمود، فأنفق كل حياته فى توحيد كلمة المسلمين وجهاد الصليبيين، مما جعله أقوى رجال عصره. وفى سعيه الدائب لتحقيق هدفه، توج نور الدين أعماله بانتزاع دمشق من التحالف مع الصليبيين سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، وضمها إلى الجبهة الإسلامية. ومهما كانت أهمية استيلاء نور الدين على دمشق، فقد أدرك بثاقب نظره أنه إذا اتحدت مصر مع الشام والعراق فى ميدان الجهاد ضد الصليبيين كان ذلك مؤذنا بالنصر المؤزر عليهم. ولهذا فقد دخل نور الدين فى سباق مع مملكة بيت المقدس الصليبية حول الاستيلاء على مصر، انتهى بفوزه بمصر سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩ م) والقضاء على الخلافة الفاطمية، وبذلك ضيق الخناق على الصليبيين وأوقع الرعب فى قلوبهم. ويحسن بنا الإشارة إلى أن ما أحرزه نور الدين من انتصارات، يرجع الفضل فيه إلى قادة عظام وقفوا إلى جانبه، أمثال أسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين أيوب.

ويعتبر صلاح الدين الأيوبى الحلقة الأخيرة فى بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، وهى الجبهة التى اتسع مداها بضم مصر والشام وأعالى العراق تحت حكم نور الدين محمود. ولكن وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) كادت تزعزع تلك الجبهة وترجع بالمسلمين إلى حالة الفوضى والانقسام التى كانوا عليها قبل وفاة عماد الدين زنكى، لولا أن صلاح الدين الأيوبى أثبت أنه خير خلف لنور الدين، فقد ترتب على جهوده فى استكمال الوحدة الإسلامية، أن توحدت مصر والشام وأعالى العراق تحت قيادته، وحارب

الصليبيين حتى هز كيانهم وألحق بهم هزيمة ساحقة فى موقعة حطين عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وانتزع منهم بيت المقدس، ولم يمر بعد قرن على اغتصابها.

والواقع أن أهم ما يسترعى انتباهنا عند دراسة بناء الجبهة الإسلامية وتكتيلها من الفرات إلى النيل فى القرن الثانى عشر الميلادى، أن حركة الجهاد الإسلامى لم يرفع رايتها أصحاب أية فكرة قومية أو عنصرية أو إقليمية بعينها، بل جمعت تحت ظلها العرب والأكراد والتركمان والترك وغيرهم، وقد عملوا معا لغاية واحدة هى الدفاع عن الإسلام وأرضه وتراثه وحضارته. هذا ولم يكن المسلمون يحاربون الصليبيين على أنهم مسيحيون، بل على أنهم دخلاء اعتدوا على أراضى المسلمين ومقدساتهم، وهم يحملون تعصبا دينيا، أبعد ما تكون عنه المسيحية دين المحبة والسلام.

وقد يظن أن الحروب الصليبية قد ولت وطواها الزمن فى غياهبه، ولم تعد تهمنا فى قليل أو كثير بعد أن صارت مجرد ذكرى، وليس ثمة فائدة من محاولة استعادة أحداثها فى حاضرنا الذى يرتبط فيه الإنسان بالإلكترونيات والأقمار الصناعية والرءوس النووية. ولكن هذه النظرة من الوهلة الأولى خاطئة ومتسرعة تمامًا، مهما حاول البعض تبريرها بشتى الوسائل. إذ لا شك أن التنقيب عن أحداث الماضى والوقوف على كنه دوافعها ونتائجها، يكشف لنا عن الدروس التى تفيد فى توجيه حاضرنا وفهم مستقبلنا. فالتاريخ يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معا، ولا يمكن الفصل بينهم، بل هو بالضبط وحدة لا تتجزأ، كالنهر الدفاق المياه، المتلاحق الأمواج. وليس أدل على ذلك من أن تعبير «الحروب الصليبية» أو «الحركة الصليبية» أو «الغزو الصليبى»، لا يزال شائع الإستعمال بين الناس وماثلا فى أذهانهم، عنوانا على الشعور الدينى البغيض، ورمزًا للفظائع التى يرتكبها الاستعمار فى حق الشعوب المسالمة، مهما اتخذ صورة عسكرية واقتصادية أو فكرية. ولذلك فالدعوة إلى استرجاع تاريخ الحروب الصليبية، هى فى صميمها دعوة لنبذ الاستعمار والتعصب الأعمى، ونشر روح التآخى بين الشعوب.

وهذا الكتاب الذى أضعه بين يدى القارئ ليس دراسة مفصلة لأحداث الحروب الصليبية كلها، وإلا لأصبح صورة أخرى باهتة لمؤلفات ضخمة تعرضت لهذه الأحداث. فقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقوم بدراسة علمية تتناول بناء الجبهة الإسلامية فى مصر والشام والجزيرة (أعالى العراق)، وأثر هذا البناء فى التصدى للصليبيين، وذلك فى الفترة

الواقعة بين سنتى ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) و٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وهى الفترة التى شهدت أولى محاولات الجهاد التى قام بها حكام الموصل ضد الغزاة الصليبيين، وما بذلوه من جهود لإقامة جبهة إسلامية متحدة؛ وكان ظهور عماد الدين زنكى فى تلك الفترة كفيلا بوضع القاعدة الصلبة فى بناء تلك الجبهة، وتوحيد صفوف المسلمين فى مواجهة الكيان الصليبى. ثم جاء ابنه نور الدين محمود ليواصل المسيرة، ويرفع بناء الجبهة الإسلامية عاليا بضم مصر إلى الشام والجزيرة الفراتية، إلى أن استكملها صلاح الدين الأيوبى.

ولا أدعى أننى أوفيت موضوع دراستى حقه أو أتيت فيه بالجديد، فذلك أمر قد سبقنى إليه الكثير من الزملاء والأساتذة الأفاضل، الذين أعطونا صورة بالغة القيمة عن أحداث الحركة الصليبية، حتى أن دراساتهم كانت ولا تزال منار الضوء الساطع الذى يهتدى به المتخصصون وغير المتخصصين، وهى حقيقة لا يكابر فيها مكابر. وكل ما فى الأمر، أن دراستى – كما ذكرت – تنصب أساسًا على الفترة التى شهدت بناء الجبهة الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى، وأثرها فى التصدى للقوى الصليبية التى أرادت بنا شرًا، ولعله درس غنى بالعظة ينبغى أن نذكره دائما، فى وقت نحن أحوج ما نكون إليه، حتى لا نندم على ما فات، ونيأس مما هو آت.

والله من وراء القصد، إنه نعم المولى والنصير.

ثكنات المعادى فى يوليو ١٩٩٢ م
المحرم ١٤١٣ هـ

الباحث

الفصل الأول

أوضاع المسلمين السياسية فى الشرق الأدنى قبيل الحروب الصليبية

- الخلافة العباسية.
- بلاد الشام.
- الخلافة الفاطمية.
- السلاجقة.

شهدت العصور الوسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد حركة خطيرة تركت آثارا عميقة المدى فى مسيرة التاريخ الإنسانى، وهى الحركة التى اتفق المؤرخون على تسميتها باسم «الحروب الصليبية»، واتخذت من الدين ستارًا لإخفاء مطامعها وأغراضها الاستعمارية فى الشرق الأدنى الإسلامى. ولا شك أن الحروب الصليبية لم تكن مجرد حروب شهدت أرض الشرق الأدنى أحداثها، ولكنها كانت بالنسبة للوطن العربى الإسلامى درسًا مليئا بالعبر والعظات، هذا الدرس أثبت أن موقع الوطن العربى كان نعمة ونقمة على شعوبه، نعمة فى وقت الوحدة والقوة، ونقمة فى فترات الضعف والفرقة. وإن من يتأمل أحوال المسلمين السياسية فى الشرق الأدنى عشية وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، ليسترعى انتباهه ما كان عليه المسلمون من ضعف وانقسام وتمزق، وطمع الغرب الأوربى فى بلادهم. وهنا نلاحظ أن أهم القوى السياسية والحربية التى لعبت دورًا فعالاً فى أحداث منطقة الشرق الأدنى قبيل غزو الصليبيين لها، تتمثل فى أربع قوى هى: الخلافة العباسية، وبلاد الشام، والخلافة الفاطمية، والسلاجقة[1].

الخلافة العباسية :

بداءة فقدت الدولة العباسية هيبتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، ودب فيها الضعف والانحلال، وصار الخلفاء العباسيون مغلوبين على أمرهم فى بغداد، أشبه بألعوبة فى أيدى العناصر التركية التى غدت صاحبة السلطة الفعلية، والمهيمنة على الأمور فى الدولة. وكثرت البدع فى عصر العباسيين، فظهرت فرق كثيرة كالإسماعيلية والزنادقة والمعتزلة، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعا وطوائف، كانت تناهض بعضها بعضا، ويحاول بعضها القضاء على الدولة العباسية نفسها.

ومما يدل على مدى الضعف الذى لحق بالدولة العباسية آنذاك ظهور عدد من الدويلات المستقلة على حساب السلطة المركزية أو حكومة الخلافة العباسية، ثم سقوطها وقيام دويلات أخرى على أنقاضها. وقد أسهم فى هذا الضعف الخصومات والاختلافات المذهبية بين الدويلات الجديدة والدويلات السابقة عليها. ويهمنا من أمر تلك الدويلات – أو

---

(١) عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩) ص ١٤-١٣ .

الوحدات الانفصالية المستقلة – البويهيون، وهم من أصل فارسي. فقد قاموا بإخضاع الجزء الغربي من بلاد فارس، ثم تمكنوا من دخول بغداد في عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م)، وحلوا محل الأتراك، واستأثروا بالسلطة الفعلية دون الخلفاء العباسيين، في الوقت الذي لم يكترثوا كثيرًا بشئون شمال العراق (إقليم الجزيرة) وبلاد الشام وما يليها بين البلاد الإسلامية، بل وجهوا عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية، الأمر الذي كان له آثاره السيئة على المناطق الإسلامية الواقعة على حدود الإمبراطورية البيزنطية[1]. وكان البويهيون يتعصبون للمذهب الشيعي، بينما كان الخلفاء العباسيون كما هو معروف على مذهب السنة، ولذلك لم يتورع البويهيون عن الانتقاص من حقوق الخلافة العباسية والتعدى عليها، حتى إنهم فكروا في إزالتها، وإقامة خلافة علوية مكانها[2].

غير أن نفوذ البيت البويهي أصيب بضعف شديد بعد وفاة عضو الدولة البويهي عام ٣٧٢ هـ (٩٨٣ م)، بسبب القتال الذي نشب بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم. وحين أخذ الأتراك السلاجقة يثبتون دعائم دولتهم في فارس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، كان البويهيون في العراق وبعض أجزاء فارس منقسمين على أنفسهم، ويظهر ذلك واضحا في الحروب التي قامت بين الملك الرحيم البويهي وإخوته، فبدلاً من أن يستعين بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده، نراه يجرد نفسه من أسباب القوة، ويهيىء لمنافسيه السلاجقة الأقوياء فرصة الاستيلاء على بغداد في عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، وبذلك سقطت دولة بني بويه[3].

بلاد الشـام :

وإذا انتقلنا من العراق غربا إلى بلاد الشام، نلاحظ أنها كانت تعاني من الاضطراب والفوضى. ذلك أن الحمدانيين كانوا أصحاب نفوذ تركز في أرض الجزيرة واتخذوا من الموصل قاعدة لإمارتهم في شمال العراق، ثم اتجهت أنظارهم في عهد سيف الدولة الحمداني إلى شمالي الشام، حيث نجحوا في تشييد إمارة قاعدتها حلب، عملت كدولة حاجزة بين البيزنطيين والمسلمين في تلك المنطقة، ولعبت دورها المشهور الذي استمر

---

(١) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٤٩ .

(٢) عبد النعيم حسنين: المرجع السابق، ص ١١ – ١٢ ؛ دولة السلاجقة (القاهرة ١٩٧٥)، ص ١٥.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٢ – ١٣ ؛ دولة السلاجقة، ص ١٥ – ١٦ .

من سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) بدخول سيف الدولة حلب، وانتهت فى سنة ٤٠٢هـ (١٠١١م)[١]. على أن الحمدانيين دخلوا فى نزاع مع الإخشيديين الذين استقلوا بمصر (٣٢٣ – ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ – ٩٦٩م)، فقد تمكن سيف الدولة فى مدة وجيزة من أن يوطد لدولته الفتية، فاستولى على أجزاء من الشام كانت تابعة أصلا للدولة الإخشيدية، وجاور أملاكها الباقية فى وسط وجنوبى الشام، الأمر الذى أدى إلى دخوله فى صراع مع كل من الإخشيديين فى الجنوب والبيزنطيين فى الشمال، فى حين لم تسلم دولته فى الداخل من بعض الاضطرابات التى كانت ترهق طاقاتها المحدودة[٢].

وزاد من الفوضى التى تعرضت لها بلاد الشام الدور الذى لعبته القبائل العربية الموجودة آنذاك على حساب القوى السياسية المتنافسة، ومحاولتها التحرر من سيطرة الخلافة العباسية وتحقيق استقلالها الذاتى. فسيطرت القبائل اليمنية على جنوب الشام ووسطها، حيث صارت الغلبة فى فلسطين لبنى طىء، وفى وسط الشام لبنى كلب؛ أما القبائل القيسية أو المضرية فقد سيطرت على شمال الشام والجزيرة، حيث ظهرت منها بنو كلاب فى شمال الشام وبنو نمير وبنو عقيل فى الجزيرة.

وهكذا لم يعد البيزنطيون يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة، ولكنهم أصبحوا يجدون إمارات حلب والموصل الضعيفة نسبيا ومن خلفها الدولتين البويهية والإخشيدية، وبذلك حانت للإمبراطورية البيزنطية فرصة ثمينة لكى تستعيد الأقاليم التى فقدتها عندما قام العرب بفتوحاتهم الكبرى فى القرن السابع الميلادى، وتزحزح الحدود الإسلامية إلى ما وراء الخط الممتد بحذاء جبال طوروس بعد أن ظلت هناك زمنا طويلا[٣].

ولعله مما يثير الانتباه أنه عندما ضعفت الخلافة العباسية ودب الانحلال فى جسدها، أن شهدت الإمبراطورية البيزنطية ظهور أسرة قوية هى الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٦م) حققت انتصارات رائعة على حساب المسلمين والبلغار والروس، وخاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر للميلاد، حتى لقد أطلق المؤرخون على تلك

---

(١) درويش النخيلى: فتح الفاطميين للشام (الإسكندرية ١٩٧٩)، ص ٦٠ – ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٦ – ٦٧.

(٣) أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣)، ص ١٧٩ .

الفترة العصر الذهبى للإمبراطورية البيزنطية. وقد أسهم فى تحقيق هذه الانتصارات الأباطرة نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩م)، ويوحنا تزيمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦م)، وبلغت الانتصارات ذروتها فى عهد باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م).

وقد تمكن الإمبراطور نقفور فوقاس فى المرحلة الأولى من حملاته فى قيليقية من الاستيلاء على المصيصة وطرطوس، وبذلك فتح الطريق البرى للتقدم إلى الشام، وواصل جهوده الحربية فى هذا الاتجاه. وقد كللت جهوده فى شمالى الشام بالاستيلاء على أنطاكية فى ٢٨ أكتوبر سنة ٩٦٩م، بعد أن ظلت فى حوزة المسلمين منذ العهد الأول للفتوحات العربية أكثر من ثلاثة قرون، حتى لقد بدا للبيزنطيين أنهم فقدوها إلى الأبد، ولكنها ضمت إلى الحكم الأوربى البيزنطى لتظل خاضعة له حتى سنة ١٠٨٤، أى قبل مجىء الحملة الصليبية من الغرب الأوربى بسنوات قليلة[1]. وفضلا عن ذلك طرق نقفور فوقاس أبواب حلب، وأسرف فى أعمال الإغارة والنهب، وأحال مسجد حلب الجامع إلى إسطبل لخيله، غير أن قلعة حلب استعصت عليه، فاكتفى باعتراف حاكمها المسلم بتبعيته لبيزنطة بمقتضى اتفاقية عقدها معه فى صفر ٣٥٩ هـ (يناير ٩٧٠)[2]. وكان نقفور عازماً على التوغل فى بلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس، إلا أن موته المفاجئ لم يمهله، وخلفه فى الحكم يوحنا تزيمسكس.

كان باستطاعة يوحنا تزيمسكس أن يتابع سياسة سلفه فى إنهاك القوى الإسلامية فى بلاد الشام، غير أن حروبه مع البلغار استغرقت منه السنوات الأربع الأولى من حكمه من ناحية، ولقيام الدولة الفاطمية الفتية فى مصر التى استطاعت مد ممتلكاتها فى الشام حتى أصبحت تجاوز المنطقة الشمالية الخاضعة للنفوذ البيزنطى من ناحية أخرى. وعلى أية حال، فقد عبر تزيمسكس على رأس جيشه نهر الفرات، وتمكن من الاستيلاء على مدينة نصيبين فى أول محرم ٣٦٢ هـ (١٢ أكتوبر ٩٧٢)، واتجه بعد ذلك إلى ميافارقين، ولكنها استعصت عليه[3]. كما تقدم تزيمسكس فى الشام واستولى على حمص وبعلبك فى رمضان عام ٣٦٤هـ (مايو ٩٧٥م)، وقدمت له إمارة دمشق الجزية بعد أن تعهد حاكمها بطاعة

---

(١) Ostrogorsky (G.), Hist. of the Byzantine State, (New Jersy, 1968), p. 257.
عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص ١٧-١٦ .

(٢) عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص ١٧؛ حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨)، ص ٩ - ١٠.

(٣) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٢ .

الإمبراطور. ثم واصل تزيمسكس زحفه جنوبا بغرض الاستيلاء على بيت المقدس، فاستولى على طبرية والناصرة وعكا وقيصرية، وأصبحت مدينة بيت المقدس فى متناوله، ولكنه خاف مغبة أخطار توغله بعيدًا فى فلسطين، واكتفى بما فعله فى هذه الأنحاء، وتحرك شمالا، واستولى على عدد من المدن الساحلية الهامة من بينها صيدا وبيروت، ثم قاد جيشه إلى أنطاكية ورجع منها إلى عاصمة بلاده فى سبتمبر ٩٧٥ م[١].

على أنه ينبغى ألا ننسى أن قوة الفاطميين فى مصر أنذاك قد وقفت حائلا دون أطماع البيزنطيين فى بلاد الشام، فاسترد الفاطميون دمشق، وحاولوا الاستيلاء على حلب لولا صلابة حاميتها البيزنطية. ولكن الإمبراطور باسيل الثانى الذى خلف يوحنا تزيمسكس لم تكن تنقصه الجرأة فى نهج السبيل الذى شقه سلفه، ففى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) استولى من الفاطميين على شيزر وحمص، وفرض حصارًا على طرابلس، ولكن حاميتها الفاطمية حالت دون استيلائه عليها، فاضطر إلى الرجوع إلى القسطنطينية[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد نجح البيزنطيون فى إقامة منطقة خاضعة لنفوذهم فى شمال الشام ضيقت الخناق على المسلمين، قاعدتها الأساسية أنطاكية التى ظلت فى حوزتهم حتى سنة ١٠٨٤م. ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن جهود الأباطرة البيزنطيين لاسترجاع الشام بما فيها من أماكن مقدسة، كانت حلقة متقدمة من حلقات الحروب الصليبية التى قامت بها أوربا المسيحية ضد المسلمين لاسترجاع الأراضى المقدسة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى[٣].

الخلافة الفاطمية :

كان قيام الدولة الفاطمية فى حد ذاته حدثا فريدًا فى التاريخ الإسلامى، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية[٤] فى إقامة خلافة لهم فى بلاد المغرب عام ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) جاء بعد

---

(١) Ostrogorsky, op. cit., p. 263; Levtchenko (M.V.), Byzance des origines à 1453 (Paris,1949), p. 190.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ ٤ ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٤ – ١٥ ؛ Ostrogorsky, op. cit., p. 273.

(٣) عمر كمال توفيق: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١٥ .

(٤) الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان أنصاره يعرفون بالإسماعيلية، وهم فرقة من الشيعة ترى أن الإمامة انتقلت بعد وفاة الرسول ﷺ إلى على بن أبى طالب، ثم إلى ابنه الحسن، ثم أخيه الحسين، ثم فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق. ويرى أن الإمامة إنتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم تنقلت فى بنيه. انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١ ص ١١٩ – ١٢٠ .

محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة. وقد رأى الفاطميون ابتداء من أول خلفائهم عبيد الله المهدى حتى المعز لدين الله الفاطمى، بعد أن امتد نفوذهم فى بلاد المغرب، أن هذه البلاد لا تصلح لتكون مركزًا لدولتهم، ففضلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب من حين لآخر؛ لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق، مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين[١] وترأس العالم الإسلامى. وهنا نلاحظ أن حالة المشرق عامة، وحالة مصر خاصة، كانت تشجع الفاطميين على الاتجاه شرقا؛ فقد كان للدعاية الفاطمية الإسماعيلية أثرها فى زعزعة الأفكار السنية بالمشرق، فضلا عن ضعف مصر نفسها، كل هذا شجع الفاطميين على تحقيق حلمهم فى الاستقرار فى بلاد غنية كمصر[٢].

ولقد تكررت محاولات الفاطميين لفتح مصر فى عهد عبيد الله المهدى، الذى أرسل ثلاث حملات فى أعوام ٣٠١هـ (٩١٣م)، ٣٠٦هـ (٩١٨م)، ٣٢١ هـ (٩٣٣م)، ولكن جميع تلك المحاولات باءت كلها بالفشل. وقد ساعدت الأحوال فى مصر على نجاح الفاطميين فى عهد المعز لدين الله على تحقيق الأمل الذى راودهم طويلا، فالدولة الإخشيدية المنهارة لم تعد تستطيع مقاومة أية محاولة جدية لغزوها من الغرب. وكان أن خرج جوهر الصقلى – قائد المعز لدين الله الفاطمى – من القيروان على رأس جيش كثيف من البربر فى ١٤ ربيع الثانى عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، ووصل إلى الإسكندرية، فدخلها دون مقاومة. وتقدم جوهر بجيشه نحو الفسطاط، فاستعد الإخشيديون لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط فى معركة انتهت بانتصار جوهر، وبذلك زال نفوذ الإخشيديين والخلافة العباسية من مصر، ودخل جوهر الفسطاط فى ١٧ شعبان عام ٣٥٨هـ، ونزل بعسكره إلى الشمال الشرقى من الفسطاط فى الموضع الذى اختط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أساس تلك المدينة التى أصبحت مقر الخليفة الفاطمى[٣]، ومركز دولة شيعية واسعة الأرجاء.

وكانت الضرورة السياسية والحربية تحتم على الفاطميين، بعد أن انتهوا من فتح مصر واستقروا بها، أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام، رغبة فى تأمين حدود مصر من الناحية الشمالية الشرقية، وبعبارة أخرى كان الفاطميون يتملكهم الخوف من انتقام العباسيين

---

(١) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٦١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٦٩ .

(٣) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٦٦-٦٨ .

بسبب فتحهم أخصب وأغنى بلادهم، ولهذا عمل جوهر الصقلى على أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر[١]. وفضلا عن ذلك، لا يمكن أن نغفل عامل الجهاد لدى الفاطميين الذى كان أساسًا جوهريا من أسس سياستهم الحربية ودعامة من دعائم المذهب الشيعى، ويؤيد هذا رغبة الفاطميين فى التصدى للبيزنطيين وتخليص الأراضى الإسلامية التى وقعت تحت سيطرتهم بالشام[٢]. وعلى أية حال، استطاع الفاطميون بين سنتى ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) و٤٥٠ هـ (١٠٥٨م) أن يوطدوا مركزهم فى بلاد الشام، فبسطوا سلطانهم على جميع أنحائها، ما عدا أنطاكية التى لا زالت فى حوزة البيزنطيين[٣].

غير أن الأحداث التى طرأت على الدولة الفاطمية منذ أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى تسببت فى إضعافها. فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية، وعظم نفوذ الوزراء، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء. وكان لتنافس رجال الدولة الفاطمية على منصب الوزارة واستعانة بعض الطامعين فى هذا المنصب بحكام الدول المجاورة أثر سيىء فى حالة مصر الداخلية، الأمر الذى مهد السبيل للقضاء على الخلافة الفاطمية. وسنتناول ذلك عند حديثنا عن ضم مصر إلى الجبهة الإسلامية المتحدة فى الشام والعراق ضد الصليبيين.

السلاجقة :

وفى الوقت الذى تنازعت فيه السيادة على المسلمين فى الشرق الأدنى خلافتان إحداهما شيعية وهى الخلافة الفاطمية فى مصر، والأخرى سنية وهى الخلافة العباسية فى بغداد، ظهرت قوة الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث السياسية فى المرحلة التى سبقت وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، وهى المرحلة التى امتدت خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، مما أدى إلى تغيير ميزان القوة مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى، ليصبح فى صالح المسلمين. ففى اللحظة التى اختفى فيها آخر أفراد الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٥٦م) فى الإمبراطورية البيزنطية بدت عوامل التمزق والشقاق من جراء الحرب الأهلية التى أمسكت بخناق الامبراطورية ويزيد من متاعبها[٤]. وفى

(١) حسن إبراهيم حسن، طه شرف: المرجع السابق، ص ٦٢ .

(٢) عمر توفيق: مقدمات العدوان الصليبى، ص ٦٢-٦٣ ؛ درويش النخيلى: المرجع السابق، ص ١١-١٢.

(٣) السيد الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠)، ص ٧.

(٤) أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٥.

خلال السنوات الواقعة بين سنتى ١٠٥٧ و١٠٨١م حلت كوارث هائلة تفوق فى شناعتها وشدتها جميع الكوارث التى وقعت فى أية فترة من فترات التاريخ البيزنطى باستثناء عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م)، إذ قطعت أوصال الإمبراطورية للمرة الثانية، وقدر لها أن تفقد نصف قوتها وأن تظل مبتورة ممزقة من الصعب إنقاذها إنقاذًا تامًا. وكان من الممكن أن تجتاز الامبراطورية البيزنطية تلك الفترة بسلام كما اجتازت الفترات السابقة التى جاءت بين سقوط أسرة وقيام أخرى في الحكم، لولا أن ظهر خطر الأتراك السلاجقة الذين بثوا فى الشرق الإسلامى روحًا جديدة، جعلت المسلمين يهددون الامبراطورية البيزنطية تهديدًا خطيرًا مرة أخرى.

والأتراك السلاجقة هم مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم الغز. ويشير الجغرافى الفارسى مؤلف كتاب «حدود العالم» فى القرن العاشر الميلادى إلى أن قبائل الأغوز أو الغز كانوا يعيشون مع قبائل القرغيز التركية فى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحيرة بلكاش[١]، وهى المنطقة المعروفة باسم منطقة التركستان. وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر، نرى الغز مجموعة من القبائل لا يربطها إلا رباط مفكك تماما، وتحارب بعضها بعضا؛ وفى الربع الثانى من هذا القرن هاجرت قبائل الغز إلى الغرب بحثا عن أماكن أفضل، فاتجهت جماعات منها إلى روسيا الجنوبية، فى حين اتجهت جماعات أخرى إلى بلاد ما وراء النهر وفارس؛ أما عن الجماعات التى هاجرت إلى روسيا الجنوبية، فيشير المؤرخون الروس إليهم لأول مرة حوالى سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤م)، ذلك أن قبائل رعوية أخرى دفعتهم إلى التحرك، فانتشروا حتى الدانوب الأدنى، وعبروه، واجتاحوا البلقان، حيث لقوا فى النهاية هزيمة على أيدى القوات البيزنطية فى سنة ١٠٦٥م؛ أما الجماعات الأخرى أو الفرع الآخر من الغز وهم السلاجقة، فقد اتجهوا اتجاهًا آخر، وكان حظهم فائقا، فقد غزوا فارس وآسيا الصغرى[٢].

وينسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق (ومعناها القوس الحديدى) ابن دقاق، وهو الذى جمع قبيلة القنق الغزية Kinik tribe of the Oghiez تحت زعامته، وكان لا يعرف لها اسم خاص قبل توليه زعامتها، فنسبت إليه وخضعت لحكمه؛ وقبل سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م)

---

(١) Grousset (R.), L. Empire des Steppes. (Paris, 1948), p. 203.

(٢) Ibid., p. 203.

كان سلجوق قد انفصل مع جماعته من قبائل الغز الضخمة، وعسكر على الضفة اليمنى لنهر سرداريا الأدنى (سيحون) فى مدينة جند بالقرب من بيرويسك الحالية Perowask ، وبذلك أصبح السلاجقة يجاورون أملاك السامانيين، وأدى ذلك إلى تخليهم عن البوذية واعتناقهم الإسلام[١] على المذهب السنى. وقد أثرت بداوة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له على المذهب السنى، وتحمسوا له حماسة الحديث العهد بالدين، مما أثر فى تصرفات السلاجقة، فجعلهم يحترمون أئمة الدين احتراما شديدا، ويميلون إلى المتصوفة، فانتشر التصوف فى عصرهم، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام[٢].

والواقع أنه كان لاعتناق السلاجقة الإسلام وتمسكهم بتعاليمه بالغ الأثر فى اكتساب ود السامانيين الذين كانوا يقيمون فى إقليم ما وراء النهر، ويدافعون بصلابة عن أراضيهم من غارات الترك القرخانيين، فوقف السلاجقة إلى جانب السامانيين، كما أعانوهم فى صد غارات الترك الوثنيين[٣]، فأخذت قواتهم تتزايد، فى الوقت الذى أخذوا هم يشنون الغارات من حين لآخر على الترك الوثنيين، الأمر الذى أكسبهم احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم[٤].

وبعد انهيار الدولة السامانية عام ٣٨٩هـ (٩٩٨م)، تنازع القرخانيون والغزنويون على أراضيها، فاستولى القرخانيون على إقليم ما وراء النهر، واستولى الغزنويون على خراسان؛ وهنا عمل السلاجقة على الإستفادة من الفوضى التى صاحبت الوضع الجديد، فاستقروا فى قلب بلاد ما وراء النهر، فى الجزء الشمالى الشرقى من بخارى[٥]. ولما توفى سلجوق خلفه فى زعامة السلاجقة ابنه الأكبر إسرائيل، الذى دخل فى خدمة ملك القرخانيين على تكين فى عام ٤١٦هـ (١٠٢٥م)، وتحالف معه ضد السلطان محمود الغزنوى مؤسس الدولة الغزنوية، فما كان من الأخير إلا أن عول على القضاء على إسرائيل، ولتحقيق ذلك

---

(١) I bid., p. 204; Cahen (C.), "The Turkish Invasion: The Selchukids", in Hist. of the Crusades. Vol. I (Philadelfia, 1955.), pp. 139-140.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢١؛ دولة السلاجقة، ص ٢١ .

(٣) Grousset, op. cit., p. 204.

(٤) محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٣-٦٤ .

(٥) Grousset, L. Empire des Steppes, p. 204.

لجأ إلى استمالته بالحيلة، ثم قبض عليه وألقى به سجينا فى أحد قلاعه بالهند، حتى أدركته الوفاة سنة ٤٢٢هـ (١٠٣٠م)[١].

ولا شك أن هذا التصرف الغادر قد أغضب السلاجقة، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل، فاختاروا أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم، فما لبث أن فكر فى الانتقال بهم إلى خراسان، بهدف تثبيت أقدام قومه فى هذا الإقليم، ثم الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم، كما أنها ستهدف تكوين دولة قوية تحل محل الغزنويين فى خراسان وما وراء النهر. وكان أن كتب السلاجقة إلى السلطان محمود الغزنوى يطلبون منه أن يأذن لهم بعبور دياره والإقامة بين «نسا» و«باورد»، فوافق محمود ظنا منه أن القضاء على إسرائيل زعيمهم السابق قد كسر شوكتهم. على أنه لم يكد يستقر السلاجقة فى خراسان، حتى أخذوا يدعمون قواتهم، وينتشرون فى الأرجاء المجاورة لهم، ويتحينون الفرص للقضاء على الدولة الغزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر[٢].

لما توفى السلطان محمود الغزنوى فى عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م)، وخلفه ابنه مسعود فى حكم الغزنويين، رأى السلاجقة أن الوقت قد حان للقضاء على الغزنويين، فوحدوا قيادتهم فى يد طغرلبك (٤٢٩ – ٤٥٥هـ/ ١٠٣٧ – ١٠٦٣م)، الذى أسرع إلى نيسابور واحتلها بمساعدة أخيه جغرى بك فى عام ٤٢٩ هـ، ثم جلس على عرش مسعود فى نيسابور، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة والمؤسس الحقيقى لدولتهم[٣]. على أن السلطان مسعود الغزنوى قرر الانتقام لنفسه من طغرلبك، فدارت بين السلاجقة والغزنويين معركة عنيفة عند دندانقان بالقرب من مرو عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م)، إنتهت بهزيمة الغزنويين هزيمة ساحقة، أنزلت بهم أفدح كارثة قضت على نفوذهم فى فارس وما وراء النهر، وصارت خراسان كلها للسلاجقة[٤]. وفى العام التالى (٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م) كتب طغر

---

(١) Ibid.; عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ٢٤–٢٥؛ دولة السلاجقة، ص ٢٤ .

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٢٦؛ دولة السلاجقة، ص ٢٤–٢٦؛ محمد محمود إدريس: المرجع السابق، ص ٧٠–٧١؛ أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٢٣–٢٥.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٨؛ أحمد كمال الدين حلمى: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٤) الفارقى: تاريخه، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤ م)، ص ١٥٩؛ تامارا تالبوت رايس: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الداقوقى، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨)، ص ٢٥؛ Grousset, op. cit., 204-205; Cahen, op. cit., pp. 141-142.

لبك إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٧٦ هـ / ١٠٣١ – ١٠٨٤ م)، طالبا منه أن يعترف بسلطنة السلاجقة وشرعية حكمه؛ ومع أن الخلافة العباسية كانت آنذاك فى غاية الضعف، إلا أن الحصول على اعترافها يعطى الدولة السلجوقية صفة شرعية يرضى عنها الناس، وقد اهتم الخليفة العباسى بطغرلبك، واعترف بسلطنته[1].

.واصل السلطان طغر لبك توسيع رقعة دولته، فاستولى على خوارزم عام ٤٣٤هـ (١٠٤٢م)، والرى وقزوين وأبهر وزنجان عام ٤٣٧ هـ (١٠٤٥م)؛ وفى عام ٤٤٢هـ (١٠٥٠ م) حاصر طغرلبك مدينة أصفهان فسقطت فى يده بعد صعوبات جمة، فى الوقت الذى استطاع السيطرة على بلاد فارس والقضاء على دولة البويهيين قضاء تاما؛ وفى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) توجه طغر لبك إلى إقليم آذربيجان، واستطاع أن يبسط نفوذه على جميع أنحائه، وفى العام التالى (٤٤٧/١٠٥٥ م) دخل بغداد بناء على دعوة الخليفة العباسى، ليحل محل البويهيين فى الهيمنة على العراق[2].

وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى للقوة السلجوقية، فبعد الإحياء الملحوظ لقوة ونفوذ البيزنطيين فى القرن العاشر الميلادى كما رأينا من قبل، أخذت الأوضاع السياسية فى تلك الدولة فى الانحطاط. فمنذ وفاة الإمبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ م، تحطمت قواها الدفاعية، وانتابتها أزمات حادة بانت بشكل عنيف منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر، حيث تعرض فيها كيان الدولة إلى مخاطر داهمة[3].

والواقع أن الغزو السلجوقى لأراضى الإمبراطورية البيزنطية لم تشتد وطأته إلا منذ عهد الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ – ١٠٥٥م). ففى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) اندفع إبراهيم إينال – أخو طغرلبك من أمه –فى إغارات ناجحة على الأراضى البيزنطية، وانتصر على البيزنطيين فى إقليم أيبريا (الأبخاز) وطرابيزون وأرضروم القريبة

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران ص ٢٩–٣٥؛ دولة السلاجقة، ص ٢٨ ؛ أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٦ .

(٢) Grousset, op. cit., pp. 205-206;
أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٧–٢٨

(٣) عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٣٩ –١٤٠ .

من أعالي الفرات والتي أحرقها وسواها بالأرض وقتل معظم سكانها[١]. وفي عام ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) قاد السلطان طغر لبك بنفسه السلاجقة إلى الأراضي البيزنطية، فغزا أرمينية، ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على مانزكرت (ملازكرد)، ولكن الجيوش البيزنطية لم تمكنه من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى الري[٢].

وهنا نلاحظ أن الغارات التي وجهها السلاجقة إلى جميع أنحاء أرمينية، لم تنجح في احتلال مركز قوي يثبتون فيه. على أن الموقف قد تغير عندما اشتدت غارات السلاجقة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ و١٠٨١ م، فاجتاحوا قبادوقيا ونهبوا ملطية سنة ١٠٥٧؛ وفي سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة لأول مرة إلى جوف أملاك الإمبراطورية حتى بلغوا سيواس، فاقتحموها وأجروا بها مذبحة مريعة، ثم بعد أن أشعلوا فيها النيران، عادوا محملين بالأسلاب والغنائم[٣]. ويمكن القول أن غارات السلاجقة حتى وفاة طغر لبك سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) استهدفت غالبا النهب والسلب، دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل الإمبراطورية البيزنطية.

ولما تولى ألب أرسلان الحكم بعد وفاة عمه طغرلبك، نهج السلاجقة نهجا جديدًا تجاه الامبراطورية البيزنطية، إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضي تلك الامبراطورية وامتلاكها، بدلا من مجرد القيام بغارات محدودة للسلب والنهب. ففي سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٥م) إستولى ألب أرسلان على آني حاضرة إقليم أرمينية وهي «مدينة حصينة شديدة الامتناع» ذات موقع استراتيجي هام؛ وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة أضحوا يسيطرون على هضبة أرمينية التي كانت بمثابة الدرع الواقي للدولة البيزنطية من الشرق لأهمية موقعها وصعوبة مسالكها[٤]. حدث ذلك دون أن يحاول الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) التحرك لإنقاذ الامبراطورية من الوضع الخطير الذي تردت

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٨ ص ٤٤٨؛ تامارا تالبوت رايس: السلاجقة، ص ٢٧؛
Charanis (P.), "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", pp. 189-190; Cahen, op. cit., p. 144.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٦٧؛
Charanis, op. cit., p. 190; Cahen, op. cit., p. 144.

(٣) Runciman (S.), A Hist. of the Crusades (Cambridge, 1951), Vol. I, p. 60.

(٤) الكامل، جـ ٨ ص ٩٨-١٠٠؛ Ostrogorsky, op. cit., p. 303; Cahen, op. cit., p. 148.

فيه. والواقع أن هذا الامبراطور أثبت فشله فى الحكم، إذ كان لا يهتم بشىء أكثر من اهتمامه بشئون المال، فأهمل جميع إدارات الحكومة الأخرى لكى يحاول تدعيم خزانة الامبراطورية ثانية، بعد أن استنزفت مواردها منذ موت باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م؛ ولكى يقتصد فى الأموال سرح جزءا ضخما من الجيش وأنقص مرتبات الباقين؛ وكان هذا عملا جنونيا أدى إلى عدم كفاءة القوات المحاربة بصورة خاصة، فى الوقت الذى كان يهدد فيه الامبراطورية أفظع خطر حربى شوهد منذ أربعة قرون، وهو خطر الأتراك السلاجقة[١].

وفى يناير سنة ١٠٦٧ اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية جندى نشيط هو رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes . فأعاد تنظيم الجيش، وإن كان معظمه تألف من المرتزقة النورمان والخزر والروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والصقالبة والترك[٢]. وبهذا الجيش الذى يفتقر إلى روح التجانس ويتألف من قوميات مختلفة خرج رومانوس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ليسترد أرمينية ويضع حدًا لتقدم السلاجقة. وعسكر بجيشه الذى قدرته المراجع بحوالى مائتى ألف مقاتل فى ملازكرد (مانزكرت) شمالى بحيرة فان بالقرب من مدينة خلاط فى انتظار اللقاء بخصمه السلطان ألب أرسلان. وأحس السلطان أنه أمام خطر داهم، فأسرع بالهجوم على مقدمة الجيش البيزنطى فى سرعة خاطفة وشجاعة نادرة، واستطاع أن يحرز نصرًا، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه من الصعب على جيشه أن يواجه جيشا ضخما كجيش البيزنطيين، ورأى أن الحكمة تقتضيه أن يسعى فى طلب الصلح إلى أن يستعد الاستعداد المناسب لملاقاة خصمه فى معركة حاسمة. غير أن الامبراطور رفض الصلح فى غطرسة وكبرياء، ورد على ألب أرسلان بأن الصلح بينهما لن يتم إلا فى الرى عاصمة السلاجقة[٣]. وعندئذ لم ير السلطان بدًا من خوض المعركة، فدعا جنده إلى الاستماتة فى القتال دفاعًا عن الإسلام، واختار يوم الجمعة وهو وقت الدعاء على جميع

(١) أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٦؛ رايس: السلاجقة، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) Ostrogorsky, op. cit., p. 304; Charanis, op. cit., 191-192; Grousset, L'Epopée des Croisades (Paris 1955), p. 10;

عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٥٧ .

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ١٠٩؛ رايس: السلاجقة، ص ٣٧-٣٨؛ محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٠٩؛ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٥٧.

المنابر لجيوش المسلمين موعدًا للاشتباك مع البيزنطيين، فصلى بجنده وبكى خشوعًا وتأثرًا وبكى الناس معه، ثم امتطى فرسه ولبس البياض وتحنط استعدادًا للموت، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره. والتقى الفريقان في ٢٠ ذى القعدة ٤٦٣هـ (١٩ أغسطس ١٠٧١م) في معركة عنيفة اشتدت فيها حماسة السلاحقة، واستماتوا في القتال، ولم يستطع الجيش البيزنطى الوقوف أمام الفرسان السلاجقة الذين انقضوا على البيزنطين بحركاتهم السريعة المفاجئة، وقتلوا منهم جموعًا عظيمة، ووقع الامبراطور نفسه أسيرًا فى أيدى ألب أرسلان[1]، الأمر الذى لم يحدث يومًا قبل ذلك فى تاريخ بيزنطة. ومن العوامل التى أسهمت فى إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطى، أنه لما احتدمت المعركة، استجاب المرتزقة الأتراك فى جيش رومانوس لرابطة الدم والعصبية التى تربطهم بالأتراك السلاجقة، فانسحبوا من الجيش البيزنطى، وانضموا إلى السلاجقة. ومن أسباب الهزيمة أيضا أن أحد فرسان النورمان واسمه رسل دى باليول Roussel de Bailleul انسحب من المعركة دون أن يمد يد المساعدة إلى رومانوس؛ كما أن القائد أندرونيقوس دوكاس وهو أحد الطامعين فى العرش البيزنطى، وضع مصالحه الخاصة فوق مصالح وطنه فانسحب بقواته إلى القسطنطينية[2]، مما أدى إلى حدوث اضطراب فى الجيش البيزنطى كله.

وقد عامل ألب أرسلان أسيره الامبراطور البيزنطى معاملة طيبة، وأبدى معه حلما لم يكن متوقعا. صحيح أن رومانوس قد سيق بعد أسره إلى خيمة السلطان ووضع أمامه منبطحًا على الأرض حتى يضع السلطان قدمه على رقبة عدوه المهزوم طبقا للتقاليد التركية، ولكن بعد هذا الاحتفال المهين عومل الإمبراطور بشفقة، وسمح له بعد عدة شهور بافتداء نفسه فدية ضخمة والعودة إلى بلاده، بعد أن أخذ عليه العهود بدفع الجزية للسلاجقة وإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين[3].

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧-١٦٨؛ الكامل، جـ ٨ ص ١٠٩-١١٠؛ الفارقى: تاريخه، ص ١٨٩-١٩٠؛

Levtchenko, op. cit., p. 220; Grousset, L'Empire des Steppes, p. 207.

(٢) Charanis, op. cit., pp. 192-193;

حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ٣٣؛ عبد القادر اليوسف: المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٣) Charanis, op. cit., p. 193; Ostrsgorsky, op. cit., p. 304;

رايس: السلاجقة، ص ٣٨؛ أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٨.

ولا جدال فى أن موقعة ملا زكرد كانت هزة عنيفة أصابت كيان الإمبراطورية البيزنطية إصابة لم تستطع النهوض منها، وكان من الممكن أن تؤدى إلى نتائج أسوأ مما أدت إليه لولا أن ألب أرسلان اكتفى منها بانتصاره الساحق، ولم يتابع ماهيأته له الظروف من إمكان السيطرة التامة على مقاليد الإمبراطورية أو على الأقل إضعافها أكثر مما حدث[1]. وعلى أية حال، فإن تلك المعركة جاءت دليلا على ضعف الإمبراطورية البيزنطية ونهاية دورها فى الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، بل إنها ساعدت على القضاء على الإمبراطورية نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣م.

بعد كارثة ملازكرد المروعة، واصل السلاجقة تقدمهم على حساب البيزانطيين بعد أن انفتح الطريق أمامهم فى آسيا الصغرى، فاجتاحوا معظمها، وبات من العسير على الامبراطورية البيزنطية استرداد الأقاليم التى فقدتها هناك، الأمر الذى أدى إلى فقدان بيزنطة مركزًا حربيا ممتازا، ومصدرًا هامًا للحبوب والغلال[2]. وقد حدث ذلك دون أن تلقى الجموع السلجوقية مقاومة تقريبا، إذ لم يعد ثمة من يحل محل الامبراطور رومانوس الرابع، فى الوقت الذى كانت السنوات العشرة التالية فى داخل الإمبراطورية فترة فوضى وكوارث، لم يستخدم حطام الجيش البيزنطى فى خلالها لمقاومة السلاجقة وإيقاف توغلهم غربا، بل فى القيام بسلسلة يائسة من الحروب الأهلية[3].

وكان من الطبيعى أن يمد السلاجقة نشاطهم الحربى إلى بلاد الشام، لاستعادة ما فقدته الدولة العباسية من نفوذ على أيدى الفاطميين فى تلك البلاد. فأرسل السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) إلى أمير حلب، يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسى بدلاً من الخليفة الفاطمى، فأجابه إلى طلبه[4]. وفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) استولى القائد السلجوقى أتسزبن أوق باسم السلطان ألب أرسلان على الرملة وبيت المقدس ليقطع اتصال مصر بالشام من أقرب المناطق اتصالا بينهما، ولم يلبث أن استولى على كل فلسطين ما عدا

---

(١) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٣٥ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٤٦.

(٣) أومان: المرجع السابق، ص ١٩٩ .

(٤) محمد كرد على: خطط الشام، جـ ١ ص ٢٣٥ – ٢٣٦؛ جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٦٠ .

حصن عسقلان الواقع بأطرافها، ثم توجه شمالا إلى دمشق «فحصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها، وقطع الميرة عنها، فضاق الأمر بالناس»، غير أن جيوش الفاطميين سرعان ماردته على أعقابه، لكنه عاد وضيق عليها الخناق سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥) حتى تمكن من فتحها، وبذلك خرجت دمشق نهائيا من نفوذ الفاطميين[١]. وعلى الرغم من الحملات التى أرسلها الفاطميون إلى الشام لاسترداد نفوذهم، فإنهم لم يستطيعوا أن يستردوا سوى المناطق الساحلية حتى مدينة جبيل شمالا سنة ٤٨٢هـ (١٠٨٩م)[٢].

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) الذى خلف أباه ألب أرسلان. وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوبا، ومن حدود الصين شرقًا إلى سواحل البحر المتوسط غربا[٣].

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التداعى والانهيار بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، أى قبيل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام بسنوات معدودة، إذ ترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم وبين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتيت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقى أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أدى إلى إضعاف نفوذه وقوته[٤].

ولعل أكبر مظهر لا نحلال نفوذ السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرهما منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى هو ظهور عدد كبير من البيوت - أو الأسرات - الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٦ - ١٦٧؛ الكامل، جـ ٨ ص ١١٠؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ محمد حلمى أحمد: مصر والشام والصليبيون (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٠ - ٦١ .
Lane-Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages (London, 1901), p. 161.

(٢) Lane-Poole, op. cit., p. 161; Gibb, "The Caliphate and the Arab States", p. 95; السيد الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٩ ..

(٣) إبن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٦٨)، المجلد الخامس، القسم الأول، ص ٢٧؛ عبدالنعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٨٣ .

(٤) السيد العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٩ .

سياسية أو دويلات صغيرة أطلق عليها إسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة وبعض هذه الوحدات صغير جدًا لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة، وأتابك لفظ تركى معناه «مربى الملك»، فكان البيت السلجوقى إذا امتاز أحد قادته وأراد تشريفه أضفى عليه هذا اللقب إمعانا فى تكريمه[١]. وهذه البيوت - أو الأتابكيات - قد أنشأها مماليك بعد أن تم عتقهم، وشغلوا وظائف كبيرة فى القصر والجيش تحت قيادة أمراء أقوياء، حتى إذا مات الأمراء صاروا أتابكة لأبنائهم الصغار، ومالبثوا أن اغتصبوا العرش من سادتهم[٢]. وعلى هذا النحو قامت أتابكيات، من أهمها أتابكية دمشق ومؤسسها طغتكين، وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م) حتى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)؛ أما أتابكية الموصل على نهر دجلة، فأعظم من حكمها منذ سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) عماد الدين زنكى بن آقسنقر، وقد استمرت حتى سنة ٦٦١هـ (١٢٦٢م)[٣]. ومما يجدر ذكره أن أتابكية الموصل كانت نقطة البداية لظهور الأيوبيين.

ومهما يكن الأمر، فقد ظهر الانقسام والتفتت فى أوصال الجبهة الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى عند فجر الحركة الصليبية، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى نجاح الحملة الصليبية الأولى، واستقرار الصليبيين فى بلاد الشام أمدًا طويلا. ولعل خير تعبير عن حال المسلمين آنذاك وسبب استيلاء الصليبيين على بلادهم، ما قاله المؤرخ صالح بن يحيى: «إنه لما قويت دولة بنى سلجوق ضعفت حالة الخلافة ببغداد، فلما مات ملكشاه السلجوقى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وقع الخلف بين ولديه محمد وبركياروق، ودام الحرب بينهما نحو اثنتى عشرة سنة، فاضطربت ممالك الشرق لذلك، ووافق هذا خلافة الآمر بأحكام الله (الفاطمى) بمصر وكان صغيرًا، ولما كبر كان مستهترًا بالمملكة، فخلا للصليبيين الجو»[٤].

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧٨)، جـ ١ ص ١٢ .

(٢) إرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة د. العرينى، الطبعة الثانية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٤٩؛ Cohen, op. cit., p. 162.

(٣) باركر: المرجع السابق، ص ٤٩؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ١١٢ - ١١٣ .

(٤) محمد كرد على: خطط الشام، جـ ١ ص ٢٤٨ .

الفصل الثانى

الدعوة إلى الحروب الصليبية
وبداية الوجود الصليبى ببلاد الشام

- دوافع الحركة الصليبية.
- الحملة الصليبية الأولى.
- الصليبيون فى أنطاكية.
- فى الطريق إلى بيت المقدس.
- سقوط بيت المقدس.
- بداية الوجود الصليبى ببلاد الشام.

دوافع الحركة الصليبية :

سبقت الإشارة إلى أن موقعة ما نزكرت سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) كانت أفدح كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، وترتب عليها أن فقد البيزنطيون معظم آسيا الصغرى. وقد دفع هذا الوضع الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) إلى الاستنجاد بالغرب الأوربى، فأرسل فى سنة ١٠٧٣م سفارة إلى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) يطلب يد المساعدة، فصادف ذلك قبولا واسعًا لدى البابوية، خاصة أن ميخائيل وعدها فى مقابل مساعدته بالعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية[١]. ونتيجة لذلك أرسل البابا إلى ملوك وحكام أوربا سنة ١٠٧٤ يوضح لهم ما تعرضت له الامبراطورية البيزنطية من هجمات الأتراك السلاجقة، ويحثهم على إنقاذها باعتبارها الحصن الأمامى الذى يحمى المسيحية من الإسلام فى الشرق، ولم يضن البابا بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة المسلمين الذين نعتهم بالكفار، وقد نصح جريجورى المسيحيين فى رسائله قائلا: «قاتلوا بجرأة، لكى تنالوا فى السماء مجدًا يتجاوز جميع توقعاتنا، وتسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الأبدية بعمل طفيف»، غير أن مشاغل البابا حالت دون تحقيق مشروعه، وصرفت انتباهه عن بيزنطة لزمن طويل[٢]. وعندما وقع الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨) تحت ضغط الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى، فعل مثلما فعل ميخائيل السابع، فأرسل إلى روبرت الأول كونت فلاندرز Count Robert I of Flanders خطابا، وكان قد قابله أثناء قيامه برحلة حج إلى الأراضى المقدسة فى حوالى سنة ١٠٨٨م، أرسل إليه يطلب منه المساعدة ضد الغارات المخربة التى يشنها الأتراك السلاجقة على أراضيه، واتجه فى نفس الوقت نحو البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) يطلب منه المساعدة، وناقش معه مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، فلقى طلبه حماسًا متقدا وانتشارا واسعًا فى الغرب الأوربى[٣].

---

(١) Duncalf (F.), "The Councils of Piacenza and Clermont", p. 223;
باركر: الحروب الصليبية، ص ١٨ - ١٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٢) Duncalf, op. cit., pp. 223 - 224; Scott (M.), Medieval Europe, p. 130;
باركر: المرجع السابق، ص ١٩؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٢٦؛ ميخائيل زابوروف: الصليبيون فى الشرق، ترجمه عن الروسية إلياس شاهين (موسكو ١٩٨٦)، ص ٣١.

(٣) Ostrogorsky, op. cit., pp. 320 - 321.

وإذا كان الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين هو الذى طلب النجدة من الغرب الأوربى لإنقاذ الامبراطورية من الخطر السلجوقى الداهم، فالواقع أن الغرب الأوربى كان لديه من الأسباب التى دفعته إلى تلبية النداء فى صورة حملات صليبية تحركت فى سرعة وقوة، وقد انبعثت هذه الأسباب من صميم مجتمع غرب أوربا، باعتبار أنه صاحب فكرة الحروب الصليبية والمنفذ لمشاريعها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى(١). ومهما بحثنا فى تلك الأسباب فسنجد أن العامل الدينى كان آخرها، أما أولها وأهمها فهو الرغبة فى الاستيلاء على ممتلكات المسلمين ونهب ثرواتهم، بحجة تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين. وقد أثبتت البحوث التاريخية الموضوعية بما لا يدع مجالا للشك أن الحروب الصليبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الإنسان، وأن غرضها منذ البداية هو التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية، وأنها كانت تهدف إلى الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها، حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوربى يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربى ضمانا لبقاء نفوذهم فى المنطقة(٢).

ولاشك أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى، قد تضافرت جميعا وتحكمت فى توجيه الحملات الصليبية إلى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى(٣). وقد لعبت البابوية دورًا رئيسيا فى قيام الحروب الصليبية، فهى التى دعت إليها وتبنتها ووجهت مسارها بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين فى الشرق؛ وبعبارة أخرى لم تكن الحروب الصليبية من عمل أى فرد من أهالى الغرب الأوربى أو أى حكومة من حكوماته، بل كانت فى حقيقتها عملا بابويا، فالبابوية كانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر مكانة خطيرة من القوة واتساع النفوذ، وهى الوحيدة التى مارست سلطتها المطلقة على جميع أنحاء الغرب الأوربى(٤). وقد حرصت البابوية -كما سنرى- على تشجيع الفرسان والنبلاء فى الغرب الأوربى على التخلى عن منازعاتهم والتوجه لقتال المسلمين فى الشرق الأدنى، وأعلنت أن من حق

(١) Porkes (J.), A Hist. of Polestine. (London. 1949), pp. 106-107.

(٢) جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية (الإسكندرية ١٩٨٨)، ص ٧.

(٣) Painter (S.), "Europe in the Eve of the Crusade.", p. 3.

(٤) Pirenne (H.), A Hist. of Europe from the Invasions to the XVI Century. (London, 1961), p. 192.

الفرسان والنبلاء الاستيلاء على الأراضى الواقعة تحت أيدى المسلمين، ووعدت كل من يشترك فى الحروب الصليبية بالغفران التام عن ذنوبه وخطاياه، وحماية ممتلكاته لحين عودته إلى وطنه. ومما شجع طبقة الفرسان والنبلاء على الاشتراك فى الحروب الصليبية النظام الإقطاعى فى غربى أوربا، الذى كان لا يجيز تفتيت الإقطاع، بمعنى أنه بعد وفاة السيد الإقطاعى يرث ابنه الأكبر (البكر) إقطاعه وامتيازاته، أما باقى الأبناء فقد حرموا من إرث أبيهم وكان عليهم السعى فى اتجاه آخر للبحث عن إقطاعات خاصة لهم، إما بالالتحاق بالكنيسة، وإما بالبحث عن وريثة إقطاعية، وقد ظهر فى عائلات الإقطاعيين عدد لا يستهان به من الأبناء الأصغر سنا المحرومين من الأرض[١].

وهنا نلاحظ أن سوء الأحوال الاقتصادية التى نكب بها غربى أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى، قد دفعت الأهالى إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية. فقد خلت غالبية الأراضى من الزراعة، وتعرضت القرى للنهب والسلب على أيدى قطاع الطرق، وحلت الكوارث الطبيعية، وانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة، لدرجة أن الموت كان يتحرك بسرعة فى كل اتجاه من سنة ١٠٨٩م، وحدثت الفيضانات التى تلتها المجاعات، ومن ذلك الفيضانات التى نكبت بها فرنسا سنة ١٠٩٤م والتى اجتاحت كثيرًا من نواحيها، وأهلكت الزرع والمحاصيل، وفى الفترة الواقعة بين سنتى ٩٧٠ و ١١٠٠م لم تقل سنوات المجاعة بفرنسا عن ستين مجاعة[٢]. أما عن الفلاحين فى الغرب الأوربى، فقد عاشوا فى القرن الحادى عشر فى وضع يتسم بالذل والهوان؛ ويتضح ما عاناه الفلاحون من ظروف مادية قاسية لا تكفل لهم الحد الأدنى من الراحة ولا توفر احتياجاتهم الفعلية، فى أنهم عاشوا فى أكواخ حقيرة مسقوفة بالقش مؤثثة تأثيثًا هزيلا وتتخللها فتحة فى السقف لتسمح بخروج الدخان من النار المشتعلة؛ وكانت ملابس الفلاحين مصنوعة من جلود الماشية وصوف الأغنام والكتان الخشن، ويكفى ما ذكره أحد الأخلاقيين فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من أن الفلاح لم يشرب قط نبيذًا من عنبه، ولم يتناول فضلة صغيرة من طعام طيب، وغاية سعادته لو أمكنه الحفاظ على خبزه الأسود وبعضا من الزبد

---

(١) زابوروف: المرجع السابق، ص ١٨؛ عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية (الإسكندرية ١٩٥٨)، ص ٣٢.

(٢) Poissonnade (P.), Life and Work in Medieval Europe. (London, 1937), p. 146; Hoyt (S.) & Chodorow (S.), Europe in the Middle Ages (U.S.A., 1976), p. 320.

والجبن[١]. وكانت القرية مجتمعا مغلقا على نفسه، فهى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث يقوم بتأدية شعائر الدين قس يغلب عليه الجهل، واشتهرت القرية بالميل إلى الخرافات والأساطير[٢].

وقد ترتب على وضع الفلاحين الاجتماعى التزامات ثقيلة تجاه سيدهم الإقطاعى، فكان عليهم الاشتغال فى ضيعة السيد الإقطاعى، فيزرعونها ويحرثونها ويبذرونها ويحصدون محاصيلها ويضعونها فى مخازن السيد الإقطاعى، دون حصولهم على أجر؛ وهناك أنواع من الاحتكارات خضع لها الفلاحون، منها أنهم كانوا لا يقومون بطحن غلالهم إلا فى طاحونة السيد الإقطاعى، ولا يخبزون إلا فى فرنه، ولا يعصرون كرومهم إلا فى معصرته، ولا يسمح لهم بتربية الحمام، فى حين يسمح لحمام السيد الإقطاعى بالتقاط محاصيلهم؛ وفضلا عن هذا التزم الفلاحون بدفع ضريبة سنوية لسيدهم، ونسبة من محاصيل أراضيهم الزراعية[٣]. ولهذا كله، وجد البؤساء من الفلاحين فرصتهم الثمينة فى الفرار من الجوع والأوبئة، عندما أعلنت البابوية الدعوة إلى الحروب الصليبية، وترك عشرات الآلاف منهم أراضيهم هربا من الأعباء الثقيلة التى فرضت عليهم، وانخرطوا فى سلك الحملة الصليبية الأولى. وعلى أية حال، فقد جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام جموع المعدمين من الأقنان والعبيد بابًا جديدًا للهجرة، ومنفذًا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية السيئة التى عاشوها داخل أوطانهم فى الغرب الأوربى[٤].

وتتضح أهمية الدافع الاقتصادى فى تحريك الحروب الصليبية فى الدور الذى لعبته المدن التجارية الإيطالية – جنوه والبندقية وبيزا وأمالفى –، فلم تكن تلك المدن مدفوعة إلى تقديم مساعدتها للصليبيين بوازع دينى، وإنما جريا وراء مصالحها التجارية. ذلك أن الطرق التجارية التى كانت تمر من خلالها سلع الشرق الثمينة، كانت تنتهى إلى القسطنطينية أو إلى الموانى الساحلية ببلاد الشام الواقعة تحت نفوذ المسلمين؛ غير أنه فى القرن الحادى عشر وجدت المدن الإيطالية صعوبة فى نقل سلعها ومتاجرها فى القسطنطينية بسبب المتاعب التى كانت تخلقها السلطات هناك، فى الوقت الذى اضطربت فيه التجارة فى

---

(١) Poissonade, op. Cit., pp. 145 - 146; Painter, op. cit., pp. 5 - 6.

(٢) Painter, op. cit., p. 6.

(٣) Poissonade, op. cit., p. 96; Painter, op. cit., pp. 7 - 8.

(٤) Poissonade, op. cit, p. 147; Levtchenko, op. cit., p. 226.

مدن الشام الساحلية وأصابها الفوضى بعد استيلاء السلاجقة على بلاد الشام، وصار من الصعب على التجار الإيطاليين الحصول على كميات وافرة من السلع المطلوبة مثل الحرير والجواهر والتوابل؛ ونتيجة لذلك أبدى تجار المدن الإيطالية استعدادهم لتقديم أساطيلهم للصليبيين[١]. ومن ناحية أخرى، لم تكن الجيوش الصليبية البرية بقادرة وحدها على أن تستولى على الموانى الحصينة التى كانت فى حوزة المسلمين فى الشام، ولم يكن فى وسع الشجاعة والفنون العسكرية عند الفرسان الصليبيين أن تفعل شيئا فى هذا المجال، فقد كان من الضرورى تدخل الأساطيل بحرًا، وبهذه الصورة أسهمت المدن التجارية الإيطالية - جنوه وبيزا والبندقية - فى الأحداث العسكرية، وحصلت تلك المدن على امتيازات سخية معفاة تماما من أية أعباء[٢]. وإذا كانت جماعات التجار الإيطاليين قد أسهمت بنصيب كبير فى إنشاء الإمارات الصليبية ببلاد الشام، فإن دورها أيضا كان أهم فى تنظيم تلك الإمارات، إذ لم يكن بمقدور الصليبيين أن يحافظوا على الأماكن التى انتزعوها من المسلمين دون الحصول على معونة الأساطيل الإيطالية[٣]. ومن البديهى أن امتلاك الثغور على ساحل بلاد الشام كان مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى الإمارات الصليبية، فكان امتلاكها وحده يضمن لهذه الإمارات اتصالها بالغرب الأوربى حتى يصلها منه الإمدادات البشرية والمالية الضرورية لبقائها، ثم إن حكام تلك الإمارات لم ينكروا البتة أهمية الخدمات التى أدتها الأساطيل الإيطالية، وبرهنوا على عرفانهم بهذا الجميل بتقديم المنح والامتيازات، التى تضمنت «الحى»، فضلا عن شارع وحمام وسوق وفندق وكنيسة ومخبز خاص بتجار المدينة التى قدمت مساعدتها[٤].

وهناك من يرى أن من بين الدوافع التى شجعت الغرب الأوربى على القيام بحملته الصليبية الأولى، هو الدعوة الشاملة لتأمين طريق الحجاج المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة بيت المقدس فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى، حيث أصبح هذا الطريق

---

(١) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum. Ed. by Rosalind Hill (London, 1962), pp. xxiii - xxiv.

(٢) هايد (ف): تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا، ومراجعة د. عز الدين فودة (القاهرة ١٩٨٥)، ص ١٤٥ .

(٣) Smail (R.C.), The Crusaders in Syria and the Holy Land. (London, 1973), p. 57.

(٤) I bid., p. 59,

هايد: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٤٩ .

مليئا بالعقبات أمام الحجاج المسيحيين بسبب سوء معاملة حكام البلدان الإسلامية التى مروا بها، الأمر الذى دعا أولئك الحجاج إلى أن يسيروا فى جماعات التماسا للأمن، وأن يمضوا فى طريقهم مسلحين. ويقال أن قافلة الحجاج الألمان التى قادها رئيس أساقفة ماينز فى سنة ١٠٦٤م بلغ عددها ما يزيد على عشرة آلاف من الرجال والنساء، ولكن معظم الحجاج كانوا يسيرون غير مسلحين. والحقيقة أنه منذ أن فتح المسلمون مدينة بيت المقدس فى القرن السابع الميلادى، وظلت فى يد الحكام المسلمين، لم تتعرض حياةالحجاج المسيحيين لأية أخطار، فالطرق كانت آمنة، والماء والطعام متوفران دائما، ولقى الحجاج الترحيب من قبل السلطات الإسلامية فى بيت المقدس[١]. وما حدث من الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس، وبين المسيحيين فى الغرب الأوربى، وبقاء هذا الاتصال نشيطا قرونا عديدة، إنما يرجع إلى تسامح المسلمين[٢]، وحرصهم على مراعاة المشاعر الدينية للمسيحيين.

وجدير بالذكر هنا أن كثيرًا من المسيحيين فى الشرق الأدنى كانوا يفضلون حكم المسلمين على حكم الرومان أو البيزنطيين، ذلك أن أولئك المسيحيين كانوا ينتمون إلى فرق مذهبية مختلفة مثل النساطرة والمونوفيزتيين، ومن ثم كانوا يتعرضون للاضطهاد من قبل الكنيسة الشرقية التى تخالفهم فى المذهب، بل إن المسيحيين الذين كانوا ينتمون إلى تلك الكنيسة كانوا يرتاحون لحكم المسلمين، بدليل أنه فى القرن التاسع الميلادى كتب بطريرك بيت المقدس يصف المسلمين بقوله: «إنهم عادلون، لا يرتكبون خطأً فى حقنا، ولا يستخدمون العنف معنا[٣]». وفيما عدا ما قام به الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦- ٤١١هـ / ٩٩٦- ١٠٢١م) من اضطهاد لأهل الذمة، ومنع الحجاج المسيحيين من الوصول إلى بيت المقدس سنة ١٠٠٩ ، وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس فى أنحاء الدولة الفاطمية، فقد عاش المسيحيون فى كنف الدولة الإسلامية يباشرون حياتهم وعيشتهم فى هدوء[٤]. على أن الحجاج لاقوا عنتا من قبل الامبراطورية البيزنطية، وذلك

---

(١) Runciman, "The Pilgrimage to Palestine.", p. 76.

(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤ - ١٥ ؛
Newby (P.H.), Saladin in his Time. (London, 1983), p. 20.

(٣) Scott, op. cit., pp. 131 - 132.

(٤) Runciman, op. cit., p. 74; Parkes, op. cit., p.99.

بعد أن انتقل إليها أمر رعاية الأماكن المقدسة سنة ١٠٢١ ، ولا سيما بعد حدوث الانشقاق الدينى بين الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٠٥٤ ، فقد دأبت الامبراطورية على إرهاق الحجاج ومعظمهم من الفقراء الذين كانوا يعبرون أراضى الامبراطورية فى طريقهم لزيارة بيت المقدس[١]. ومما يدل على صعوبة الحج آنذاك ما فرضه الامبراطور باسيل الثانى من الضرائب الباهظة على الحجاج عند عبورهم أراضيه إلى بيت المقدس، الأمر الذى أثار غضب البابا فيكتور الثانى سنة ١٠٥٦ ، فكتب إلى الامبراطورة شاكيا يطلب إلغاء هذه الضرائب، كما أظهر ضيقه من الرسوم المرتفعة التى كانت تجبى عند القبر المقدس، بحجة الإفادة منها فى تجديد عمارة كنيسة القيامة[٢].

وهنا نلاحظ أن الغارات التى شنها الأتراك السلاجقة على فلسطين منذ عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) لم تعترض فى البداية طريق الحجاج المسيحيين، لأن أتسز وأرتق اللذين وليا حكم بيت المقدس آنذاك، إنتهجا سياسة واعية حكيمة، فلم يتعرضا للحجاج، فضلا عن أن الحج كان مصدرًا للموارد التى اعتمدا عليها. غير أن تداعى النفوذ الفاطمى فى بلاد لشام، وما ترتب عليه من ظهور إمارات صغيرة، جعل كل أمير يحرص على أن ينال نصيبه من هذه الموارد. ولما مات أرتق فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م)، خشى أبناؤه أن يعمل المسيحيون لإعادة نفوذ الفاطميين، ولذا قاموا بطرد عدد كبير من القسس من بيت المقدس. وازدادت مصاعب الحجاج فى آسيا الصغرى بعد غارات الأتراك السلاجقة فى أنحائها، مما أدى إلى إقفار الطرق من السابلة، وانهارت القرى، وتحطمت الجسور، وجفت مياه الآبار. وعلى الرغم من ذلك، فقد نجحت قافلة الحجاج التى قادها روبرت الأول كونت فلاندرز سنة ١٠٨٩م فى الوصول إلى بيت المقدس بعد المتاعب التى عانتها من قبل السلاجقة، وكان من بين حجاج هذه القافلة بطرس الناسك[٣].

وهكذا نرى أن الحماس الدينى وحده لم يكن السبب الرئيسى لقيام الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الشرق الأدنى، بل كان ستارًا زائفا يخفى تحته أسبابًا سياسية واقتصادية واجتماعية، أمسى فيها الغرب الأوربى قبيل قيام الحملة الصليبية الأولى.

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥؛ حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ٢٦ - ٢٨.

(٢) Runciman, op. cit., p. 77.

(٣) Runciman, op. cit.,p. 78.

وقد بدأت سلسلة الأحداث التى أدت إلى قيام الحملة الصليبية الأولى فى بياتشنزا Piaccenza ، إذ انعقد مجمع دينى برئاسة البابا أوربان الثانى الفرنسى الأصل، وحضرته سفارة من قبل الامبراطورية البيزنطية لطلب العون من البابا ضد الأتراك السلاجقة الذين باتوا يهددون وجود الامبراطورية، خاصة بعد أن استولوا على معظم آسيا الصغرى، ووصلوا تقريبا إلى مضيق البوسفور، وقد رحب البابا بمعاونة الامبراطورية ضد المسلمين[١]. وفى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ عقد البابا أوربان الثانى مجمعا دينيا بمدينة كلير مونت فى مقاطعة أوفيرن فى الجنوب الشرقى من فرنسا، حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين، بالإضافة إلى النبلاء والفرسان، ومندوبين عن الامبراطور البيزنطى؛ وبعد أن بحث المجمع بعض الأمور الكنسية التى عرضت عليه، دعا البابا إلى مقاتلة المسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم[٢]. ولكى يقبل الأهالى على الاشتراك فى الحروب الصليبية، وعدهم البابا بمنافع دينية ودنيوية، كما أكد أن الكنيسة تأخذ على عاتقها حماية عائلاتهم وأموالهم؛ وفى الخطاب البلاغى الملتهب الذى ألقاه أمام جموع الحاضرين قال: «لا تدعوا شيئا من ممتلكاتكم أو شئونكم الخاصة تعوقكم عن التوجه إلى بيت المقدس، لأن هذه الأرض التى تعيشون عليها إنما يحدق بها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، وقد ضاقت بأعدادكم، إنها لا تفيض بالثروة الوفيرة، ولا تكاد تمد فلاحيها بالغذاء، ومن أجل هذا تحاربون بعضكم البعض، وتقتلون بعضكم بعضا، فكفوا أيديكم عن المنازعات، وأوقفوا الحروب، وخذوا الطريق إلى القبر المقدس، وأنقذوا الأراضى المقدسة من ذلك العنصر الشرير (المسلمين)، واحكموها بأنفسكم، لأن تلك الأراضى كما قالت التوراة تفيض باللبن والعسل»[٣].

لقيت دعوة البابا أوربان الثانى استجابة حماسية مذهلة، إذ هتف جمهور الحاضرين بعبارة «هكذا أراد الله» (Deus le volt (God Wills it ، التى تردد صداها فى أوربا الغربية من أدناها إلى أقصاها، وسرعان ما اتخذوا صليبا من قماش أحمر شارة على أكتافهم، فعرفوا

---

(١) Duncalf, op. cit., p. 229; Riley - Smith (Louise & Jonat - han), The Crusades. Idea and Reality. (London , 1981), p. 10.

(٢) William of Tyre, A Hist. of Deeds done beyond the Sea. (New york, 1943), Vol. I, pp. 89 - 91; Duncalf,op. cit., p. 238; Riley - Smith, op. cit., p. 10.

(٣) Duncalf, op. cit., p. 244, Riley - Smith, op. cit., pp. 43 - 44.

منذئذ بالصليبيين، وعرفت الحروب التى قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية[١]. وتحدد يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (عيد العذراء) موعدًا لرحيل الصليبيين، بعد أن يتم جمع المحصول، على أن تلتقى جيوشهم فى القسطنطينية[٢].

ومن الملاحظ أن بذور الحروب الصليبية قد ألقيت فى تربة فرنسية، وأن الذى دعا إليها بابا - وهو أوربان الثانى - من أصل فرنسى، وأنها بدأت واستمرت فى جوهرها مشروعا فرنسيا، وأن المملكة التى أقامها الصليبيون ببلاد الشام، كانت أيضا فى صميمها مملكة فرنسية فى لغتها وعاداتها وتقاليدها. وينبغى ألا ننسى أن فرنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت الموطن المختار للنظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى، وتستطيع أن تقدم حشدًا من الفرسان والنبلاء الإقطاعيين المحاربين لا يمتلك أرضا، ومستعدًا لأن ينطلق فى مغامرة كبيرة خارج فرنسا تعوضهم عن سوء مكانتهم فى المجتمع الأوربى؛ هذا بالإضافة إلى أن فرنسا قاست كثيرًا من المعارك والحروب التى وقعت بها وعجزت البابوية عن كبح جماحها، وعانت - كما أشرنا - من الأوبئة والمجاعات والفيضانات التى حلت بها، ومن أجل هذا لقى الهروب من تلك الأحوال الأليمة ترحيبا[٣].

الحملة الصليبية الأولى:

المعروف أن الحملة الصليبية الأولى تألفت من جماعتين، إحداهما فئة العامة أو الفقراء People's Crusade ، وقد اشتملت هذه الفئة على جموع صليبية ضخمة من الفلاحين وفقراء أهل المدن لم يكونوا على شيء من النظام، بل حملوا الصليب إلى الشرق فى فورة من الحماسة، دون أن يعرفوا شيئا عن جغرافية البلاد التى اختاروا السفر عن طريقها، ولا شيئا عن جوها وأهلها[٤]. إذ بعد أن دعا البابا أوربان الثانى إلى الحروب الصليبية فى مجمع كليرمونت، أخذ الدعاة يبشرون بتلك الحروب، ومن هؤلاء الدعاة بطرس الناسك

(١) Duncalf, op. cit., p. 239.

(٢) Runciman, A Hist. of the Crusades., I, P. 109; Duncalf, op. cit., p. 252.

(٣) Duncalf, op. ct., p. 231; Brooke, Hist. of Europe, pp, 238 - 239; باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤.

(٤) Scott, op. cit., p, 131; فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الأول، ص ١٨١ - ١٨٢.

الذى تميز على غيره بحماسه الملتهب، وأحرز نجاحا هائلا فى دعوته. وقد أثرت هيئتـه تأثيرًا على جموع العامة الكادحين فى غرب أوربا، فقد كان قصير القامـة، دأب السيـر حافى القدمين فى ثياب مهلهلة رثة على جسم عار، ولم يكن يأكل الخبز واللحم، بل كان يعيش على السمك وحده، وصار ينتقل من مكان إلى آخر على حماره الأعرج، داعيا إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية، فاجتاز فرنسا، وسار على امتداد نهر الراين، واستطـاع بفضل هيئته الغريبة وحماسته وفصاحته أن يجتذب إليه ألوف الفقراء[1]. ومما ساعد على استجابة الناس لدعوة بطرس الناسك فى غرب أوربا – كما ذكرنا – سوء الأحوال الاقتصادية التى عاش فيها الفلاحون آنذاك، كما أن الحروب والمنازعات بين السادة الإقطاعيين أسهمت فى نشر الفوضى وتعريض أرواح الناس للهلاك، بصورة جعلت الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا يعيشون فى حرمان وخوف.

وفى ١٢ أبريل سنة ١٠٩٦م، أى قبل حوالى أربعة شهور من الموعد الذى حدده البابا أوربان الثانى لرحيل الصليبيين إلى الشرق، احتشدت خمسة جيوش من الفقراء والمعدمين ومعهم زوجاتهم، وليس معهم من سلاح إلا الهراوات والمناجل والفؤوس والمذارى التى كانت تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف، وقد انضم إلى أولئك الفقراء قطـاع الطـرق والأفاقون والمجرمون وغيرهم «لا لكى يكفروا عن الخطايا، بل لكى يقترفوا خطايا جديدة»، وأخذوا يتجهون جميعا نحو القسطنطينية فى طريقهم إلى بيت المقـدس[2]. على أن ثلاثة من هذه الجيوش لم تستطع الوصول إلى القسطنطينية، وتبدد شملها فى الطريق؛ فالجيشان الأولان لقيا الدمار على يد المجريين جزاء ما ارتكبه الجند من أعمال العنف والتخريب والنهب. أما الجيش الثالث فإنه بعد أن اشترك فى قتال مع اليهود المقيمين بالبلاد الواقعة بوادى نهر الراين راح ضحيته عشرة آلاف يهودى، لم يلبث أن تبدد فى بلاد المجر فى أغسطس من نفس العام. أما الجيشان الباقيان من الجيوش الخمسة أولهما بقيـادة والتـر

(١) Runciman, Hist. of the Crusades, I, p. 113;
باركـر: الحروب الصليبيـة، ص ٢٥ بـردج: تاريخ الحروب الصليبيـة (دمشق ١٩٨٥) ترجمـة أحمد غسان سبانـو، نبيل الجيروى، مراجعة سهيل زكار، ص ٤٠، زابـوروف: المرجع السابق، ص ٥٢ .

(٢) Runciman, op. cit. I, P. 121;
باركـر: المرجع السابق، ص ٢٥ – ٢٦؛ سعيـد عـاشور: أوربـا فى العصور الـوسطى (القاهـرة ١٩٧٨) ، جـ ١ ص ٤٣٠ .

المفلس Walter the Penniless وهو أحد مريدى بطرس الناسك، فقد وصل فى أمان إلى مدينة القسطنطينية فى منتصف يوليه، حيث بقى بها فى انتظار بطرس الناسك، أما الجيش الثانى الذى قاده بطرس الناسك، فإنه اجتاز بلاد المجر فى أمان، ولكنه لقى عناء شديدا فى بلغاريا، ولم يبلغ القسطنطنية إلا فى أول أغسطس ١٠٩٦ بعد أن نقص عدد كبير منه بفعل الجوع والأمراض، وازدادت حالته سوءا[١]. وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها هذان الجيشان من الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين فى أول الأمر، إلا أنهما أمعنا فى ارتكاب كثير من أعمال النهب والسلب فى العاصمة البيزنطية، فانطلقوا فى ارباضها، ونهبوا الكنائس والمنازل والقصور؛ وكان أن انضم الجيشان إلى بعضهما واتحدا سويا، ثم عبرا البوسفور إلى أسيا الصغرى فى شهر أغسطس، وفى نهاية هذا الشهر أجهز السلاجقة عليهما جميعا، ولم يبق من آثارهما إلا كومة من العظام والأشلاء، ليراها من أتى بعدهم من الصليبيين، ويشهدوا المصير الذى آلت إليه حملة العامة[٢].

وإذا كانت هذه الجماعة من الحملة الصليبية الأولى، وهى الجماعة التى ضمت الفقراء والعامة والمعدمين قد أبادها السلاجقة عن آخرها، وانتهى أمرها إلى ما يشبه الانتحار[٣]، فإن الجماعة الأخرى كان قوامها الجيوش المنظمة بقيادة النبلاء وكبار السادة الإقطاعيين والفرسان، سواء أكانوا فرنسيين أم إيطاليين أم نورمانديين؛ ومن الطبيعى أن تكون هذه الجماعة أكثر تقديرًا لدورها من حملة الفقراء، ولهذا فقد استعدت بالسلاح والأموال والرجال والعتاد، واتصلت بالامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين الذى أمدها بالعون قبل أن تشق طريقها إلى بيت المقدس[٤]. ومع ذلك لم تكن جيوش تلك الحملة تخضع لقيادة واحدة، ولم يكن ثمة خطة عامة مشتركة بينها، بل كان كل سيد إقطاعى على رأس فرسانه يمضى نحو هدفه الخاص منذ بداية الحملة حتى نهايتها[٥].

---

(١) William of Tyre I, pp. 97 - 104; Scott, op. cit. 135.
باركر: الحروب الصليبية، ص ٢٦ .

(٢) William of Tyre I, pp. 108 - 109; Ostrogorsky, op. cit., p. 321; Parkes op. cit. p. 107; Scott, op. cit, pp. 135 - 136.
باركر: المرجع السابق، ص ٢٦؛ سعيد عاشور: المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣١ .

(٣) فشر: المرجع السابق، ص ١٨٢ .

(٤) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٦٤؛ Scott, op. cit, p. 136

(٥) زابوروف: المرجع السابق، ص ٦٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان هيو كونت فرماندوا Hugh of Vermandois أول من حمل الصليب استجابة لنداء البابا أوربان الثانى فى حوالى منتصف أغسطس ١٠٩٦ ، وهو ينحدر من دم ملكى، فقد كان ثانى أبناء هنرى الأول ملك فرنسا وأخا فيليب الأول ملكها، غير أن صغر سنه حرمه من الأرض طبقا للنظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى، الذى يقضى بأن الإبن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع، فقنع على كره منه بأملاكه الإقطاعية الصغيرة التى حصل عليها بزواجه من وريثة كونتية فرماندوا[١]. ولعله رأى فى الحروب الصليبية ما يحقق أحلامه فى تأسيس إمارة ضخمة على حساب المسلمين فى الشرق الأدنى، توافق علو نسبه، فوصل إلى القسطنطينية فى نوفمبر ١٠٩٦[٢].

وتلى هيو فى الوصول إلى القسطنطينية جودفرى دى بويون Godfrey of Bouillon دوق اللورين الأدنى وأخواه إيوستاس وبلدوين، وكان كل منهم يختلف عن الآخر فى ميوله وأهوائه. وقد برز اسم جودفرى فى مصادر الحروب الصليبية مقرونا بالتدين والورع، وأنه الصورة المثلى للفارس المسيحى، والبطل الذى لا نظير له فى كل الملاحم الصليبية، غير أن ذلك لم يكن يتفق مع الواقع، فقد اشتهر بنهب أموال الأديرة التى تقع بجوار إقليم بويون؛ ولما انتشرت الدعوة للحروب الصليبية فى أنحاء إقليم اللورين، وأبدى الأمراء الإقطاعيون رغبتهم فى الاشتراك منها، قرر جودفرى أن يمضى معهم، وأختير قائدا للجيش[٣]. أما أخوه الأكبر إيوستاس Eustaceكونت بولونيا، فلم يهتم إلا بأملاكه الشاسعة التى ورثها عن أبيه، أما بلدوين أصغر الإخوة الثلاثة، فلم يكن له فى الوطن أية ممتلكات، وكانت الرغبة فى إقامة إمارة له فى الشرق، تشكل الحافز الرئيسى الذى دفعه إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية. وقد ارتحل جودفرى من الغرب الأوربى فى حوالى منتصف سنة

---

(١) Runciman, op. cit., I, p. 142; Duncalf, "Clermont to Constantinople", p. 266.

(٢) Runciman, op. cit. I, p. 145.

الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ١٧٩؛ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٦٥؛ بردج: المرجع السابق، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣) Duncalf, op. cit., pp. 267 - 268.

الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٨٣؛ بردج: المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ٦١.

١٠٩٦م ، وسلك الطريق المعروف بطريق شارلمان، الذى يجتاز المجر إلى القسطنطينية، فبلغها فى ٢٣ ديسمبر من نفس العام[١].

واشترك فى الحملة الصليبية الأولى أيضا جماعة من النورمان بقيادة بوهيموند أمير تارنتو Taranto . وقد انطلق بوهيموند فى تلك الحملة من باب الصدفة، فقد كان يحاصر مدينة أمالفى فى جنوب إيطاليا عندما تناهى إلى سمعه أن جموعًا غفيرة خرجت من غرب أوربا فى طريقها إلى بيت المقدس، وكان قد سمع الكثير عن ثروات الشرق الأدنى من تجار بارى وأمالفى بعد عودتهم من بلاد الشام، فلم يكد يتأكد من أهداف الحركة الصليبية، حتى ترك حصار أمالفى، وبصحبته ابن أخيه تانكرد البالغ من العمر عشرين سنة وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية، فضلا عن كثير من الشباب المغامر الذى كان تواقًا للجديد[٢]. وأبحر بوهيموند من بارى على رأس جيش صغير فى أكتوبر ١٠٩٦ ، متخذًا طريق البحر إلى دورازو، ومنها سار إلى القسطنطينية، فبلغها فى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٧[٣].

كما ساهم فى هذه الحملة ريموند كونت تولوز بجنوب فرنسا المعروف فى المصادر العربية بالصنجيلى – نسبة إلى مقاطعة سان جيل Saint Gilles – وأكثر الصليبيين مالا، وسبق له أن شارك فى الحروب التى شنها المسيحيون على المسلمين بأسبانيا، ولكنه منى بالإخفاق هناك، وهو أول أمير ناقشه البابا أوربان الثانى فى مشروع الحرب الصليبية، وأول من قبل الانضمام إليها رغم تقدمه فى السن. وقد خرج ريموند فى أكتوبر ١٠٩٦ على رأس أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددًا، وكان بصحبته أدهيمار أسقف لى بوى مندوب البابا وعدد كبير من أمراء جنوب فرنسا[٤]. واجتاز ريموند جبال الألب، ونفذ

---

(١) Runciman, op. cit., I, pp. 146 - 147;
العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٨٣؛ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٦٥ – ٦٧؛ باركر: المرجع السابق، ص ٢٦؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ٦٠ – ٦١.

(٢) Duncalf, op. cit., scott, op. cit., p. 137;
زابوروف: المرجع السابق، ص ٦١ – ٦٢.

(٣) باركر: الحروب الصليبية، ص ٢٧ .

(٤) Duncalf, op. cit., p. 272; Scott, op, cit., p. 137.
زابوروف: الصليبيون فى الشرق، ص ٢٩.

إلى شمال إيطاليا ومنه إلى رأس البحر الأدرياتي، ثم اجتاز أستريا ودلماشيا وألبانيا ومقدونيا، ومنها إلى القسطنطينية، حيث بلغها فى ٢٧ أبريل ١٠٩٧[١].

أما الجيش الصليبى الرابع، فقد وصل إلى القسطنطينية فى مايو ١٠٩٧ تحت قيادة روبرت كونت نورمنديا الواقعة فى شمال فرنسا، وهو أكبر أبناء وليم النورمانى فاتح إنجلترا سنة ١٠٦٦ ، وصحبه صهره ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois وكان معهما أيضا إبن عمهما روبرت الثانى كونت فلاندرز، غير أنه انفصل عنهما وسبقهما فى المسيرة، ووصل إلى القسطنطينية قبل نهاية سنة ١٠٩٦[٢].

وعلى أية حال، وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى المعروفة بالحملة النظامية أو حملة الأمراء تباعا إلى القسطنطينية، فى الفترة الواقعة بين نوفمبر ١٠٩٦ ومايو ١٠٩٧ . وهنا نلاحظ أن وصول أعداد ضخمة من القوات الصليبية لم تقل عن مائة ألف إلى العاصمة البيزنطية، قد أثار مخاوف الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين، الأمر الذى جعله يتمسك بأن يتعهد له زعماء الحملة بالولاء والتبعية، وتسليمه كل ما يستردونه من أراضى الامبراطورية وأملاكها المفقودة فى آسيا الصغرى، باستثناء الأراضى المقدسة نفسها، وفى المقابل يتعهد الامبراطور بإمدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقلهم إلى الشاطئ الآسيوى[٣]. وفى المحاولات التى بذلها الإمبراطور لحمل زعماء الحملة الصليبية الأولى أن يقسموا يمين الولاء له، وافق الجميع، ماعدا ريموند كونت تولوز الذى نظرت إليه الأميرة المؤرخة آنا كومنينا ابنة الامبراطور على أنه أقل الفرنجة تحضرًا، إذ دخل فى نزاع مع الإمبراطور، وانتهى الأمر بأن وافق على أن يردد صيغة معدلة لقسم الولاء تتضمن احترام حياة الامبراطور

---

(١) William of Tyre, I, pp. 139 - 142;

العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٩٤ – ١٩٦؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ٦٤ .

(٢) William of Tyre, I, pp. 148 - 149; Duncalf, op. cit., pp. 275 - 277; Runciman, "The First Crusade: Constantinople to Antioch", p. 288;

حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٦٨؛ باركر: المرجع السابق، ص ٢٧؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ٦٤ – ٦٥؛ العرينى: المرجع السابق، ص ٢٠٠ .

(٣) Gesta Francorum., p. xxix; Riley-Smith, op. cit., p. 12, Ostrsgorsky, op. cit., p. 322; Diehl (C.), Hist. de L'Empire Byzantin (Paris, 1924), p. 154;

سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، جـ ١ ص ٤٣٢ .

وشرفه؛ أما تانكرد فإنه اجتاز مضيق البوسفور سرًا فى الليل، حتى يتجنب بذل يمين الولاء للامبراطور[١].

وتحت ستار الدين عبرت الجيوش الصليبية النظامية مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، حتي كان لابد لها من أن تحتك احتكاكا حربيا بسلاجقة الروم فى المناطق التى تمر بها إلى وجهتها المنشودة[٢]. ومما يجدر ذكره أن تلك الجيوش لم تكن قاصرة على المشاة والفرسان ورماة النبال والسهام والعمال الذين تحتاجهم الحملة فى القتال، بل ضمت إليها طائفة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة والنساء اللائى جيء بهن لدوافع لا تمت إلى القتال بسبب، فكانت أشبه ما تكون بهجرات شعبية وطنت نفسها على الاستقرار فى منطقة الشرق الأدنى[٣].

وفى السادس من مايو سنة ١٠٩٧ وصل الصليبيون إلى مدينة نيقية (أزنيق الحالية) عاصمة الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى، التى كان يحكمها وقتذاك السلطان السلجوقى قلج أرسلان (١٠٩٢ – ١١٠٧) ومتغيبا عنها على الحدود الشرقية. وعندما شرع الصليبيون فى حصار المدينة وبناء أدوات الحصار لهدم أسوارها فى ١٤ مايو ١٠٩٧ ، أرسلت الحامية السلجوقية المدافعة عن قلعة المدينة إلى قلج أرسلان تطلب النجدة، ولكنه جاء بعد فوات الأوان، واصطدم بقوات صليبية ضخمة لم يكن يتوقعها، جعلته عاجزًا عن مواجهتها، فانسحب إلى الجبال، وطلب إلى الحامية أن تتخذ ما تراه مناسبا لصالحها[٤]. ولما وجدت الحامية نفسها عاجزة عن الصمود، بعثت برسالة إلى الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين تتضمن استعدادها لتسليم المدينة له إذا سمح لرجالها بالخروج بنسائهم وأطفالهم سالمين، فوافق الامبراطور على ذلك، وعاملهم معاملة طيبة، ووضع يده على المدينة فى ٢٢ رجب ٤٩١هـ (٢٦ يونيه ١٠٩٧)، ورفع الراية البيزنطية على قلعتها[٥].

---

(١) Gesta Francorum., p. xxix; Runciman, op. cit., p. 287.
زابوروف: المرجع السابق، ص ٧٢ .

(٢) فشر: المرجع السابق، ص ١٨٢ – ١٨٣ .

(٣) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٨٥ ،

(٤) Gesta Francorum., p. 14; William of tyre. I, pp. 152 -156; Runciman, op. cit., p. 290; Grousset, L'Empire des Croisades, pp. 34 - 35.
العرينى: الشق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٥) Gesta Francorum., pp. 16; William of Tyre, I, pp. 165 - 168; Runciman op. cit., pp. 291 - 292.

اتجه الصليبيون بعد ذلك إلى دوريلايوم Dorylaeum (إسكى شهر الحالية)، وكان قلج أرسلان وقواته قد لجأوا إلى التلال المحيطة بها فى ٣٠ يونيه ١٠٩٧ فى انتظارهم للانقضاض عليهم. فلما عسكر الصليبيون بقيادة بوهيموند النورمانى، شن عليهم المسلمون هجومًا كبيرًا فى اليوم التالى (أول يوليو) وهم يرددن نداء «الله أكبر» وأحاطوا بقوات بوهيموند من جانب، حتى أوشكت على الهزيمة. وعندما وصل الخبر بما حدث إلى بقية الجيوش الصليبية، أسرع جودفرى دى بويون وريموند كونت تولوز وغيرهما إلى نجدة بوهيموند، فقويت الروح المعنوية عند الصليبين، واستماتوا فى القتال، على حين ارتبكت صفوف المسلمين ولاذوا بالفرار، وتركوا وراءهم معسكرهم بما حواه من ذهب وفضة وخيول وأشياء كثيرة أخرى، غنيمة فى أيدى الصليبيين(١). وعلى الرغم من الانتصار الساحق الذى أحرزه الصليبيون فى معركة دور يلايوم، إلا أنهم فقدوا بعض رجالهم الأقوياء، وقد علمتهم هذه المعركة أن يقدروا السلاجقة كمحاربين شجعان، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يمسكوا أنفسهم عن الإعجاب بهم(٢). وتعد معركة دوريلايوم من المعارك الفاصلة فى التاريخ، التى لا تقل فى أهميتها عن موقعة مانزكرت التى جرت قبل ذلك عام ٤٦٣هـ (١٠٧١م)، فقد أعلنت عن ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث السياسية بمنطقة الشرق الأدنى، هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على السلاجقة. كما أن هذه المعركة حسمت مسألة توازن القوى فى الشرق الأدنى لأكثر من قرن(٣)، وخاصة أنها ضمنت سلامة الامبراطورية البيزنطية وأمنها لزمن طويل.

بعد الانتصار الذى حققه الصليبيون فى دوريلايوم، واصلوا زحفهم فى حوالى منتصف أغسطس ١٠٩٧ ، بعد أن عانوا نقصا شديدًا فى المؤن والمياه فى المناطق التى سلكوها، ولم تعد صالحة للزراعة بسبب غارات الترك المخربة، وقد أضناهم القيظ الشديد الذي لم يكن الصليبيون قادرين على احتماله، غير أن الصليبيين عندما بلغوا قونية لقوا المساعدة من الأرمن، حيث أمدوهم بالطعام والمؤن(٤). أما السلطان قلج أرسلان ورجاله، فقد

---

(١) Gesta Francorum., pp. 19 - 20; Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade. Trans, by Martha Evlyn Mcginty, pp. 35 - 37; William of Tyre, I, pp. 168 -173; Runciman, op. cit., p. 293.

(٢) Runciman, op. cit., p. 294.

(٣) حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ٨٥ .

(٤) Fulcher of Chartres., 37 - 38; William of Tyre, I, pp. 173 - 174.

انسحبوا إلى الجبال، وتركوا المدينة خالية ممن يدافع عنها. ثم وصل الصليبيون إلى هرقلة، فوجدوا بها عددًا كبيرًا من السلاجقة، سرعان ما فروا هاربين أمامهم(١).

وبعد أن استراح الصليبيون فى هرقلة أربعة أيام، انفصل بلدوين وتانكرد بقواتهما عن الجيش الرئيسى، واتجها فى ١٤ سبتمبر ١٠٩٧ صوب قيليقية فى الجزء الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى، فى حين اتجه الجيش الرئيسى الذى يضم غالبية الصليبيين صوب قيصرية فى قبادوقيا، فبلغها فى ٢٧ سبتمبر، ولم يلبث هذا الجيش أن غادرها ومضى فى زحفه إلى مدينة كومان Placentia ، وهى مدينة وافرة الثراء يقطنها الأرمن، فاستولى عليها فى أوائل أكتوبر. ثم تابع الجيش الصليبى زحفه إلى أن وصل إلى مدينة مرعش فى ١٣ أكتوبر، وهناك رحب بهم سكانها من الأرمن وأعطوا الصليبيين كل ما احتاجوه من مؤن، وبعد أن قضى الصليبيون بمرعش حوالى أربعة أيام اتجهوا إلى الشام، فوصلوا إلى أنطاكية فى ١٠ ذو الحجة عام ٤٩١هـ (٢٠ أكتوبر ١٠٩٧)(٢).

وقبل أن نتعرف على أحداث الغزو الصليبى لبلاد الشام، ينبغى أن نتناول جهود بلدوين فى تأسيس إمارة الرهافى أعالى العراق. وقد سبق الإشارة إلى أن بلدوين أخو جودفرى بويون ومعه تانكرد ابن أخ بوهيموند النورمانى، قد انفصلا عن الجيش الصليبى الرئيسى لغزو قيليقية وانتزاعها من السلاجقة. وكان برفقة بلدوين المؤرخ فولشر الشارترى، الذى يروى أن بلدوين انتزع مدينة طرسوس من تانكرد(٣). وكان تانكرد قد سبق بلدوين فى الطريق، وتوجه إلى طرسوس للاستيلاء عليها بمساعدة سكانها من الأرمن واليونانيين، ولما قدمت قوات بلدوين انسحبت القوات التركية من المدينة، وارتفعت راية تانكرد على أسوارها، غير أن النزاع لم يلبث أن وقع بين بلدوين وتانكرد على طرسوس، وانتهى هذا النزاع بانسحاب الأخير من المدينة غاضبا، نظرًا لتفوق بلدوين عليه فى القوة العسكرية، واتجه بقواته صوب أدنه Adana(٤).

---

(١) Gesta Francorum., p. 23; William of tyre, I, p. 175; Runciman, op. cit., p. 295.

(٢) Gesta Francorum., pp. 24 - 27; William of Tyre, I, p. 177; Runciman, op. cit., pp. 297 - 298, Grousset L'Epopée., p. 40.

(٣) Fulcher of chartres., p. 39.

(٤) William of Tyre, I, pp. 178 - 181; Runciman, Hist. of the Crusades, I, pp. 197 - 198. العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٢٣ – ٢٢٤؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ٨٠ – ٨١.

ومهما يكن من أمر،فقد جمع بلدوين جيشه وسار متجها إلى الفرات، حيث استطاع أن يستولى على كثير من القلاع والمدن فى شمال الجزيرة من بينها تل باشر والراوندان، وذلك بفضل مساعدة الأرمن الذين كانوا يؤلفون غالبية السكان[١]. وفى تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع باستيلاء بلدوين على تل باشر، فأرسل إليه سفارة فى أول فبراير ١٠٩٧م تدعوه للقدوم إلى الرها لمساعدته ضد الأتراك السلاجقة؛ ولما كان ثوروس طاعنا فى السن، ولم يكن له وريث يعقبه، فقد عرض على بلدوين أن يتخذه ابنا ووريثا فى الحكم، حتى لا تضيع الرها من أيدى الأرمن ويأخذها الأتراك[٢]. ومما زاد من مخاوف ثوروس وقتئذ ماسمعه من أن كربوغا صاحب الموصل كان يعد جيشًا كثيفًا لإنقاذ أنطاكية من الصليبيين، وأنه لابد أن يجتاح الرها فى طريقه[٣].

وكان من الطبيعى أن يرحب بلدوين بما عرضه عليه ثوروس، فغادر تل باشر فى فبراير ١٠٩٨ على رأس جيش صغير مؤلف من ثمانين فارسًا بعيدا عن أعين المسلمين، وفى سميساط نصب له الأتراك كمينا فى المكان الذين توقعوا أن يعبر عنده نهر الفرات – ومن المحتمل عند البيرة – ولكنه استطاع أن يفلت منهم. وهنا نلاحظ أن الأرمن والمسيحيين كانوا يستقبلون بلدوين فى كل مكان يمر فيه بالصلبان والرايات، تعبيرًا عن فرحهم بقدومه، إلى أن بلغ الرها فى ٢٠ فبراير ١٠٩٨م، حيث استقبله ثوروس وزوجته وجميع أهالى الرها استقبالا حافلا، وسرعان ما أقام ثوروس حفلا أعلن فيه تبنيه بلدوين وأعطاه الحق فى وراثة عرشه. على أنه بعد وصول بلدوين إلى الرها بخمسة عشر يوما قامت ثورة عارمة ضد ثوروس فى ٧ مارس ١٠٩٨م، إنتهت بقتله أثناء محاولته الهرب من القلعة، وبذلك انتقلت مقاليد الأمور إلى بلدوين[٤]، الذى استطاع أن يؤسس أول إمارة صليبية فى الرها فى أعالى الفرات، أصبحت قاعدة أمامية مهمة للكيان الصليبى فيما بعد.

---

(١) Fulcher of Chartres., p. 39; Runciman, "The First Crusade: Constantinople To Antioch", p. 302.

(٢) Fulcher of Chartres., pp. 39 - 40; Runciman, op. cit., p. 303; Grousset, L'Epopée., op. cit., pp. 68 - 69.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٠٣ .

(٤) Fulcher of Chartres., pp. 40 - 41; William of Tyre, I, pp 191-194, Runciman, op. cit., pp. 303 - 304.

الصليبيون فى أنطاكية :

أما الجيش الصليبى فقد استمر فى زحفه حتى بلغ مدينة أنطاكية فى ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧م كما ذكرنا من قبل. وتعتبر هذه المدينة أكثر المدن تحصينا فى بلاد الشام، فقد أسسها سليوقوس ملك سوريا (٣١٢ – ٢٨٠ق.م) على الضفة الشرقية من نهر العاصى سنة ٣٠٠ ق.م، وسميت باسم أنطيوخوس – والدسليوقوس – الذى كان ضابطا فى جيش فيليب المقدونى، وجعلها عاصمة سوريا. وهى مدينة ضخمة ذات أسوار منيعة، وجهزت تجهيزا قويا للدفاع عنها، وبإمكان أهلها الدفاع عنها مدة طويلة ضد أى عدو لو أنهم احتفظوا داخلها بمؤن كافية. ومن المعروف أن أنطاكية تتمتع بمكانة عظيمة فى المسيحية، فقد أقام بها القديس بطرس أول أسقفية له؛ ومع أنها كانت تبعد عن البحر بحوالى ١٣ ميلا، إلا أنها كانت فى معظم أوقاتها ملتقى الحاصلات والبضائع التى تصل إليها من أماكن بعيدة[١].

وسبقت الإشارة إلى أن أنطاكية بقيت فى حوزة البيزنطيين حتى سنة ١٠٨٤م، إلى أن انتزعها منهم سليمان بن قتلمش سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فى فبراير ١٠٨٥؛ وعندما تغلب تتش – وهو أخو السلطان ملكشاه – على سليمان بن قتلمش وقتله سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)، صارت أنطاكية من أملاكه، حتى رأى السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعهد بحكمها إلى أحد رجاله من التركمان، وهو ياغى سيان. ولما مات ملكشاه فى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) انتقلت السيادة على أنطاكية إلى رضوان صاحب حلب، وكان أخوه دقاق صاحب دمشق، وهما من السلاجقة[٢]. ومما يجدر ذكره، أن ياغى سيان لم يكن تابعا مخلصا لرضوان، ففى خلال الحروب التى قامت بين الأخوين –رضوان ودقاق –وقف ياغى سيان إلى جانب الأخير، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يستعدون للقدوم إلى الشرق. ونتيجة لهذا، عندما شعر ياغى سيان بالخطر الصليبى وطلب النجدة من أمراء الشام والموصل، رفض رضوان صاحب حلب أن يمد له يد المساعدة انتقامًا منه لوقوفه إلى جانب أخيه دقاق ضده. كما بعث ياغى سيان إبنه إلى حليفه دقاق صاحب دمشق، فوعده بإرسال جيش لإنقاذ أنطاكية[٣]. ووافق كربوغا صاحب الموصل على نجدة

(١) Fulcher of Chartres., pp. 41 - 42.

(٢) Runciman, op. cit., p. 309.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٨ .

أنطاكية، ولكنه كان يتطلع منذ وقت طويل للاستيلاء على حلب، فإذا أمكنه الاستيلاء على أنطاكية، صارت حلب فى متناول يده[١].

وعلى أية حال، استمر حصار الصليبيين لأنطاكية حوالى سبعة شهور من ٢١ أكتوبر ١٠٩٧ إلى ٣ يونيه ١٠٩٨ ، وكان من الممكن ألا تطول مدة الحصار لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتا طويلا فى الانتظار، لاسيما وأن جميع الشواهد كانت تشير إلى حالة الفزع التى استولت على الأتراك فى أنطاكية عندما علموا بوصول الصليبيين[٢] إلى أسوارها. وفى هذا الصدد يشير المؤرخ المجهول إلى حالة الأتراك منذ بدء الحصار الصليبى بقوله: «أما أعداؤنا الأتراك فقد ظلوا خائفين داخل المدينة قرابة أسبوعين، ولم يجرؤ أحد منهم على مهاجمة فرد من جماعتنا»[٣].

وفى أثناء الحصار الصليبى لأنطاكية، اجتمع زعماء الصليبيين للتشاور فى كيفية الاستيلاء على المدينة، والوقت الذى ينبغى تحديده لذلك، ولكنهم لم يتفقوا على رأى واحد، بل انقسموا إلى فريقين، أحدهما برئاسة كونت صنجيل والآخر برئاسة بوهيموند النورمانى. وكان من رأى كونت صنجيل أن يبادر الصليبيون إلى اقتحام أسوار المدينة، كى يضيقوا الخناق على حاميتها، ولكن بوهيموند عارض هذا الرأى لحرصه على أن ينفرد بالاستيلاء على المدينة، دون أن ينازعه فيها أحد. ولم تفلح جهود كونت صنجيل فى حمل الصليبيين على المبادرة بالهجوم، فأفلتت الفرصة الوحيدة للاستيلاء فورًا عليها، الأمر الذى هيأ لياغى سيان الوقت للمقاومة والاستنجاد بالقوى الإسلامية المجاورة[٤].

والواقع أن طول انتظار الصليبيين أمام أسوار أنطاكية أثبت خطأ رأى بوهيموند، فعندما حل فصل الشتاء واجهت الصليبيين مشكلة نقص المؤن، بصورة أجبرتهم على الخروج بعيدًا عن أنطاكية بحثا عن الطعام، فتوغلوا مسافات تبعد حوالى أربعين أو خمسين ميلا

---

(١) Runciman, op. cit., p. 309;
الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٢٣٣ .

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٣) Gesta Francorum., p. 28.

(٤) William of Tyre, I, p. 206; Runciman, Hist of the Crusades, I, pp. 217-218.
الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٣٦ ؛ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٣٣ – ١١٤ .

عن معسكرهم، حيث عرضهم ذلك للوقوع فى الكمائن التى نصبها السلاجقة المقيمين بالجبال، ووقوع كثير من الصليبيين قتلى[١].

ولما اشتدت المجاعة بالصليبيين، خرجت جماعة منهم بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت كونت فلاندرز، للاغارة على القرى الإسلامية المجاورة والحصول على المؤن. وعندما وصل الخبر إلى ياغى سيان بابتعاد بوهيموند وروبرت عن معسكرهما، خرج فجأة من المدينة فى ٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ ، واشتبك مع بقية الصليبيين بقيادة ريموند دى تولوز فى قتال راح ضحيته عدد كبير من فرسانهم ومشاتهم[٢]. حدث هذا فى الوقت الذى كان جيش إسلامى بقيادة دقاق صاحب دمشق قد تجمع فى شيزر لنجدة أنطاكية، وهناك علم المسلمون أن الصليبيين على مقربة منهم عند البارة، فنهضوا على الفور، وكان أول ما اصطدموا به جيش روبرت الذى كان يقل فى عدده عن جيش بوهيموند، فأحاطوا به. ولكن بوهيموند وصل على رأس جيشه فى الوقت المناسب، وشن هجومًا على المسلمين جعلهم يتراجعون إلى حماة وقد تحملوا خسائر فادحة؛ ومع أن الصليبيين قد انتصروا فى هذه المعركة، إلا أنهم فقدوا عددًا كبيرًا من الرجال[٣].

ومما يدعو إلى التأمل هنا أن الدولة الفاطمية فى مصر، فكرت فى مشروع للتحالف مع الصليبيين ضد خصومهم الأتراك السلاجقة فى بلاد الشام. وكان الامبراطور البيزنطى قد نصح الصليبيين قبيل زحفهم على بلاد الشام بعقد أواصر الصداقة مع الفاطميين الذين كانوا يكرهون الأتراك، ويرغبون فى العمل ضدهم[٤]، خاصة أنهم عرفوا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين. وقد اعتقد الفاطميون أن بإمكانهم الإفادة من الصليبيين فى الكيد لخصومهم السلاجقة، بدليل أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (١٠٩٤ - ١١٢١م) صاحب النفوذ الفعلى فى مصر، قد أرسل فى صفر سنة ٤٩٢هـ (يناير ١٠٩٨) سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية تحمل مشروع اتفاقية تعقد بين مصر وبينهم، بحيث تكون أنطاكية وشمال بلاد الشام للصليبيين، وبيت المقدس للمسلمين، على أن يسمح

---

(١) Fulcher of Chartres, p. 43; Runciman, "The First Crusade: Antioch to Ascalan", p. 311.

(٢) Gesta Francorum., p. 32; William of Tyre, I, pp. 215 -216; Runciman, op. cit., p. 312.

(٣) William of Tyre, I, pp. 216 - 218; Runciman, op. cit., p. 312.

(٤) William of Tyre, I, p. 223; Runciman, op. cit., pp. 315 -316; Hist. of the Crusades, I, p. 229.

للصليبيين بزيارة الأراضى المقدسة، وممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، شرط ألا تزيد إقامتهم فيها أكثر من شهر واحد، ولا يدخلوها بسلاحهم[١]. ولاشك أن قادة الصليبيين رحبوا بالسفارة الفاطمية، بغرض تشجيع الخلافات والانقسامات بين القوى الإسلامية، ولكنهم رفضوا مشروع الاتفاقية لأنها غير مقبولة أبدًا فى نظرهم، ولأن الاستيلاء على بيت المقدس هو الهدف الرئيسى[٢] الذى تحملوا المشاق من أجله. ولعل ذلك يوضح لنا مدى انقسام المسلمين على أنفسهم وتتذاك بين سنة وشيعة، الأمر الذى مكن الصليبيين من تحقيق مكاسب كثيرة على حساب الجميع[٣]. وكان الواجب على القوى الإسلامية أن تتناسى أحقادها وخلافاتها المذهبية والسياسية، وتوحد كلمتها، وتعمل على تضافر الجهود لدرء الخطر المشترك[٤].

وفى تلك الأثناء، ضاق ياغى سيان ذرعًا بوطأة الحصار الصليبى على أنطاكية، وأرسل إلى كربوغا أمير الموصل يستنجد به، فخرج كربوغا على رأس جيش ضخم متوجها إلى أنطاكية. ولما جاءت الأنباء بذلك إلى الصليبيين أصابهم الفزع خشية أن تطبق عليهم قوات كربوغا وياغى سيان من داخل المدينة وخارجهم، الأمر الذى يعرضهم للهلاك. ولكن شاء حسن حظ الصليبيين أن كربوغا قد توقف فى طريقه عند الرها للاستيلاء عليها حتى لا تقطع خطوط مواصلاته وتهدد جيوشه، وحاصرها ثلاثة أسابيع من ٤ إلى ٢٥ مايو ١٠٩٨، غير أن مناعة أسوارها حالت دون استيلائه عليها، فغادرها بجيوشه إلى أنطاكية لمساعدة ياغى سيان[٥].

وفى خلالا لأسابيعا لثلاثة التى ضيعها كربوغا أمام أسوار مدينة الرها، استطاع بوهيموند النورمانى أن يكسب صداقة أحد قواد ياغى سيان، وهو أرمنى الأصل يدعى فيروز، نال ثقة ياغى سيان، فعهد إليه بحراسة أحد أبراج المدينة. ولكن فيروز كان حاقدا على سيده لمصادرته أمواله وغلته التى كان يخزنها ويحتكرها لنفسه، وساقه الغضب إلى أن يتصل

---

(١) William of Tyre, I, PP. 223 - 224; Runciman, UThe First Crusade: Antioch to AscalanU, p. 316; Grousset, L'Epopée., pp. 44 - 45.

(٢) Grousset, L'Epopée., p. 45.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٩٢ .

(٤) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٢٨ .

(٥) Fulcher of Chartres., p. 49; William of Tyre, I, pp. 225 -226; Runciman, op. cit. p. 316.

بيوهيموندعن طريق بعض الأرمن، واتفق معه على تسهيل دخوله إلى المدينة(١). ولما وثق بوهيموند من أن بمقدوره دخول المدينة بفضل فيروز كتم الأمر عن بقية الزعماء الصليبيين، طمعا فى الاستحواز على المدينة والانفراد بحكمها. ولم يلبث أن عرض على القادة الصليبيين أن يعهدوا له بقيادتهم والسماح له باتخاذ أنطاكية إمارة له فى حالة سقوطها، ولكن طلبه قوبل بالرفض. فلما ذاع خبر اقتراب كربوغا أتابك الموصل بجيوشه لتخليص أنطاكية من الحصار الصليبى، لم يتردد القادة الصليبيون فى إجابة بوهيموند إلى طلبه(٢).

وكان أن احتشد الصليبيون بقيادة بوهيموند فى ٢ يونيه ١٠٩٨ أمام البرج الذى يحرسه فيروز الأرمنى، ونصبوا السلالم، وتسلقوا سور المدينة، واستولوا على البرج وما يجاوره من أبراج، ثم انطلقوا جميعا إلى داخل المدينة، وأمعنوا القتل فى كل من عثروا عليه. وفى فجر اليوم التالى كان لا يزال كثيرًا من الصليبيين فى معسكراتهم خارج المدينة، فلما رأوا راية بوهيموند عالية، دخلوا المدينة وذبحوا من صادفوه من الأتراك، «ووقع السيف فى الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين فى الرغبة فى الجهاد، وحماية المسلمين»، ولم ينج من القتل إلا من استطاع الفرار إلى القلعة. أما ياغى سيان، فقد حاول الفرار مع جماعة من الأتراك، ولجأوا جميعا إلى إحدى القرى بعد أن تعبت خيولهم، ولكن ياغى سيان سقط مغشيا عليه من فرسه، فرآه أحد الأرمن وقتله، واحتز رأسه وحمله إلى بوهيموند(٣).

وعلى الرغم من سقوط أنطاكية فى يد الصليبيين، إلا أن القلعة كانت لاتزال فى يد شمس الدولة بن ياغى سيان. ولاشك أن بقاء القلعة تحت سيطرة المسلمين كان مصدر قلق للصليبيين، فقد خشوا أن يتعرضوا لحصار يفرضه عليهم شمس الدولة من القلعة فى داخل المدينة، وكربوغا من خارجها. وقد حدث ما توقعه الصليبيون من ناحية كربوغا، إذ عسكر بقواته فى مرج دابق ومعه دقاق صاحب دمشق، وجناح الدولة صاحب حمص،

---

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، ص ١١٤؛

Gesta Francorum, p. 44; Fulcher of Chartres., pp. 466 - 47; Runciman, op. cit. p. 316.

(٢) Gesta Francorum., pp. 44 - 45; Grousset, L' Epopee., pp. 46 - 47.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ١٨٥ - ١٨٦؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٠ - ٢٢١؛

Gesta Francorum., pp. 46 - 48; Fulcher of Chartres., 47 - 48; Runciman, op. cit., p. 318; Grousset, L'Epopée., p. 47.

وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق حاكم بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء[١]. وقد اجتمع لدى كربوغا -على حد قول المصادر الصليبية - حوالى ثلاثمائة ألف من الفرسان والرجالة[٢]. ولم يلبث أن ظهر الجيش السلجوقى أمام أسوار أنطاكية، وتلى ذلك أن استولى كربوغا على القلعة وعين عليها أحد قواده الثقاة، وهو أحمد بن مروان، الذى أخذ يهاجم الصليبيين من القلعة، ولكنهم كانوا قد أقاموا سورًا سميكا يعزلهم عن القلعة، وبفضله تمكنوا من صد الهجمات العنيفة التى شنها عليهم هذا القائد[٣].

وعندئذ رأى كربوغا أن يطوق الصليبيين من داخل المدينة وخارجها، حتى إذا اشتدت عليهم المجاعة، وجه إليهم هجوما شاملا. وقد استمر الحصار قرابة ثلاثة أسابيع من ٥ إلى ٢٨ يونيه ١٠٩٨؛ وتشير المراجع إلى أن الصليبيين عانوا من وطأة الحصار، حتى أنهم أكلوا خيولهم وحميرهم الهزيلة، ومات الكثير منهم جوعا[٤].

ولما استبد اليأس بالصليبيين أوفدوا سفارة إلى كربوغا يطلبون منه رفع الحصار عن المدينة، ولكنه أبى، وطالبهم بالاستسلام دون قيد أو شرط، وبذلك لم يعد أمامهم إلا القتال، فخرجوا لملاقاته يوم ٢٨ يونيه ١٠٩٨ ، وانتظموا صفوفا. وكان بمكنة كربوغا القضاء على الصليبيين والإجهاز عليهم عند خروجهم من المدينة فى جماعات صغيرة، خاصة أن بعض الأمراء أشار عليه ألا يمكن الصليبيين من الخروج جميعا، وأن يقتلهم أولا فأولا، ولكنه لم يستجب لنصحه، بل استهان بالصليبيين، وفضل الانتظار حتى ينقض عليهم مرة واحدة؛ وبذلك أضاع كربوغا فرصة ثمينة على المسلمين، فقد تجمع الصليبيون وأنزلوا بالمسلمين هزيمة فادحة، لاذوا على أثرها بالفرار. وأخذ الصليبيون فى مطاردة فلولهم، ونهبوا «وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم»[٥]. والواقع أن هزيمة كربوغا أحبطت معنويات

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) Fulcher of Chartres., p. 51.

(٣) Runciman, op. cit. p. 319.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢١٥ -٢١٦؛ الكامل، جـ ٨ ص ١٨٧؛ Gesta Fracorum, pp. 56 - 62; William of Tyre, I, pp. 271 - 272.

(٥) الكامل، جـ ٨ ص ١٨٧؛ Fulcher of Chartres., pp. 52 - 53; Runciman, op. cit. pp. 322 - 323; Grousset, L' Epopée., p. 48. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥؛ حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ١٤٣-١٤٤.

الترك، ونشرت الفوضى بينهم، وقوضت الثقة فيما بينهم، فانبعثت الغيرة بين رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق حول أيهما يقود الحرب ضد الصليبيين؛ أما الأمراء السلاجقة الأقل شأنا، فلم يفكروا إلا في مصالحهم الخاصة، في حين كان زعماء الأسرتين العربيتين بنو منقذ في شيراز وبنو عمار في طرابلس على استعداد لمعاونة عدو الترك[١].

في الطريق إلى بيت المقدس :

بعد أن انتقلت أنطاكية إلى حوزة الصليبيين، عقد زعماؤهم مجلسًا لإيجاد أفضل الوسائل التي تمكنهم من مواصلة الرحلة إلى بيت المقدس، فقرروا البقاء في أنطاكية حتى شهر نوفمبر، لصعوبة السير في أرض المسلمين في فصل الصيف اللافح الحرارة الذى لا يطيقونه من ناحية، ولعدم معرفتهم بأماكن المياه التي يستقون منها من ناحية أخرى[٢]. وفي تلك الأثناء انصرف زعماء الصليبيين إلى القيام بغارات ناهبة على القرى المجاورة لأنطاكية للحصول على المؤن، فخرج أحد الفرسان التابعين لريموند الصنجيلي واسمه ريموند بيليه Raymond Pilet ، ووصل إلى معرة النعمان – بلدة أبي العلاء المعرى – في ٢٧ يوليه ١٠٩٨ ، وفي القتال الذى دار بين المسلمين والصليبيين، لم يستطع الصليبيون الصمود لشدة حرارة الجو وقلة الماء التي تروى ظمأهم، فانسحبوا راجعين[٣]. وفي ٢٥ سبتمبر من نفس العام، هاجم ريموند الصنجيلي البارة التابعة لإمارة حلب، فاستولى عليها، وقتل كثيرًا من أهلها، ونهب أموالهم، وقام بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، فكانت أول كنيسة لاتينية أنشئت بهذه الجهات[٤].

وعلى أية حال، عقد الصليبيون مجلسًا بأنطاكية في ٥ نوفمبر ١٠٩٨ ، قرروا فيه استئناف الزحف إلى بيت المقدس. على أن سلامة الجيش في زحفه كانت تتطلب تأمين جناحه الأيسر قبل مسيره، الأمر الذى يستوجب على الصليبيين الاستيلاء على مدينة معرة النعمان[٥]، التي فشلوا في الاستيلاء عليها من قبل. ولهذا زحف الصليبيون على تلك

(١) Runciman, op. cit. p. 327.

(٢) Gesta Francorum, p. 72; Runciman, op. cit., p. 324.

(٣) Gesta Francorum., pp. 73 - 74; Fulcher of Chartres., p. 59.

(٤) Gesta Francorum., p. 74; William of Tyre, I, p. 309.

الباز العريني: المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٥) العريني: المرجع السابق، جـ١ ص ٢٥٩؛ حسن حبشي: المرجع السابق، ص ١٥٩ .

المدينة، فبلغوها يوم ٢٧ نوفمبر، وضيقوا عليها الخناق قرابة أسبوعين، ولكنها امتنعت عليهم بفضل صمود أهلها، وعندئذ عمد بوهيموند النورمانى إلى إيجاد ثغرة فى سور المدينة، استطاع الصليبيون أن يتدفقوا من خلالها، ولم يف بوهيموند بالأمان الذى وعد به الأهالى بعد أن استسلموا له فى ١٤ محرم ٤٩٢هـ (١١ ديسمبر ١٠٩٨)، بل أمعن فيهم القتل والذبح بقسوة بالغة، حتى امتلأت المدينة بجثثهم[١].

ويبدو أن المذبحة التى أقامها بوهيموند فى معرة النعمان، قد بعثت الرعب فى قلوب المسلمين بالمناطق المجاورة. ويدل على ذلك أنه عندما غادر الصليبيون معرة النعمان بقيادة ريموند الصنجيلى فى ١٧ صفر ٤٩٢هـ (١٣ يناير ١٠٩٩)، ووصلوا إلى كفر طاب الواقعة إلى الجنوب منها، لم يجدوا من أميرها إلا الموادعة. وبقى الصليبيون ثلاثة أيام فى كفر طاب، أنفذ خلالها سلطان بن منقذ صاحب شيزر رسلاً من قبله إلى ريموند، تعهدوا بألا يعترض أميرهم الصليبيين عند المرور بأراضيه، وأن يقدم إليهم ما يحتاجون من عون؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أرسل صاحب شيزر دليلين إلى الصليبيين لإرشادهم لعبور نهر العاصى[٢]. وبذلك نجت إمارة شيزر من أخطار الزحف الصليبى.

تابع الصليبيون زحفهم بعدئذ إلى حصن مصياف فى ربيع الأول سنة ٤٩٢هـ (يناير ١٠٩٩م)، وعندما بلغوه خرج إليهم أميره العربى، وعقد معهم اتفاقية. ثم اتجه الصليبيون إلى مدينة رفنية، فأقاموا بها ثلاثة أيام، وهبطوا بعدئذ إلى سهل البقاع، حيث بقوا حوالى خمسة عشر يوما من ٢٩ يناير إلى ١٤ فبراير؛ وفى هذا السهل لجأ الأهالى المسلمون إلى حصن الأكراد بقطعانهم وأموالهم، فتعقبهم الصليبيون إليه، وشددوا الحصار على الحصن حتى سقط فى أيديهم. وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة بن ملاعب صاحب حمص، وفخر الملك بن عمار صاحب طرابلس، محملين بالهدايا، كى لا يتعرض الصليبيون لبلادهم بأذى[٣].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢؛ الكامل، جـ ٨ ص ١٨٧ ؛ فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ٢ (بيروت ١٩٥٩)، ص ٢٢٧؛

Gesta Francorum, pp. 78 - 79, Fulcher of Chartres., pp. 59 - 60; William of Tyre, I, pp. 310 - 311.

(٢) Gesta Francorum, p. 81; Runciman, op. cit. p. 327.

حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ١٦٣ .

(٣) Gesta Francorum., pp. 82 - 83; William of Tyre, I, pp. 316 - 317; Ranciman, op. cit., p. 328.

وكان أن غادر الصليبيون حصن الأكراد، وفى ١٤ فبراير ١٠٩٩ وصلوا إلى مدينة عرقة التى كانت تابعة آنذاك لإمارة طرابلس، وألقوا عليها حصارًا استمر قرابة خمسة أسابيع، ولكن المدينة صمدت للحصار بفضل حصونها المنيعة، ولقى كثير من الصليبيين مصرعهم تحت أسوارها[١].

ولما اقترب الصليبيون من مدينة طرابلس فى ١١ رجب ٤٩٢هـ (١٣ مايو ١٠٩٩)، بادر أميرها فخر الملك بن عمار بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، كما منح الصليبيين خمسة عشر ألف بيزنت Bezants وخمسة عشر من أفضل الخيول العربية، وأمدهم بالكثير من المؤن والدواب. وبعد أن مكث الصليبيون على مقربة ثلاثة أيام، وقد اكتفوا بما قدمه لهم ابن عمار، واصلوا زحفهم، فاجتازوا البترون، وعبروا نهر الكلب إلى بيروت[٢]. و جدير بالذكر أنه عندما بلغ الصليبيون البترون اتصلوا بالموارنة أخوتهم فى الدين هناك، فأسدى هؤلاء إليهم خدمات قيمة لمعرفتهم التامة بالمنطقة، فكانوا الأدلاء لهم. واحتذى أمير بيروت حذو أمير طرابلس، فقدم للصليبيين مالا وكميات وفيرة من المؤن[٣]. وبعد ذلك مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو) وصرفند Sarepta وصور وعكا وحيفا وقيسارية (٢٦ مايو) وأرسوف، ومنها إلى اللد ثم الرملة التى هجرها أهلها وأحرقوها قبل أن يصلها الصليبيون بيوم واحد[٤].

ومما يسترعى الانتباه أن الصليبيين خلال وجودهم فى الرملة من ٢ إلى ٦ يونيه ١٠٩٩، عقدوا مجلسا للحرب للتشاور فيما ينبغى عليهم اتخاذه. وكانت قد سرت إشاعة قبل وصولهم إلى الرملة فحواها أن الفاطميين قد أرسلوا جيشا إلى فلسطين، الأمر الذى جعل فريق من الصليبيين يطالب بمهاجمة مصر، بحجة أنه بالقضاء عليها يضمنون حياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس، فى الوقت الذى يكفل لهم الاستيلاء على مصر حرية التجارة البحرية والبرية وسلامة الشواطئ وعدم تعرضها لخطر الأسطول المصرى؛ وقد رأى هذا الفريق أيضا أنه سوف يكون من الجنون أن يقوموا بهجوم ضد قلعة بيت المقدس فى

---

(١) Fulcher of Chartres., pp. 60 - 62; William of Tyre, I, p. 318; Runciman, op. cit., pp. 328 - 329. فيليب حتى: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) Gesta Francorum., pp. 85 - 86; William of Tyre, I, pp. 329 - 331; Runciman, op. cit., p. 331.

(٣) فيليب حتى: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٤) Gesta Francorum., pp. 86 - 87; William of Tyre, I, pp. 331 - 333; Fulcher of Chartres., pp. 62-63.

حر الصيف الملتهب، خاصة وأنهم يعانون نقصا فى أدوات الحصار اللازمة. أما الفريق الآخر من الصليبيين الذين كانوا يتلهفون للوصول إلى المدينة المقدسة، فقد رأى أن الحكمة تستدعى ضرورة الزحف مباشرة على بيت المقدس والاستقرار بها، وقد انتصر رأى هذا الفريق، وتقرر الزحف على بيت المقدس[1]. والواقع أن فكرة استيلاء الصليبيين على مصر ظلت مسيطرة على عقول زعمائهم طوال عصر الحروب الصليبية، ولكن من الواضح أن الظروف التى أحاطت بالصليبيين فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى لم تسمح مطلقا بوضع الفكرة موضع التنفيذ، لأن أقدامهم لم تكن قد ثبتت فى بيت المقدس بعد[2].

وفى مدينة بيت لحم، وهى المدينة التى ولد فيها المسيح عليه السلام، استقبل أهلها المسيحيون الجموع الصليبية استقبالا حافلا، فقد رفعوا صلبانهم وراياتهم مهللين فرحين؛ وتشير المراجع الصليبية إلى أن الأهالى ورجال الكنيسة استقبلوهم بالبكاء والغناء فى وقت واحد، بالبكاء لأنهم خافوا أن يتعرض أولئك الصليبيون بأعدادهم القليلة لخطر الإبادة على أيدى المسلمين، وبالغناء لأنهم كانوا ينتظرون ظهور الصليبيين منذ زمن طويل، من منطلق أنهم سيرفعون من شأن المسيحية مرة أخرى، وسيعيدون مكانتها إلى مجدها السابق فى المنطقة التى انتشر فيها الإسلام منذ أمد طويل[3] يرجع إلى القرن السابع الميلادى.

سقوط بيت المقدس :

وعلى أية حال، لم يأت يوم ٧ يونيه ١٠٩٩ إلا وكان الصليبيون يعسكرون أمام الهدف الذى وضعوه نصب أعينهم وتاقوا للوصول إليه، ونعنى بذلك مدينة بيت المقدس. ومما يجدر ذكره، أنه عندما بدأ الصليبيون حصارهم لبيت المقدس فى هذا اليوم، كان يتولى الدفاع عنها الحاكم الفاطمى افتخار الدولة، وقد حرص قبل مجىء الصليبيين على أن يستعد لمواجهتهم، فعمد إلى تخريب جميع الآبار حول المدينة، ووفر المؤن، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية تكفى لحصار طويل، وأخرج المسيحيين من المدينة، فى حين أبقى على اليهود بها، وأرسل إلى الفاطميين فى مصر يطلب النجدة العاجلة[4].

---

(١) Runciman, op. cit., p. 332.

حسن حبشى: المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٢٣٣ .

(٣) Fulcher of Chartres., p. 63; William of Tyre, I, p. 336.

(٤) Runciman, op. cit., p. 333.

رأى الصليبيون أنه من الصعب الاستيلاء على مدينة بيت المقدس لمناعة أسوارها، فأمر قادتهم بصنع سلالم خشبية وضعوها تجاه الأسوار. وفى يوم ١٣ يونيه ١٠٩٩ أخذوا فى مهاجمة المدينة معتمدين على السلالم، ولكنهم عجزوا عن دخولها، ولم يحققوا شيئا من النجاح، مما دفعهم إلى تجهيز المعدات اللازمة للحصار، فعملوا برجين متحركين هائلين من الخشب. وفى أثناء ذلك قاسى الصليبيون من ندرة الأقوات وشدة الحرارة والظمأ، وقد اضطرتهم الحاجة الماسة إلى المياه إلى البحث عنها فى أمكنة تبعد عن مكان الحصار بحوالى خمسة أميال[١].

وبعد أن نصب الصليبيون البرجين على أسوار المدينة، شنوا هجومًا شاملاً عليها ليلة ٢٠ شعبان ٤٩٢هـ (١٤ يوليه ١٠٩٩م)، ثم اشتد الهجوم صباح اليوم التالى، وفى منتصف نهار ذلك اليوم (١٥ يوليه) اقتحم الصليبيون المدينة، فسقطت فى أيديهم بعد أن دافعت عنها حاميتها الفاطمية بشجاعة وبسالة، واندفعوا كالسيل الجارف فى أنحاء المدينة يقتلون ويذبحون، ووضعوا السيف فى المسلمين على اختلاف أعمارهم وجنسهم، بلا تمييز ولا مراعاة[٢]. وعندما لجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى للاحتماء به، إقتحم الصليبيون المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية مروعة، وصفها المؤلف المجهول صاحب أعمال الفرنجة وصف شاهد عيان بقوله: «جرت مذبحة مروعة، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى»[٣]. ويقول فولشر الشارترى: «وفى معبد سليمان جرت مذبحة بين المسلمين، أجهزت على حوالى عشرة آلاف منهم. ولو كنت هناك فإن قدمك حتى كاحلها ستتلطخ بالدماء. وماذا أقول أيضا؟ لم يسمح لواحد من المسلمين بالبقاء حيا، حتى النساء والأطفال والشيوخ لم ينجوا من الذبح»[٤]. أما وليم الصورى فيشير إلى ما حدث للمسلمين قائلا: «لم تأخذ الصليبيون الرحمة بالمسلمين، فكل المكان كان يفيض بدماء الضحايا من المسلمين»[٥]. ولم يسلم اليهود من مذابح الصليبيين، فعندما فر اليهود جميعهم إلى معبدهم

---

(١) Fulcher of Chartres., pp. 66-67; William of Tyre, I, pp. 353-354; Runciman, op. cit., pp. 333-334.

(٢) Fulcher of Chartres., pp. 67 - 69; William of Tyre, I, pp. 360 - 371.

(٣) Gesta Francorum., pp. 90 - 91;
والترجمة العربية، مجهول المؤلف: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٥٨)، ص ١٨٨؛ Runciman, op. cit., p. 337.

(٤) Fulcher of Chartres., p. 89.

(٥) William of Tyre, I, p. 371.

الكبير للاحتماء به، قرر الصليبيون إلقاء القبض عليهم، بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم رأفة، وأشعلوا النار فى المعبد، فلقى اليهود بداخله مصرعهم محترقين[١].

أما المصادر العربية، فقد أفاضت فى وصف المذابح التى ارتكبها الصليبيون بعد أن استولوا على مدينة بيت المقدس، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر ما قاله ابن الأثير[٢]: «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان، وجاور ذلك الموضع الشريف». ويقول ابن الوردى[٣]: «وقتل الفرنج فى المسلمين أسبوعا، وقتلوا فى المسجد الأقصى فوق سبعين ألف فيهم أئمة وعلماء وعباد وزهاد من جاور لشرف الموضع، واختلف الملوك السلجوقية فتمكن الفرنج من البلاد». ويقول ابن القلانسى[٤]: «وهجموا البلد فملكوه، وانهزم بعض أهله إلى المحراب، وقتل خلق كثير، وجمع اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم».

ولم يكتف الصليبيون بما ارتكبوه من فظائع ووحشية فى بيت المقدس، بل قاموا بتحويل جميع مساجده إلى كنائس، وبخاصة مسجد قبة الصخرة الذى تحول إلى كنيسة لاتينية سموها «معبد السيد» Templum Domini كما استخدموا المسجد الأقصى الذى تعرض لتدميرات شديدة لمصالحهم، وأطلقوا عليه باللاتينية اسم «معبد سليمان» Templum Solomonis[٥]. ويتضح من ذلك أن التعصب الصليبى نحو المساجد، كان على نقيض ما جُبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى، التى تركوها لهم بما فيها من ذخائر وتحف؛ حتى بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس، ترك للصليبيين كنوز الكنائس ليأخذوها معهم، وكذلك أبقى على كنيسة القيامة لا يدخلها المسلمون[٦].

وهنا نود القول أن النجاح الذى حققته الحملة الصليبية الأولى فى الوصول إلى هدفها، وما خلفته مذبحة بيت المقدس من جرح عميق فى العالم الإسلامى ظل ماثلا فى أذهان

---

(١) Runciman, op. cit., p. 337.

(٢) الكامل، جـ ٨، ص ١٨٩.

(٣) تتمة المختصر فى أخبار البشر (تاريخ ابن الوردى)، بيروت. ١٩٧٠ ، جـ ٢ ص ٢٠.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢ .

(٥) جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية، ص ١٦؛ زابوروف: المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٦) عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٤٩ - ١٥٠؛ صلاح الدين الأيوبى (القاهرة ١٩٨٨)، ص ٢٩.

المسلمين، لم يبعث اليأس في قلوبهم كما كان متوقعا. ذلك أن الخلافة العباسية فى بغداد لم تكن تعرف عن الغرب الأوربى إلا القليل، وجرى الاعتقاد فى البداية أن الحملة الصليبية الأولى ما هى إلا غزوة من غزوات الامبراطورية البيزنطية. أما الفاطميون الذين كانوا على دراية أوسع من الخلافة العباسية، بحكم أن صقلية كانت تابعة لهم، وكانوا لايزالون يتاجرون – على شكل واسع – مع الجمهوريات الإيطالية التجارية، فقد أخطأوا فهم نوايا الغزاة الصليبيين، وحاولوا عن طريق المفاوضات التى أجروها معهم فى أنطاكية اقتسام بلاد الشام معهم. وينبغى أن نكرر هنا أن الانقسامات التى مزقت المسلمين فى وقت الحملة الصليبية الأولى، جعلتهم عاجزين عن الصمود أمام أى هجوم يأتى من الغرب الأوربى. ومن وجهة النظر الأوربية، فالواقع أن الصليبيين كانوا موفقين فى توقيت القيام بالحملة الصليبية الأولى، وبعبارة أخرى فإن الدعوة التى وجهها البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥م لحشد أوربا الغربية ضد المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى، قد حدثت فى الوقت المناسب. ذلك أنه لو كانت الجيوش الصليبية قد ارتحلت من أوربا قبل موعدها بسبع أو ثمانى سنوات، فإن الأحداث كانت ستتغير تماما، فقد كان على تلك الجيوش أن تواجه إمبراطورية تركية سلجوقية ضخمة موحدة بزعامة السلطان ملكشاه، الأمر الذى كان سيعرضها لفشل ذريع، ولكن ملكشاه توفى فى سنة ١٠٩٢م، وتمزقت إمبراطوريته، وانشغل أبناؤه بتقسيمها، ولم يعد لهم من شغل إلا الاحتفاظ بنفوذهم فى العراق وفارس[١]، بل وأكثر من ذلك، حاولوا القضاء على بعضهم البعض، حتى يخلو الجو للمنتصر منهم.

بداية الوجود الصليبى ببلاد الشام :

لم تمر إلا بضع سنوات على سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى الصليبيين، حتى استطاعوا خلالها الاستيلاء على معظم فلسطين وساحل الشام، فيما عدا عسقلان التى ظلت صامدة بوجههم حتى سقطت فى أيديهم عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م). وفى إطار الوجود الصليبى على أرض الشرق الأدنى، ظهرت مجموعة من الإمارات اللاتينية التى عرفت باسم مملكة بيت المقدس الصليبية أو اللاتينية، وهذه الإمارات هى إمارة الرها الواقعة فى أقصى الشمال فيما بين أعالى دجلة والفرات، وإمارة أنطاكية فى شمال الشام، وإمارة

(١) Grousset. L'Epopée des Croisades., pp. 13 - 14; Newby, Saladin in his time., pp. 19 - 20.

طرابلس الواقعة بين البحر المتوسط فى الغرب وسلاسل لبنان الجبلية فى الشرق، ومملكة بيت المقدس فى فلسطين التى استمر بقاؤها زهاء قرنين من أواخر القرن الحادى عشر إلى أخريات القرن الثالث عشر.

ولاشك أن الوضع الجغرافى لبلاد الشام منح الصليبيين مميزات خاصة، إذ أن استقرارهم على شاطئ البحر المتوسط والسهل الساحلى، سهل لهم مهمة الحفاظ على وسائل الاتصال بالغرب الأوربى، وبفضل السيادة الإيطالية فى البحر ووقوع الموانى الشامية الكثيرة تحت سيطرة الصليبيين، حافظوا على استمرار الروابط القوية مع أوربا الغربية[1].

ومما ساعد على نجاح الوجود الصليبى ببلاد الشام أن الدولة الفاطمية التى مدت نفوذها إلى بلاد الشام – كما سبق القول – كانت تعانى من الضعف والانهيار فى القرن الحادى عشر الميلادى، حتى وصل بها الأمر إلى التقاعس عن الجهاد ضد الصليبيين. ولعل أبلغ دليل على ذلك ماذكره المؤرخ أبى المحاسن[2] عن الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله (٤٩٥– ٥٢٤هـ / ١١٠١ –١١٢٩م) بقوله: «وكان الآمر يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد، حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه،... وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرًا فهو كلا شىء». وفى مكان آخر يشير أبو المحاسن[3] إلى عجز الفاطميين عن الاحتفاظ بنفوذهم فى بلاد الشام وتهاونهم فى أمر الجهاد، قائلا: «يظهر عدم اكتراث أهل مصر (الفاطميين) بالفرنج من كل وجه. الأول من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة، والثانى لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان العسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج عن البحر، والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بالعساكر المصرية...، هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة».

وعلى الرغم من النجاح السريع الذى حققه الصليبيون فى خلال سنوات قليلة ببلاد الشام، فمن الواضح أن مملكة بيت المقدس الصليبية كانت تحمل فى طياتها منذ البداية نقاط ضعف خطيرة، ولاسيما فيما يتعلق بسلطة الملك نفسه. ذلك أنه لو لم يوجد سلسلة قادرة من الملوك الصليبيين، لسقطت مملكة بيت المقدس منذ وقت مبكر. فالملك والبارونات

---

(١) Smail (R.C.) The Crusaders in Syria and the Holy Land. (London, 1973), p. 1?.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ١٧٨ .

(٣) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ١٧٩ .

ورجال الكنيسة والتجار الإيطاليون، كانوا قادرين على التصرف دون أن يرجع أحدهم للآخر. ووقعت على الملك الصليبى وحده مسئولية الدفاع عن الممتلكات الصليبية، فى الوقت الذى كانت سلطته الدستورية على مختلف أقاليم المملكة محدودة للغاية؛ وفى القرن الثالث عشر الميلادى، استطاعت المنظمات الدينية الحربية والمستوطنات التجارية الخاضعة للجمهوريات الإيطالية أن تدير المفاوضات مع المسلمين، وتعقد اتفاقيات الصلح، وتعلن الحروب وفقا لما تراه دون الرجوع إلى رأى الملك الصليبى، ولهذا فإن غياب سلطة مركزية قوية عملت على ضعف وتفسخ الصليبيين(١).

وينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن الصليبيين خلال الفترة التى قضوها ببلاد الشام، ظلوا أقلية ضئيلة وسط محيط واسع من المسلمين. صحيح أن سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين قد أحدث دويا هائلا فى الغرب الأوربى، جعل آلاف الرجال من جميع الطبقات فى سنتى ١١٠٠ و ١١٠١م يرحلون إلى الشرق، ولكن تلك الآلاف مات الكثير منها على أيدى السلاجقة فى آسيا الصغرى، ولم يصل منها إلى الأمارات الصليبية إلا أعدادًا قليلة؛ وعلى هذا فإن المجتمع الصليبى الجديد كان عليه منذ البداية أن يعمل حسابًا للمسلمين(٢). وفضلا عن هذا، فإن كثيرًا من الصليبيين بعد أن تم الاستيلاء على بيت المقدس اعتبروا أن مهمتهم قد أنجزت، وعادوا إلى أوطانهم، ولهذا كان بقاء الصليبيين ببلاد الشام متوقفا على وصول إمدادات جديدة من الوافدين بصورة متواصلة من الغرب الأوربى من ناحية، وبقاء المسلمين مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة(٣).

هذا ولم يدرك الصليبيون أهمية الاستيلاء على بلاد الشام كلها حتى أطرافها الطبيعية من المسلمين، وهو أمر لم يكن باستطاعة القوات المحاربة القليلة الواقعة تحت إمرتهم تحقيقه دون الحصول على إمدادات متواصلة من الغرب الأوربى، وإذا عرفنا أن تلك الإمدادات لم تصل بصورة كافية كما سبق أن ذكرنا، فقد اضطر ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية أن يتركوا أطرافهم الشرقية فى أيدى أعدائهم المسلمين، مما جعلهم عرضة لهجوم دائم على

(١) Parkes, A Hist. of Palestine., p. 115; Brooke, op. cit. pp. 317 - 319.

(٢) Parkes, op. cit., p. 112; Fink (H.S.), "The Foundation of the Latin States, 1099 - 1118", p. 375.

بروج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٣٤ .

(٣) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

طول تلك الأطراف المفتوحة التى تركوها عارية من وسائل الدفاع[١]. ويلاحظ أن الأرض التى سيطر عليها الصليبيون امتدت حوالى أربعمائة ميلا من خليج الأسكندرونة فى الشمال إلى أطراف صحراء البحر الميت فى الجنوب، أما من الغرب إلى الشرق، أى من البحر المتوسط إلى الصحراء، فإن المنطقة العامرة بالسكان كانت لا تزيد فى عرضها أو اتساعها عن سبعين ميلا[٢]. وقد اتخذت المملكة الصليبية شكل درع مستدير ذى قاعدة مدببة كالإسفين المحشور بين مركزى القوة الإسلامية فى دمشق التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة والتابعة للخلافة السنية فى بغداد، وفى القاهرة العاصمة الفاطمية للخلافة الشيعية فى مصر[٣].

وأخيرًا نصل إلى القول أن الصليبيين حققوا انتصاراتهم السريعة منذ أن حطوا ببلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر والسنوات الأولى من القرن الثانى عشر للميلاد على حساب القوى الإسلامية المتهالكة المبعثرة آنذاك. ولو أن تلك القوى اتحدت فى صدق وإخلاص لتمكنت من الحفاظ على فلسطين من الغزو الأجنبى. على أنه بوقوع بيت المقدس فى أيدى الصليبيين بدأت حلقة جديدة من الصراع بينهم وبين المسلمين استمر سنوات عديدة، حتى تهيأ للمسلمين استرداد بيت المقدس على أيدى صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م).

---

(١) فشر: المرجع السابق، ص ٨٦ .

(٢) Smail, op. cit., p. 110.

(٣) يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن (القاهرة ١٩٨٥)، ص ١٢١.

الفصل الثالث

توحيد الجبهة الإسلامية ببلاد الشام
فى العصرين السلجوقى والزنكى

- بدء الجهاد ضد الصليبيين من الموصل فى منطقة الجزيرة
- الأراتقة فى حلب
- آقسنقر البرسقى
- عماد الدين زنكى
- زنكى ودمشق
- سقوط إمارة الرها الصليبية
- ظهور الأيوبيين
- توسع نور الدين فى الشام
- الحملة الصليبية الثانية
- تصفية بقايا إمارة الرها
- الوحدة بين حلب ودمشق

رأينا ما ساد القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى من تمزق وانقسام فى الفترة المبكرة من الوجود الصليبى ببلاد الشام، واهتمام الحكام المسلمين بمصالحهم الخاصة، بدلاً من توحيد قواهم لمواجهة الخطر الصليبى الماثل أمامهم. غير أنه لم يكن لتلك الحال أن تبقى على ما هى عليه، خاصة أنه لأول مرة يشهد المسلمون فى الشرق الأدنى غزاة وافدين عليهم من الغرب الأوربى، اغتصبوا أراضيهم، ونهبوا ثرواتهم، واحتلوا الأراضى المقدسة. ومن الواضح أن وضع المسلمين فى الشرق الأدنى كان يتطلب ظهور شخصية بارزة تتجلى فيها صفات الزعامة خليقة برفع روحهم المعنوية وضم صفوفهم للتصدى للصليبيين قبل أن يستفحل خطرهم. على أنه قبل أن تظهر هذه الشخصية المرتقبة ظهرت بوادر توحيد الجبهة الإسلامية فى السنوات الأولى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، حيث بدأ المسلمون رفع راية الجهاد ضد الصليبيين.

بدء الجهاد ضد الصليبيين من الموصل فى منطقة الجزيرة:

وجدير بالذكر أن دعاة الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين، انطلقوا فى البداية من الموصل فى منطقة الجزيرة، وهى المنطقة التى ظهرت أهميتها منذ أيام الإسلام الأولى لمجاورتها لأملاك الدولة البيزنطية؛ وفى عهد الأمويين والعباسيين دافعت هذه المنطقة عن ثغور المسلمين ضد البيزنطيين، وعندما وطئت أقدام الصليبيين بلاد الشام، أصبحت هذه المنطقة تواجه إمارة الرها الصليبية التى تقع فى طريق بغداد عاصمة الخلافة العباسية[1] من جهة، وبلاد الشام من جهة أخرى. وكان حكام الموصل يدينون بالولاء للسلطان السجلوقى فى فارس، على اعتبار أنهم كانوا نوابه فى الجزء الغربى من الدولة السلجوقية.

وتعد سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) من السنوات الهامة فى الصراع بين المسلمين والصليبيين. ففى هذه السنة عهد محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (٤٩٩ – ٥١٢هـ/ ١١٠٥– ١١١٨م) إلى شرف الدولة مودود أتابك الموصل بالخروج على رأس حملة للجهاد ضد الصليبيين. وفى ذلك يقول ابن القلانسى[2]: «كاتب السلطان غياث الدين (محمد بن ملكشاه) الأمير سقمان القطبى صاحب أرمينية وميافارقين، وشرف الدين مودود صاحب الموصل، يأمرهما بالمسير فى العساكر إلى جهاد الفرنج، وحماية بلاد الموصل، فجمعا واحتشدا،

---

(١) عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٥٣

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٠

ونهضا ونزلا بجزيرة بنى نمير إلى أن تكامل وصول ولاة الأطراف إليهما وخلق كثير من المتطوعة،.. واجتمع المسلمون فى عدد لا يقوم بلقائه جميع الأفرنج، واتفقت الآراء على افتتاح الجهاد بقصد الرها ومضايقها، إلى أن يسهل الله افتتاحها بحكم حصانتها ومنعتها». ولقد كانت الرها تتمتع بميزات واضحة تؤكد مخاوف مودود وتشجعه على الاتجاه أولا نحوها لمهاجمتها وتأمين نفسه وبلاده من ناحيتها، ذلك أنها كانت بحكم موقعها الجغرافى تتحكم فى الطريقين الرئيستين اللتين توصلان نحو حلب من جهة، والموصل من جهة أخرى، كما أنها كانت تقع وسط مجموعة من المرتفعات الجبلية التى تحميها وتيسر مقاومتها فى حالة تعرضها لأى هجوم[١]. وفعلا اتجه مودود على رأس جيوشه صوب الرها، وأخذ فى نهب أراضيها، ولكن أميرها الصليبى بلدوين لى بور Baldwin of le Bourg استنجد بملك بيت المقدس بلدوين الأول (١١٠٠ – ١١١٨م)، الذى أسرع بالمسير نحو الشمال على رأس جيش ضخم بلغ خمسة عشر ألفا، فوصل الرها ومعه تانكرد صاحب أنطاكية، وبرترام صاحب طرابلس، وأميران أرمينيان من البيرة وكيسون، الأمر الذى حمل مودود على رفع الحصار عن الرها، والاتجاه إلى حلب لمنازلة الصليبيين فى الشام[٢]، ومن الأسباب التى أدت إلى فشل مودود فى الاستيلاء على الرها أنه كان قد جمع رجاله من وحدات لا يسودها الانسجام والتفاهم قبل الإقدام على هذه الخطوة، فلكل من الأمراء والقادة الذين صحبوه إلى الرها مطامعه الخاصة، ولدى كل منهم مخاوفه من أن يؤدى انتصار مودود عند الرها – إذا حدث – إلى أن يصبح هو صاحب الكلمة العليا فى الجزيرة، وفى هذا قضاء محتمل على كل الإمارات الصغيرة المتناثرة[٣]. ولما بلغ مودود بلاد حلب، لم يخرج صاحبها رضوان بن تتش لاستقباله، خوفا من أن ينتزعها منه، ومن ثم أغلق أبوابها فى وجهه[٤]. وهنا نلاحظ أن اتجاه مودود إلى الشام كان حدثا جديدًا فى ذاته، فتلك أول مرة يفكر فيها أمراء الموصل وشمال الجزيرة فى دخول الشام ومناجزة الصليبيين[٥].

(١) محمد حلمى أحمد: مصر والشام والصليبيون، ص ٧٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٠ – ٢٧١؛

Fink, "The Foundation of the Latin States" p.399, Grousset, L' Epopée, pp. 103-104.

(٣) محمد حلمى أحمد: المرجع السابق، ص ٧١

(٤) ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٣٤ – ٣٥؛ العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٥) حسين مؤنس: نور الدين محمود (القاهرة ١٩٥٨) ص ١٢٦.

وعلى الرغم من فشل المحاولة التى قام بها مودود للاستيلاء على الرها. إلا أنها كانت تعبيرًا صادقا عما يعتمل فى صدور الشعوب فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، لم يلبث أن جعل حركة الجهاد ضد الصليبيين تأخذ طابعا دينيا إسلاميا، ففى أول جمعة من شهر شعبان عام ٥٠٤ هـ (٦ فبراير ١١١١ م) وصل أحد الأشراف الهاشميين من أهل حلب، ومعه جماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد، «فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج، وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة» حتى يشعر السلطان بمدى خطورة الأوضاع ببلاد الشام من جراء الغزو الصليبى، فوعدهم كبار الدولة فى بغداد بما يهدئ ثائرتهم وذلك بانفاذ العساكر للجهاد؛ وفى الجمعة التالية أعاد أهل حلب ما فعلوه، فالتمس لهم السلطان العذر، واصدر أوامره إلى الأمراء بالعودة إلى بلادهم والتأهب لمحاربة الصليبيين[١].

وفى تلك الأثناء، كان بلدوين ملك بيت المقدس الصليبى يحصر تفكيره فى الاستيلاء على مدن الساحل الباقية فى أيدى المسلمين وأهمها بيروت وصور وصيدا، وهى المدن التى تتحكم فى المنطقة الساحلية الواقعة بين فلسطين وطرابلس، وتجعل اتصال الصليبيين بممتلكاتهم فى الشمال برًا وبحرًا متعذرًا غير آمن. وكان أن شرع بلدوين فى حصار مدينة بيروت بمساعدة بعض السفن الجنوية، فقطع عنها الإمدادات التى تصل إليها عن طريق البحر؛ وفى ٢١ شوال ٥٠٣هـ (١٣ مايو ١١١٠م) اقتحم بلدوين المدينة، وأمعن فى أهلها القتل والذبح[٢]. ثم زحف على صيدا فى ديسمبر من نفس العام، وفرض عليها الحصار بمساعدة أسطول نرويجى كان قد وصل إلى الساحل لزيارة الأراضى المقدسة، وبلغت عدته سبعين سفينة مشحونة بالرجال والعتاد، الأمر الذى جعل أهل صيدا لا يصمدون طويلا، وقرروا تسليم المدينة شريطة أن يمنحهم بلدوين الأمان، فوافق على تأمين حياتهم وممتلكاتهم وأسلحتهم، وترك لهم حرية البقاء فى صيدا أو الخروج منها[٣].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٦ – ٢٧٧؛ ابن خلدون: العبر، المجلد الخامس، القسم الثانى، ص ٤١١–٤١٢.

(٢) Willam of Tyre I, pp.484 - 485; Fink; op. cit., p. 386; Stevensm, The Grusades in the East. (London, 1907), p. 58.

(٣) William of Tyre, I, pp. 486-488; Fink, op., cit., p. 386; Stevenson, op. cit., pp. 59-60.

ولما وصلت الأخبار إلى بغداد بسقوط بيروت وصيدا فى أيدى الصليبيين، تجهز جماعة من أهل بغداد من الفقهاء وغيرهم للخروج إلى الشام «لأجل الجهاد وقتال الفرنج»، وذلك فى عام ٥٠٤هـ (١١١٠م)، ولكن كثيرًا منهم مالبثوا أن رجعوا إلى بغداد، بعد أن تبين لهم صعوبة التصدى للصليبيين[١].

ثم شاءت الظروف أن تتغير على صعيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام، وذلك عندما استنجد طغتكين أتابك دمشق بمودود أتابك الموصل، لدفع الخطر عن مدينة صور الساحلية التابعة للفاطميين فى مصر. ذلك أنه فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) جمع بلدوين ملك بيت المقدس الصليبى جيوشه لغزو صور، وكان أهلها يتوقعون ذلك، فتأهبوا لحصار طويل الأمد، وكتبوا إلى طغتكين يستغيثون به ويبذلون له تسليم صور، على أن يعجل بإنفاذ نجدة ليأسهم من وصول أية نجدات من الوزير الفاطمى الأفضل صاحب النفوذ الفعلى فى مصر. وعندما علم بلدوين بما حدث بين أهل صور وطغتكين بادر بالزحف على صور، فبلغها فى ٢٥ جمادى الأولى ٥٠٥هـ (٢٧ نوفمبر ١١١١م)؛ وكان الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين قد وعده بإرسال أسطول ليشارك فى حصار المدينة من جهة البحر. فلما وصل الأسطول إلى مياه المدينة، شهد بلدوين هجوما عليها فى ٣٠ نوفمبر، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، لأن الأسطول البيزنطى كان على درجة من الضعف جعلته يفشل فى مهمته، وعاد بلدوين «خاسرًا لم ينل منها غرضا»[٢]. وفى شهر مارس من العام التالى (١١١٢م)، عاود بلدوين حصاره لمدينة صور، وزحف على أسوارها ببرجين ضخمين، ولكن أهل المدينة استبسلوا فى الدفاع عنها، وأشعلوا النار فى أحد البرجين، ثم بعد ذلك بحوالى شهر امتدت النار إلى البرج الآخر فأتت عليه، وأغار أهل المدينة على الصليبيين، فقتلوا عددًا منهم، الأمر الذى جعل بلدوين يفقد الأمل فى الاستيلاء على المدينة، فانسحب منها بقواته فى ١٠ شوال سنة ٥٠٥هـ (١١ أبريل ١١١٢م)[٣]. وفى أثناء الحصار الصليبى لصور، خرج طغتكين أتابك دمشق ونزل فى بانياس، ثم توجه إلى قلعة حبيس (حصن جلدك)[٤] التى كانت فى حوزة الصليبيين، وشدد الحصار عليها، إلى أن سقطت فى يده[٥].

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٢ - ٢٦٣؛ إبن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ١٧٢.

(٢) William of Tyre, I, pp. 491-492; Stevenson, op. cit., p. 61.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤ - ٢٨٨؛ الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ Stevenson, op. cit., p. 61.

(٤) الحبيس: قلعة بالسواد من أعمال دمشق يقال لها حبيس جلدك (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٤؛ Stevenson, op. cit., p. 62.

وفى العام التالى (٥٠٦هـ / ١١١٣م) أغار بلدوين على البثنية من أعمال دمشق، فكتب طغتكين إلى مودود أتابك الموصل يشرح له ما قام به الصليبيون، واستنجد به، وحثه على سرعة الوصول إليه لدفع الصليبيين، «والفوز بفضيلة الجهاد»، فعبر مودود نهر الفرات فى ذى القعدة من نفس العام (مايو ١١١٣م)، وتبعه بعض أمراء السلاجقة والأكراد، وتقابل مع طغتكين وجيوشه فى سلمية على مقربة من حماه، ومنها اتجه الجميع إلى مدينة طبرية وحاصروها، وعندما استعصت عليهم لمناعتها اتجهوا إلى تدمير ونهب الممتلكات الصليبية المجاورة[١]. فما كان من بلدوين ملك بيت المقدس إلا أن جمع قواته التى بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة طبقا للمراجع الصليبية، كما استدعى لمساعدته روجر صاحب أنطاكية وبونس صاحب طرابلس Pons of Tripolis، والتقى مع الجيوش الإسلامية المتحالفة فى موقعة الصنبرة جنوب غربى طبرية بثلاثة أميال، فلحقت بالصليبيين هزيمة فادحة فى ١٠ محرم ٥٠٧هـ (٢٨ يونيو ١١١٣)، راح ضحيتها ألف ومائتا من المشاة وثلاثين فارس، ولم يتمكن الملك الصليبى من النجاة بنفسه إلا بصعوبة بالغة[٢].

وزاد موقف الصليبيين سوءاً آنذاك أن الحامية الفاطمية فى عسقلان استغلت فرصة انشغال الصليبيين بمحاربة المسلمين بقيادة مودود وطغتكين بالقرب من طبرية، وخرجت قوة فاطمية فى محاولة جريئة تنهب وتدمر فى الأراضى الصليبية حتى قاربت أسوار مدينة بيت المقدس ذاتها، ثم رجعت إلى عسقلان[٣]. ولاشك أنه لو كانت هناك خطة شاملة توحد جهود المسلمين فى الشرق الأدنى، لأمكن للمسلمين أن يقوموا بعمل حربى ضخم يهدد كيان الصليبيين ويجعلهم بين نارين، ولكن الانقسام بين صفوف المسلمين، والعداء بين الفاطميين والسلاجقة، وبين الشيعة والسنة، حال دون ذلك[٤].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٣؛ الكامل جـ ٨ ص ٢٦٦؛

Fink, op. cit., p. 402; L'Epopée., pp. 111-112; Stevenson, op. cit., p. 62.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤؛ الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٦؛ تتمة المختصر، جـ٢ ص ١٣٦؛ سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ٣٨ - ٣٩؛

William of Tyre, I, p. 402; Fink, op. cit., p. 402; Stevenson, op. cit., pp. 62-63; Grousset, op. cit., p. 112.

(٣) William of Tyre, I, p. 495; Stevenson, op. cit., 63; سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ٣١٣؛ الناصر صلاح الدين، ص ٣٩.

على أن الوضع القائم بين المسلمين بقيادة مودود وطغتكين والصليبيين بقيادة بلدوين لم يأت إلى نهايته. فبعد الهزيمة التى لحقت ببلدوين على أيدى المسلمين لجأ بقواته إلى تل يقع فى غربى طبرية للاحتماء به، على حين أخذ المسلمون يشنون غاراتهم على المعاقل الصليبية، الأمر الذى جعل المدن الصليبية - باستثناء نابلس وبيسان - تقبع داخل أسوارها. غير أن الظروف لم تلبث أن بدلت الموقف لصالح بلدوين، وذلك بوصول أعداد ضخمة من الحجاج الغربيين إلى ميناء عكا، مما جعل مودود وطغتكين ينصرفان إلى دمشق، حيث أذن مودود لرجاله بالعودة إلى بلادهم لقضاء فصل الشتاء، أما مودود نفسه فقد نزل فى ضيافة طغتكين، وذلك لحين استئناف الجهاد ضد الصليبيين فى فصل الربيع. ولم تمض بضعة أسابيع على وجود مودود بدمشق، حتى حدث حادث جديد برهن على مدى انحلال المسلمين وتمزق صفوفهم فى ذلك الوقت. فقد لقى مودود مصرعه فى الجامع الأموى بدمشق على أيدى أحد الباطنية (الحشيشية) الذى وثب عليه وضربه بسكين عقب تأديته صلاة آخر جمعة من ربيع الأول ٥٠٧هـ (١٢ سبتمبر ١١١٣م) «وكان صائماً فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فأبى، وقال: لا لقيت الله إلا صائماً»؛ ويروى أن بلدوين ملك بيت المقدس كتب إلى طغتكين بعد قتل مودود قائلاً: «إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها فى بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها»[1]. ويقال إن طغتكين هو الذى حرض الباطنية على اغتيال مودود لخوفه من ازدياد نفوذه فى بلاد الشام، وهى شائعة انتشرت وقتذاك وسجلتها المصادر الإسلامية والصليبية على السواء[2].

ولا جدال أن الصليبيين ابتهجوا لما حدث لمودود بطل المقاومة الإسلامية فى ذلك الدور، إذ بموته تخلصوا من خصم قوى شديد المراس والصلابة. ويكفى أنه كان الزعيم الذى يتطلبه عصره، ففى خلال السنوات الأربع التى سبقت مصرعه، لم يتراخى عن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٦؛ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق د. عبد القادر طليمات (القاهرة ١٩٦٣)، ص ١٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣١٣؛

Stevenson, op. cit., p. 63; Fink, op. cit., p. 402; Grousset, L'Epopée., p. 113.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٦؛ التاريخ الباهر، ص ١٩؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٣٦؛ الفارقى: تاريخه ص ٢٨؛ عماد الدين الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٦١ - ١٦٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ٢٠٧؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ١٧٨؛

William of Tyre, I, pp. 495-496; Lewis (B.), "The Ismàilites and the Assassins", p. 113; Cahen (C.), "The Turkish Invasion", p. 174.

واجب الجهاد، وعند موته ترك مثلا رائعا لا ينسى أبدًا، هذا المثل احتذاه أمراء شمال العراق، وحثهم على مواصلة العمل الذى بدأه[١].

والواقع أن حركة الجهاد ضد الصليبيين لم تتأثر بمصرع مودود، ذلك أن السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه لما بلغه قتل مودود، أسند حكم الموصل وأعمالها إلى آقسنقر البرسقى، وكتب إلى سائر الأمراء السلاجقة بطاعته والمسير معه لقتال الصليبيين. وقاد آقسنقر البرسقى جيشا ضخما بهدف الاستيلاء على مدينة الرها، فبلغها وفرض عليها الحصار فى ٧ ذى الحجة ٥٠٧هـ (١٥ مايو ١١١٤م)، غير أنه رفع الحصار عنها وغادرها بعد شهرين، بسبب المصاعب التى واجهته فى توفير المؤن من ناحية، والخلاف الذى نشب بينه وبين إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين إحدى مناطق الجزيرة الذى امتنع عن المشاركة فى حصار الرها من ناحية أخرى. على أن الخلاف بين إيلغازى والبرسقى سرعان ما تحول إلى قتال بينهما فى بداية العام التالى (١١١٥م)، انتهى بهزيمة الأخير هزيمة ساحقة، أدت إلى إعفائه من حكم الموصل، فاكتفى بإقطاعه فى الرحبة حيث عاش مغمورًا بضع سنوات[٢]، وتولى حكم الموصل بدلا منه مسعود بن السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه.

ثم كان أن عهد السلطان السجلوقى محمد بجيوشه إلى برسق بن برسق أمير همذان، وأمره بالمضى لقتال الصليبيين. وفى ذى الحجة سنة ٥٠٨هـ (ربيع سنة ١١١٥م) احتشد جيش برسق أمام الرها، وبعد أن حاصرها فترة وجيزة، تحرك قاصدًا حلب ليتخذها قاعدة لعملياته الحربية فى بلاد الشام[٣]. غير أن الطواشى لؤلؤ صاحب النفوذ الفعلى فى حلب بعد وفاة صاحبها رضوان فى ٢٨ جمادى الآخرة ٥٠٧هـ (١٠ ديسمبر ١١١٣م)، رفض أن يفتح أبواب المدينة للجيوش السلطانية، كما فعل رضوان من قبل عام ١١١٠م، واستنجد لؤلؤ بإيلغازى صاحب ماردين وطغتكين صاحب دمشق لمساعدته، ولم يتردد هؤلاء جميعا فى التماس المساعدة من روجر صاحب أنطاكية الذى رحب بذلك. وسرعان ما خرجت

(١) Stevenson, op. cit., p. 87; Fink, op. cit., p. 403.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٢٦٨-٢٦٩؛ ابن خلدون: العبر المجلد الخامس، ص ٨٩؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٣٧؛ Stevenson, op. cit., pp. 96-97; Fink, op. cit., p. 403.

(٣) William of Tyre, I, pp. 500- 501., Fink, op. cit., pp. 403-404.,
العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

قوات دمشق وحلب جنبا إلى جنب مع قوات روجر، وعسكرت فى معسكرين أحدهما تركى والآخر صليبى بالقرب من أفامية[١] لمراقبة برسق فى المحرم عام ٥٠٩هـ (يونيو ١١١٥م). وفضلا عن هذا، استدعى روجر زعماء الصليبيين الآخرين لمساندته، فانضم إليه فى أفامية فى شهر أغسطس بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وبونز صاحب طرابلس، وبلدوين الثانى صاحب الرها. وعلى أية حال، أصبح الموقف آنذاك مهيأ لخوض معركة ضخمة بين جيوش السلطان بقيادة برسق، والجيوش الصليبية والتركية المتحالفة، ولكن المعركة لم تحدث، إذ أدرك برسق صعوبة موقفه أمام القوات المتحالفة ضده، ورأى من الحكمة الانسحاب بقواته، وعندئذ رجع خصومه إلى بلادهم[٢]. وقد أعطت هذه الأحداث دليلا قاطعا على أن الصليبيين والترك بالشام، رغم العداوة القائمة بينهم، كان باستطاعتهم أن يتحالفوا ضد الخصوم القادمين من خارج حدود الشام[٣] ؛ وبعبارة أخرى، فقد دفع الترك بالشام الخوف من السلاجقة الشرقيين قادة حركة الجهاد، إلى الارتماء فى أحضان الصليبيين[٤].

والواقع أن انسحاب برسق كان مناورة انطلت على الصليبيين، إذ عاد بعد قليل، وانقض على كفرطاب التابعة لأنطاكية، واستولى عليها ودمرها فى ١١ ربيع الثانى عام ٥٠٩هـ (٣ سبتمبر ١١١٥)، ثم تحول عنها إلى معرة النعمان، وهدد حلب وأنطاكية. ولما علم روجر أن برسق فى طريقه إلى تل دانيث الواقعة فى منتصف الطريق بين أفامية وحلب، نصب له كمينا فيها، وفاجأ قواته فى ١٤ سبتمبر، وأنزل بها هزيمة ساحقة، فر برسق على إثرها. وفى هذه المعركة قتل الصليبيون من قوات برسق ثلاثة آلاف رجل، وأسروا النساء، وأشعلوا النار فى الأطفال والشيوخ، كما أرسلوا من تبقى من الأسرى إلى حلفائهم طغتكين وإيلغازى ولؤلؤ؛ وقد استغرق الصليبيون يومين أو ثلاثة فى تقسيم الغنائم، التى

---

(١) مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٢٧١ – ٢٧٢؛ أسامه بن منقذ: الاعتبار، ص ٩٠ –٩١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٣١٦؛

William of Tyre, I, p. 501., Stevenson, op. cit., pp. 98-99., Fink, op. cit., p. 404., Grousset, op. cit., pp. 114-115.

(٣) Fink, op. cit., p.404.,

العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٤٦٧ .

(٤) Cahen, op. cit., p. 174.

قدرتها المصادر الصليبية بحوالى ثلاثمائة ألف بيزنت[١]. هذا وقد عاد برسق إلى بلده، «وقد ندم على الهزيمة»، ومات حزينا فى العام التالى[٢].

تركت هزيمة تل دانيث جرحًا عميقًا فى نفوس المسلمين، فى حين أصبح روجر صاحب أنطاكية شخصية أسطورية بين الصليبيين، كما حدث فيما بعد لريتشارد قلب الأسد بعد الحملة الصليبية الثالثة[٣]. وقد كشفت تلك الهزيمة النقاب عن حقيقة لا ينبغى إغفالها، وهى أن القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى لا زالت منقسمة على نفسها، ولا تمثل أدنى خطر على الوجود الصليبى. وقد رأينا ما حدث للحملات التى وجهها السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه لقتال الصليبيين، وما انتهت إليه من فشل يرجع أساسًا إلى أمراء المسلمين بالشام، الذين فضلوا الإبقاء على مصالحهم الخاصة ضاربين عرض الحائط بمصالح المسلمين، وبات من الواضح أنهم لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقى فحسب، بل ناصبوا جيوشه العداء، وتحالفوا مع الصليبيين.

ومما يدل على تمزق الجانب الإسلامى آنذاك ما حدث فى حلب. ذلك أنه منذ أن تولى الطواشى لؤلؤ أمرها نيابة عن ابن رضوان، دخلت فى مهاوى الضعف والانهيار، ولم تلبث الأمور أن تفاقمت فى حلب عندما لقى لؤلؤ مصرعه على أيدى بعض أعوانه عندما كان فى طريقه إلى قلعة جعبر[٤] فى المحرم عام ٥١١هـ (مايو ١١١٧)، وعندئذ اغتنم الفرصة يارقتاش الخادم الأرمنى الأصل واغتصب حكم حلب لنفسه، وأسرع إلى استرضاء روجر صاحب أنطاكية، فتنازل له عن حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق، كما أعطاه الحق فى فرض ضرائب على قوافل الحجاج بين حلب والحجاز[٥].

---

(١) الكامل، جـ ٨ ٢٧٢؛ الاعتبار، ص ٧٣ - ٧٦؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ١٧٨؛ الغرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٦٨؛ عاشور: المرجع السابق، ص ٣١٦؛
William of Tyre, I, pp. 503- 505., Stevenson,op. cit., pp. 99-100 Grousset, op. cit., p. 404., Runciman, Hist. of the Crusades, II, pp. 131-132.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٢٧٢ .

(٣) Grousset, op. cit., p. 116., Fink, op. cit., p. 404.

(٤) قلعة جعبر، على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٥) الكامل، جـ ص ٢٧٩؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٦؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٢١٦ العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٦٩؛ عاشور: المرجع السابق، جـ ص ٤٢٠ - ٤٢١؛
Runciman, op. cit., II, p. 133 .

الأراتقة فى حلب :

وعندما وصلت الأمور فى حلب إلى هذا الحد، خاف عليها أهلها من أن ينتهز الصليبيون الفرصة للاستيلاء عليها، ولم يجدوا بدًا من تسليمها إلى إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م)، فلما تسلمها وجدها خالية من الأموال والذخيرة، ونتيجة لذلك اضطر إلى عقد هدنة مع روجر صاحب أنطاكية، كى يستطيع خلالها أن ينظم أموره، ويصلح أحوالها[١]. ونلاحظ أن دخول إيلغازى حلب يعتبر نهاية لحكم السلاجقة بها وبداية لحكم الأراتقة[٢]، فى الوقت الذى ربط شمال العراق بشمال الشام فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين.

على أن روجر صاحب أنطاكية مالبث أن نقض الهدنة المعقودة بينه وبين إيلغازى، ففى أواخر سنة ١١١٨م استولى على عزاز وهى أحد الحصون الهامة التابعة لإيلغازى، وفى العام التالى (٥١٣هـ / ١١١٩م) استولى على البزاعة دون عناء، وذلك لأنه «لم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهرًا واحدًا[٣]».

وفى ذلك الحين أغار الصليبيون على حوران من أعمال دمشق، فأدرك طغتكين صاحب دمشق أن التصدى للصليبيين يتطلب توحيد القوى الإسلامية، ولذلك اتفق مع إيلغازى على إعداد جيوشهما لمحاربة الصليبيين[٤]. فوافق إيلغازى وعبأ فى ماردين جيشا بلغت عدته نحو عشرين ألفا، ثم عبر نهر الفرات فى ١٧ صفر سنة ٥١٣هـ (أول يونيو ١١١٩)، وأغار على تل باشر فى طريقه إلى الشام. ولما أحس روجر صاحب أنطاكية بالخطر الذى يتهدده، استنجد بجوسلين كونت الرها، وبونز كونت طرابلس، وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى تولى العرش بعد وفاة سلفه بلدوين الأول سنة ١١١٨م. ولم يلبث بلدوين الثانى أن جمع جيشا على وجه السرعة، وانضم به إلى قوات بونز. على أن روجر استبد به الغضب لتأخر وصول الإمدادات الصليبية، فغادر أنطاكية وعسكر بقواته بالقرب من حصن أرتاح على أمل أن تنضم إليه الإمدادات الصليبية فى هذا المكان، وبعد أن انتظر

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٢٧٩؛ Grousset, L'Epopée., p. 195.

(٢) حامد زيان: حلب فى العصر الزنكى، رسالة ماجستير لم تطبع، ص ١٣.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٨؛ Nicholson, "The Growth ofthe LatinStates., 118-1144", p. 412.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٨؛ الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٤.

عدة أيام لقدوم ملك بيت المقدس وكونت طرابلس تعجل روجر لقاء الجيش الإسلامى، فأمر قواته بالتقدم فى ٢٠ يونيو، واتخذ موقعا حصينا عند البلاط الواقعة بين جبلين، بالقرب من درب سرمد شمالى الأثارب، وفى تصوره أنه فى هذا الموضع سيكون بعيدًا عن متناول المسلمين، إلى أن تصله الإمدادات[١].

وفى نفس الوقت كان إيلغازى يرصد تحركات روجر، وينتظر وصول طغتكين بقواته لوضع خطة القتال اللازمة، غير أن الأمراء وقد ملوا الانتظار طلبوا من إيلغازى ملاقاة العدو الصليبى، فوافق على ذلك. وفى ١٥ ربيع الأول ٥١٣هـ (٢٧ يونيو ١١١٩) حل إيلغازى معسكره، واتخذ موقعه بالقرب من معسكر الصليبيين، وفى فجر اليوم التالى أحاط المسلمون بالصليبيين من ثلاث جهات، ثم انقضوا عليهم وأنزلوا بهم مذبحة فى معركة كبيرة اشتهرت عند مؤرخى الصليبيين بساحة الدم Fieldof blood (Ager sanguinis) لكثرة من قتل فيها من الصليبيين، وسقط روجر الأنطاكى نفسه قتيلا، وأسر سبعون من فرسانه[٢]. وقد ألهب هذا النصر الساحق حماس الشعراء، فانبروا يمدحون إيلغازى، ومما قاله أحدهم:

قل ما تشاء فقولك المعقول ... وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل[٣]

ومن حسن حظ الصليبيين أن إيلغازى لم يستغل انتصاره الرائع على الصليبيين، بل قنع بشن الغارات الناهبة على ضواحى أنطاكية، والاستيلاء على الأثارب وزردنا، ولو حدث أن وجه نشاطه آنذاك للاستيلاء على أنطاكية لما امتنعت عليه[٤]. ويؤكد ذلك ما قاله المؤرخ ابن القلانسى[٥]: «وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر المسموح، لم يتفق مثله للإسلام، فى سالف الأعوام، ولا الآنف من الأيام، وبقيت أنطاكية شاغرة خالية من حماتها

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٨؛
William of Tyre, I, pp. 528-529; Nicholson, op. cit., p. 413; Grousset, L'Epopée., pp. 136-137.
(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٩ - ٣٢٠؛ الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٨ - ٢٨٩؛
. William of Tyre, I, pp. 529 - 531; Nicholson, op.cit., p. 413.
(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٩ .
(٤) Runciman, op. cit., II, p. 155; Nichslson, op. cit., p. 413.
(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٠ .

ورجالها، خاوية من كماتها وأبطالها، فريسة الواثب، نهزة الطالب، فوقع التغافل عنها، لغيبة ظهير الدين أتابك (طغتكين صاحب دمشق) عن هذه الوقعة، لتسرع التركمان إليها، من غير تأهب لها، للأمر النافذ، والقدر النازل، واشتغال الناس بإحراز الغنائم، التى امتلأت بها الأيدى». ومهما كان الأمر، فإن استيلاء إيلغازى على الأثارب وزردنا يعتبر بداية صفحة جديدة فى تاريخ حلب، فقد أبعد عنها الخطر الصليبى الذى كان يتهددها؛ كما أن مصرع روجر الأنطاكى والقضاء على قوة الصليبيين الحربية فى الشمال، رفع الروح المعنوية للمسلمين وأعطاهم ميزات بالغة الأهمية[١].

وفى السنة التالية، رأى إيلغازى أن يجدد هجماته على الصليبيين، فخرج بقواته من ماردين، وعبر الفرات فى ٢٥ صفر سنة ٥١٤هـ (٢٦ مايو ١١٢٠)، واجتاح كل المنطقة الواقعة بين تل باشر وكيسوم (كيسون)، ولكن جوسلين دى كورتناى حاكم الرها أسرع بحشد جيش ضخم، وطارد إيلغازى، وفى القتال الذى نشب بينهما استطاع جوسلين أن يقتل ألفا من الأتراك. فما كان من إيلغازى إلا أن تحول إلى أنطاكية، وعسكر بالقرب من عزاز، وأقام بها يومًا واحدًا، وقد رجع عنها، بسبب قلة الغنائم وضغط الصليبيين المتواصل، ولما أصاب عساكره من الملل[٢]. إذ «كان إيلغازى لا يطيل المقام فى بلد الفرنج، لأنه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود، فإذا طال مقامهم تفرقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم»[٣].

وفى يونيو سنة ١١٢٠م قدم بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بجيوشه إلى أنطاكية لنجدتها واسترداد الأراضى التى استولى عليها إيلغازى، غير أنه لم تحدث معركة بين المسلمين والصليبيين، واستقر الأمر بين إيلغازى وبلدوين الثانى بعقد هدنة ينتهى أمدها فى المحرم عام ٥١٥هـ (مارس ١١٢١م)، وبمقتضاها حصل الأخير على معرة مصرين وكفر طاب والبيرة وغيرها من الضياع، وعلى إثر ذلك انسحب المسلمون إلى حلب، ورجع الصليبيون إلى أنطاكية[٤].

---

(١) Nicholson, op. cit., p. 414.

(٢) William of Tyre, I, p. 532; Nicholson, op. cit., p. 415.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٢٩٤ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٢؛ Nicholson, op. cit., p. 415.

وعلى الرغم من الهدنة المعقودة بين إيلغازى وبلدوين الثانى، إلاّ أن جو سلين كونت الرها لم يلتزم بها، فقد أغار فى شوال سنة ٥١٤هـ (يناير ١١٢١م) على بلاد منبج، ولما أرسل سليمان بن إيلغازى الذى كان يحكم حلب نيابة عن أبيه شكوى إلى بلدوين الثانى يحتج فيها على ما فعله جوسلين، أجابه بأن جوسلين لم يدخل فى الهدنة المعقودة، ومن ثم فلا سلطة له عليه. على أن جوسلين لم يقف عند هذا الحد، بل قام بغارة موفقة على صفين الواقعة فى جنوبى الفرات، وأيضا شن هجوما على مدينة البزاعة الواقعة فى الشمال الشرقى من حلب، أسفرت عن هدم جزء من أسوارها، ولم يرتد عنها إلاّبعد أن دفع أهلها مبلغا من المال، ثم قفل راجعا إلى بلاده[١].

ولما انتهى أمد الهدنة المعقودة بين إيلغازى وبلدوين الثانى، إستأنف الصليبيون فى أنطاكية أعمالهم العدوانية على أراضى المسلمين، وذلك فى الفترة الممتدة من أبريل إلى يونيو ١١٢١م، فشنوا غارة على شيزر،إنتهى بعقد هدنة قصيرة لأجل بين أنطاكية وشيزر؛ ثم توجه الصليبيون ومعهم جوسلين صاحب الرها إلى حصن الأثارب وأغاروا عليه فى أول مايو، وهددوا حلب، الأمر الذى جعل إيلغازى يعهد إلى ابنه سليمان نائبه فى حلب بعقد الصلح مع بلدوين الثانى، حيث تنازل سليمان بموجبه عن بعض المناطق القريبة من حلب[٢].

ويلاحظ أن طغتكين أتابك دمشق انتهز فرصة انشغال بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بأمور الشمال، فأغار على مملكة بيت المقدس، وقام بتخريب الأراضى الواقعة حول طبرية. ولما وصلت الأخبار إلى بلدوين بما حدث، خرج بقواته لمواجهة طغتكين، ولكن طغتكين انسحب راجعا إلى بلده، وعندئذ زحف بلدوين بجيوشه جنوبا، واستولى فى جمادى الأولى سنة ٥١٥هـ (يوليو ١١٢١م) على حصن جرش وقام بتخريبه، وكان طغتكين قد عمّر هذا الحصن فى العام السابق[٣].

وقد خدمت الظروف الصليبيين فى حروبهم مع إيلغازى، وذلك عندما أعلن ابنه سليمان خروجه عليه، ثم عقد صلحا مع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس أعطاه بمقتضاه زردنا والأثارب اللتين ظفر بهما إيلغازى بعد انتصاره على الصليبيين. وعندما علم إيلغازى

(١) Nicholson "The Groth of the Latin States", p.416.

(٢) Ilid., p. 416.

(٣) William of Tyre, I, pp. 548-539., Nicholson, Op. cit., pp. 416-417.

بذلك أصابه الفزع وقرر معاقبة ابنه واسترداد زردنا والأثارب من الصليبيين، فقدم إلى حلب في ربيع الثاني سنة ٥١٦هـ (نهاية يونيو ١١٢٢م) وبصحبته ابن أخيه بلك بن بهرام الأرتقي. غير أنه مالبث أن عفا عن ابنه، وأوقع أشد أنواع التعذيب بمن زينوا لابنه الخروج عليه، وشرع في مهاجمة زردنا، ولكنه فشل في استردادها، فرجع عنها عائدًا إلى حلب، وقبل أن يصل إليها لقى نحبه في رمضان عام ٥١٦هـ (نوفمبر ١١٢٢م)[1].

وعلى الرغم من النجاح الذى أحرزه الصليبيون على إيلغازى، وما هيأه لهم موته من فرصة التخلص منه، فإن ما حدث من وقوع جوسلين كونت الرها أسيرًا فى قبضة بلك بن بهرام الأرتقى، كان بمثابة رد اعتبار للمسلمين. ذلك أنه بعد أن عاد بلك من زردنا فى شعبان سنة ٥١٧هـ (سبتمبر ١١٢٣م)، ألقى الحصار على الرها، غير أنه ما لبث أن ارتد عنها بسبب المقاومة الشديدة التى بذلها أهلها. وخشية أن يعود بلك إلى حصار الرها مرى أخرى، أرسل أهلها إلى جوسلين فى البيرة، حيث كان يلهو مع صاحبها جاليران لى بويزيه Galeran of le Puiset يبلغونه بما حدث، فخرج جوسلين لملاقاة بلك عند سروج، ولكنه وقع فى كمين نصبه له بلك فى ١٩ رجب سنة ٥١٧هـ (١٣ سبتمبر ١١٢م)، ومعه ستون فارسا، وجرى نقل الأسرى إلى قلعة خرتبرت الواقعة إلى الشمال الشرقى من الرها[2].

والواقع أنه بوفاة إيلغازى تمزقت إمارة الأراتقة، فأخذ ابنه الأكبر سليمان ميافارقين، أى الجزء الشمالى من ديار بكر، وأخذ ابنه الثانى تمرتاش ماردين والجزء الجنوبى من ديار بكر؛ أما بلك بن بهرام – وهو ابن أخ إيلغازى – فقد احتفظ بخرتبرت فى الشمال وأضاف إليها حران فى الجنوب، فى حين أصبحت حلب من نصيب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو ابن آخر لإيلغازى[3].

وقد رأى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس أن يستغل الوضع الناجم عن تفتت إمارة الأراتقة بعد موت عاهلها إيلغازى. فخرج على رأس جيوشه وأغار على البزاعة، ومنها

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٣٠٣ – ٣٠٤؛ Nicholson, op. cit., pp. 417-418.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٣٠٤؛

William of Tyre, I, p.540., Runciman, op., II, p.161., Nicholson, op. cit., p. 418.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٣٠٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٤٩٧ –٤٩٨؛ العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ص ٤٨٠ –٤٨١ .

توجه إلى بالس التابعة لحلب على نهر الفرات، ثم استولى على البيرة شرقى حلب، وبذلك ضيق الخناق على حلب. ولما أحس سليمان بن عبد الجبار أمير حلب بعجزه عن مواجهة الصليبيين هادنهم، وعقد الصلح معهم فى صفر عام ٥١٧هـ (إبريل ١١٢٣) مقابل رد الأثارب إليهم. وفى هذا الصدد يقول ابن الأثير[1]: «وسبب ذلك أنهم (يريد الصليبيين) كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق، وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوه إلى ذلك، وتسلموا الحصن، وتمت الهدنة بينهم، واستقام أمر الرعية بأعمال حلب».

وبعد أن أطمأن بلدوين الثانى على سلامة أملاك الصليبيين فى شمال الشام، قرر القيام بمحاولة لإطلاق سراح جوسلين صاحب الرها، وكان بلك بن بهرام يحاصر آنذاك حصن كركز على نهر الفرات، فلما تناهى إلى سمعه أن بلدوين الثانى على مقربة منه توجه لقتاله، وانقض عليه بالقرب من قنطرة سنجة أحد فروع نهر الفرات فى ١٩ صفر سنة ٥١٧هـ (١٨ أبريل ١١٢٣)، فلقى بلدوين هزيمة ساحقة، وحمل هو الآخر أسيرًا إلى قلعة خرتبرت «مع جوسلين ومقدمى الأفرنج»[2].

وفى ربيع الأول عام ٥١٧هـ (أبريل ١١٢٣) سار بلك بن بهرام إلى حران، فاستولى عليها، ومنها اتجه إلى حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان بعد أن علم بعجزه عن الصمود أمام الصليبيين، فأحرق زرعها وضايقها، إلى أن تسلمها بالأمان فى جمادى الأول من نفس العام (يونيو ١١٢٣)[3]. ثم اتجه بلك لحصار كفرطاب، وهناك علم أن جوسلين وبلدوين الثانى قد استوليا على قلعة خرتبرت بمساعدة الأرمن، فترك بلك الحصار وتوجه مسرعًا إلى خرتبرت، فوجد أن جوسلين قد تمكن من الهرب، ولم يبق بالقلعة إلا بلدوين الثانى، فهاجمها وتمكن من استعادتها، وقام بنقل بلدوين إلى حران ليسجن بها. ثم توجه بلك إلى منبج للقضاء على ثورة نشبت فيها، وفى خلال الحصار الذى فرضه عليها أصابه سهم طائش أودى بحياته فى ١٩ ربيع الأول سنة ٥١٨هـ (٦ مايو ١١٢٤)، وقبل موته

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٣١١ – ٣١٢؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣١؛ Nichols on, op. cit. pp. 418-419.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٢؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣١٢ – ٣١٣؛ William of Tyre, I, pp. 540-541.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٣؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣١٢؛ Nicholson op. cit., pp. 419-420.

أخذ يردد قائلا: «هذا السهم أصاب المسلمين كلهم»[١]، وذلك لما أسهم به في مجاهدة الصليبيين، وشدة مراسه في قتالهم. والواقع أنه بموت بلك فقد النضال الإسلامي ضد الصليبيين بطلا من أهم أبطاله.

وقد آلت حلب بعد وفاة بلك بن بهرام إلى ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي، الذي وافق على إطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في ١٦ رجب سنة ٥١٨هـ (٢٩ أغسطس ١١٢٤م)، مقابل فدية ضخمة والتنازل عن عزاز[٢]. على أن تمرتاش لم يتخذ حلب مقرًا لنفوذه، بل غادرها إلى ماردين، وترك فيها أحد ثقاته نائبا له، ويلقي ابن الأثير[٣] الضوء على السبب الذي من أجله ترك تمرتاش حلب قائلا: «لأنه (تمرتاش) رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج، وكان رجلا يحب الدعة والرفاهة، فلما عاد إلى ماردين أخذت حلب منه».

آقسنقر البرسقي :

سبقت الإشارة إلى أن السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه قد أسند حكم الموصل إلى آقسنقر البرسقي، وعهد إليه بمهمة الجهاد ضد الصليبيين، ولكنه لم يستمر طويلا في تأدية مهمته، إذا شتبك في قتال مع إيلغازي بن أرتق حاكم ماردين في سنة ٥٠٨هـ (١١١٥م)، أدى إلى هزيمة البرسقي هزيمة ساحقة، جعلته ينسحب إثرها إلى إقطاعه في الرحبة[٤].

وفي سنة ٥١١هـ (١١١٨م) وقع اختيار السلطان السلجوقي محمد على آقسنقر البرسقي ليلي شحنكية بغداد[٥]، أي نائبا عنه لدى الخليفة العباسي المسترشد بالله. وكان أن توفي السلطان محمد في ٢٤ ذي الحجة سنة ٥٤١هـ (١٨ أبريل ١١١٨)، وبوفاته انتهت مرحلة هامة من مراحل الجهاد ضد الصليبيين. إذ ترتب على وفاته نشوب النزاع بين الولاة والأمراء في جميع أنحاء الدولة السلجوقية، وحاول ابنه محمود الذي خلفه على السلطنة

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٣١٥.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ١٢٠؛ William of Tyre, II,p. 21., Nicholson, op. cit., p. 423.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٣١٥.

(٤) انظر ص ٧٠.

(٥) شحنكية بغداد أي رئاسة الشرطة بها، ويسمى متوليها صاحب الشحنة. انظر حاشية رقم (١) السلوك، جـ ١ القسم الأول (القاهرة ١٩٥٦)، ص ٣٥.

أن يوطد نفوذه، غير أنه أضطر آخر الأمر أن يسلم السلطة العليا إلى عمه سنجر سلطان خراسان وما وراء النهر فى جمادى أولى سنة ٥١٣هـ (أغسطس ١١١٩). وعلى الرغم من أن سنجر كان قويا ونشيطا، إلا أن مصالحه تركزت فى الشرق، وانصرف بذلك عن أمور الشام[١].

وفى صفر سنة ٥١٥هـ (أبريل - مايو ١١٢١م) أقطع السلطان محمود السلجوقى مدينة الموصل وأعمالها وتوابعها الجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها آقسنقر البرسقى، وأمره بمجاهدة الصليبيين، لأنه كان ناصحا أمينا للسلطان وملازما له فى حروبه كلها، فضلا عن توسط البرسقى فى النزاع الذى قام بين السلطان وأخيه مسعود[٢].

وقد حانت الفرصة لآقسنقر البرسقى للتدخل فى شئون الشام عندما تعرضت حلب بعد موت بلك بن بهرام لحصار شديد فى ذى الحجة سنة ٥١٨هـ (أكتوبر ١١٢٤م)، فرضه عليها بلدوين الثانى وحلفاؤه من الأمراء المسلمين وعانت حلب من وطأة الحصار حتى قلت الأقوات بها، وأشرف أهلها على الهلاك، وباتت المدينة وكأنها على وشك السقوط. وحينئذ أرسل أهل حلب إلى تمرتاش فى ماردين يستنجدون به، ولكنه لم يحفل بهم. فلما ضاق بهم الأمر، استغاثوا بالبرسقى لإنقاذهم من الصليبيين، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى تتيح له السيطرة على حلب، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة، فأسرع إليها ودخلها فى ٢١ ذى الحجة سنة ٥١٨هـ (أواخر يناير ١١٢٥)، مما أدى إلى انصراف الصليبيين وحلفائهم عنها[٣].

ولا شك أن اجتماع حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد هو آقسنقر البرسقى يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى أعالى العراق والشام، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد، الأمر الذى كان أخطر ما يخشاه الصليبيون، نظرًا لما يمكن أن ينتج عنه قطع

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٦ - ٢٨٧؛ التاريخ الباهر، ص ٢١؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٢٣٥؛ Runciman, Hiat. of the Crusades,II, pp. 147-148.

(٢) الكامل، جـ ٨ ص ٢٩١ - ٢٩٢، ٣٠٢؛ التاريخ الباهر، ص ٢٢ .

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٣١٦ - ٣١٧؛ ذيل تاريه دمشق، ص ٣٣٧ - ٣٣٨؛ تتمة المختصر ص ١٥٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ٢٢٥؛

Willam of Tyre, pp. 21-22., Stevenson, op. cit, p. 112., Grousset, op. cit., pp. 150-151., Gibb (H.A.R.),"Zengi and the Fall of Edessa", 452-453.

الصلة بين إمارة الرها وبقية الإمارات الصليبية بالشام، فضلا عما في تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معاني القوة التي لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت، بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم[١]. ومما يزيد في أهمية ضم حلب وأعمالها إلى الموصل أنها أعطت آقسنقر البرسقي عمقا لممتلكاته، وأمدته بموارد مادية ومالية جديرة بالاعتبار، كما أنها خلعت على حاكم الموصل شخصية المدافع عن الإسلام ضد «الكفار»[٢].

وكان أن بدأ آقسنقر جهاده ضد الكيان الصليبي، فجمع عساكره وتوجه إلى الشام، وحاصر كفرطاب واستولى عليها، ثم شرع في حصار زردنا، ولكنها امتنعت عليه، فتركها وزحف على عزاز، «وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين» وشدد عليها الحصار، وكادت أن تقع في يده لولا أن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الصليبي جمع جيشا ضخما، التقى به مع البرسقي في معركة عنيفة في جمادى الأول سنة ٥١٩هـ (أوائل يونيو ١١٢٥م)، كانت الهزيمة فيها من نصيب البرسقي[٣].

وفي السنة التالية، وهي سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) حاصر بونز أمير طرابلس حصن رفنية الواقع في التلال الغربية لمدينة حمص، ولحق به بلدوين الثاني ملك بيت المقدس لمساعدته في الحصار، وحينئذ استنجد حاكم الحصن شمس الخواص بالبرسقي، ولكن رفنية لم تستطع المقاومة، فاستسلمت للصليبيين بعد حصار استمر ثمانية عشر يوما، وتلى ذلك أن أغار الصليبيون على إقليم حمص ونهبوه. حدث هذا في الوقت الذي جمع البرسقي جيوشه، وخرج من الموصل إلى الشام، حيث أرسل ابنه عز الدين مسعود لإنقاذ حمص من الوقوع في أيدي الصليبيين، في حين اتجه هو إلى الأثارب في جمادى الثاني سنة ٥٢٠هـ (يوليو ١١٢٦م). وعلى الرغم من أن البرسقي استولى على السورين الخارجيين للمدينة، إلا أنه فشل في الاستيلاء عليها، لمبادرة بلدوين الثاني إلى صده. ودارت المفاوضات بين البرسقي وملك بيت المقدس حول الصلح، ولكنها لم تسفر عن نتيجة ترضي الطرفين، فرجع ملك بيت المقدس إلى مملكته، في حين عاد البرسقي إلى الموصل في نوفمبر بعد أن عهد لابنه عز الدين مسعود بحكم حلب[٤].

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٤٧ .

(٢) Gibb, op. cit., p. 453.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٣١٨ – ٣١٩؛ William of Tyre, II, pp. 24 - 25; Nicholson, op. cit., p.425.

(٤) Nicholson, op. cit., p. 426.

على أن آقسنقر البرسقى الذى أظهر همة ونشاطا وكفاية عالية فى مقاومة الصليبيين، وتوج جهوده بتوحيد حلب والموصل، لم يقدر له أن يعيش طويلا. ذلك أنه فى يوم الجمعة ٩ ذو القعدة سنة ٥٢٠هـ (٢٦ نوفمبر ١١٢٦)، دخل جامع الموصل لأداء الصلاة، فوثب عليه جماعة من الباطنية فى زى الصوفية وضربوه بالسكاكين، فلقى مصرعه، وخلفه فى حكم الموصل وحلب ابنه عز الدين مسعود[(١)]. وهنا نلاحظ أن أحوال حلب عقب مقتل آقسنقر البرسقى لم تلبث أن تدهورت، وغرقت فى لجة عميقة من الفوضى، فى الوقت الذى طمع جيرانها الصليبيين فى أراضيها، ولكن وصول عماد الدين زنكى إلى حلب غير الموقف تمامًا.

عماد الدين زنكى :

وفى تلك المرحلة الهامة من مراحل الجهاد ضد الصليبيين، التى كانت تسير جنبا إلى جنب مع بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ظهرت شخصية بارزة فتحت صفحة جديدة فى سجل هذه المرحلة، وهى شخصية عماد الدين زنكى (٥٢١ – ٥٤١هـ / ١١٢٧ – ١١٤٦م)، الذى ربط الحماس الدينى بروح الشجاعة والتضحية، ووضع نصب عينيه أن التغلب على الصليبيين لا يمكن أن يتم إلا بتجميع القوى الإسلامية فى المشرق العربى تحت قيادته وحشدها فى مواجهة الصليبيين.

وبداية كان آقسنقر – وهو غير آقسنقر البرسقى الذى سبق الإشارة إليه – والد عماد الدين زنكى مملوكا للسلطان السلجوقى ملكشاه، ومن أبرز قواده وأرفعهم شأنا، ومن أخص المقربين لديه؛ وقد لقب آقسنقر بقسيم الدولة، وعرف بالحاجب، وفى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) عهد إليه ملكشاه بحكم حلب[(٢)]. وقد أنجز آقسنقر فى حلب أعمالا شتى كان أهمها نشر العدل بين الأهالى، وتحقيق الأمن فى شمال الشام، فى تلك الفترة التى

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٣١؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٢٠؛ التاريخ الباهر، ص ٣١ – ٣٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ٢٣٠؛ إبن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ ٤ ص ٦١ .

(٢) التاريخ الباهر، ص ٦ – ٨؛ إن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨)، جـ ١ ص ٢٤١؛ المقريزى: السلوك، جـ ١ ص ٣٤؛ الذهبى: دول الإسلام (القاهرة ١٩٧٤) جـ ٢ ص ٩؛ إبن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣)، جـ ١ ص ١١؛ Stevenson, op. cit., p. 121.

ازداد فيها نشاط قطاع الطرق، وانتشرت أعمال السلب والنهب، مما ألحق أضرارًا بالغة بالزراعة والتجارة هناك، وكتب إلى سائر الأطراف والأعمال بتتبع المفسدين وحماية المسافرين[١]. وفى هذا الصدد يقول ابن الأثير[٢]: «وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعايته وحفظا لهم. وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده، متى أخذ عند أحدهم قفل أوأحد من الناس، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته».

ولما توفى ملكشاه فى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢)، وتولى الحكم بعده ابنه بركياروق،ودعى على المنابر باسمه، ثار عليه عمه تاج الدولة تتش سلطان سلاجقة الشام، وحدث نفسه بالسلطنة، فكاتب قسيم الدولة آقسنقر وياغى سيان صاحب أنطاكية يطلب منهما المساعدة، فاتجها إليه، وقوى أمره بهما، وأخذ يستولى على البلاد والأعمال، فلما تبين لقسيم الدولة أطماعه ومطالبته بالسلطنة لنفسه انفصل عنه، وانضم إلى بركياروق؛ ومالبث الأخير أن أمر قسيم الدولة آقسنقر بالتوجه إلى حلب لإيقاف مطامع عمه، وفى المعركة التى دارت بينهما فى جمادى الأولى ٤٨٧هـ (مايو ١٠٩٤) عند تل السلطان القريب من حلب، وقعت الهزيمة بقسيم الدولة وقواته، وتمكن تتش من القبض عليه وأمر بضرب عنقه[٣].

ولما قتل قسيم الدولة آقسنقر لم يخلف من الأولاد غير ولد واحد، وهو عماد الدين زنكى، الذى كان عمره وقتذاك عشر سنين، فاعتنى به مماليك أبيه وأصحابه، وأحاطه كربوغا حاكم الموصل بالعطف والرعاية وحسن التربية، بسبب الزمالة والصداقة الحميمة التى كانت تجمع بين كربوغا وقسيم الدولة، ولما بلغ زنكى مرحلة الشباب، أظهر شجاعة فى الحروب التى خاضها ضد الصليبيين لفتت إليه الأنظار، فذاع صيته، وكسب شهرة واسعة[٤].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٦-١٩٧؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكى (بيروت ١٩٨٢)، ص ٣٤.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٥؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٠ - ٢٠٨؛ التاريخ الباهر، ص ١٢ - ١٥؛ وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٢٤١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٥ - ٢٦؛ دول الإسلام، جـ ٢ ص ١٤ - ١٥؛ الفارقى: تاريخه، ص ٢٣٣ - ٢٤٣؛ إبن أيبك الدوادارى: الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، ص ٤٢٣-٤٣٣.

(٤) التاريخ الباهر، ص ١٥؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٨-٢٩؛ الدرة المضية، ص ٥٠١ .

وعندما توفى عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقى أتابك الموصل فى سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م)، ذهب وفد من أعيان الموصل إلى السلطان السلجوقى محمود يلتمسون منه تعيين عماد الدين زنكى واليا على الموصل، لكفايته وقدرته على مواجهة الصليبيين، فاستجاب السلطان لطلبهم، وأصدر - كما ذكرنا - منشورًا بتولية عماد الدين زنكى الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام[١]. وقد وصف ابن الأثير[٢] أحوال البلاد الإسلامية عند ولاية عماد الدين زنكى للموصل بقوله: «وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار فى البلد شرر شرهم،... فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكى، فغزا الفرنج فى عقر دارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصونا ومعاقل».

وعلى أية حال، بعد أن تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل، بدأ أعماله فى سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م) بتأمين حدودها الشمالية، حتى تغدو سلطته عليها أمرًا واقعًا، وتطبيقا لهذه السياسة استولى على الإمارات الصغيرة التى كانت تجاوره، فاستولى على جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار والخابور وحران[٣]، وبذلك أصبح قريبا من إمارة الرها الصليبية أكثر من قبل. وجدير بالذكر أن عماد الدين زنكى فى الفترة المبكرة من ولايته للموصل، لم يمارس أى نشاط حربى مع الصليبيين قبل أن يوطد نفوذه فى الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذى يمكنه من التصدى للصليبين. ولعل ما يدل على بعد نظر زنكى فى هذا الصدد قول ابن الأثير[٤]: «وأرسل (زنكى) إلى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التى بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على مابقى له من البلاد الشامية والجزرية وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم». وبعد أن فرغ زنكى من تأمين نفوذه فى أعالى العراق، واستكمالا

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٣٢٤ - ٣٢٥؛ وفيات الأعيان، جـ ٢ ص ٣٢٧ -٣٢٨؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٣١-٣٣؛ العبر، المجلد الخامس، ص ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) التاريخ الباهر، ص ٣٢ - ٣٤.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٣٢٤ - ٣٢٥؛ التاريخ الباهر، ص ٣٦-٣٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٣٤-٣٦.

(٤) التاريخ الباهر، ص ٣٧.

لسياسته الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية فى أعالى العراق والشام، استوجب الأمر عليه عبور الفرات ووضع يده على حلب وغيرها من البلاد الشامية[١]. ولاشك أن حلب كانت أهم مدينة فى شمالى الشام، لحصانتها وأهمية مواردها الاقتصادية وموقعها الهام على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة، وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى؛ وبجانب ذلك غدت حلب قاعدة رئيسية منذ عهد طويل، لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام[٢] .

وكانت حلب بعد وفاة عز الدين مسعود قد تردت فى هاوية عميقة من الفوضى والفتن والصراعات، فقد تنازعها حكام كثيرون، فى الوقت الذى طمع كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية فى الاستيلاء عليها، ولكن يقظة زنكى أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم[٣]. إذ سار على رأس قواته قاصدًا حلب، واستولى فى طريقه على بزاعة ومنبج؛ ولما وصل إلى حلب فى ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٢٢هـ (١٨ يونيو ١١٢٨)، خرج أهلها إليه، «فالتقوه واستبشروا بقدومه، ودخل البلد، واستولى عليه، ورتب أموره»[٤]. وبذلك عاد الاتحاد بين حلب والموصل، الأمر الذى أدى إلى عزل الرها عن بقية الإمارات الصليبية فى الغرب والجنوب من ناحية، وهيأ لزنكى فرصة سانحة للتدخل فى الأوضاع السياسية ببلاد الشام من ناحية أخرى.

انتهز عماد الدين زنكى فرصة اختلال أحوال أنطاكية فى سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، وخرج على رأس جيوشه للجهاد، وعسكر أمام الأثارب، وهى من أمنع القلاع الصليبية المتاخمة لحلب، حيث دأب الصليبيون بها على مضايقة حلب، واشتبك معهم فى قتال عنيف انتهى بسقوط القلعة ومصرع عدد ضخم من حاميتها، ومن بقى حيا وقع فى أسره[٥]. وعاد زنكى إلى حلب، وقد ذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين فى جهادهم ضد الصليبيين[٦].

---

(١) التاريخ الباهر، ص ٣٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٣٦.
(٢) عماد الدين خليل: عماد الدين زنكى، ص ٧١.
(٣) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ٥١؛ حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص ١٥٥.
(٤) الكامل، جـ ٨ ص ٣٢٦؛ التاريخ الباهر، ص ٣٧ – ٣٨؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٥٤ – ٥٥ .
(٥) التاريخ الباهر، ص ٣٩–٤٢؛ العبر، المجلد الخامس، ص ٥٠٨؛ باركر: الحروب الصليبية، ص١٥٥–١٥٦.
(٦) Steveneon, op. cit., pp. 128-129.

زنكى ودمشق :

أدرك عماد الدين زنكى بثاقب بصره أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا بالاستيلاء على دمشق والمدن المحيطة بها، وبخاصة مدينتى حماه وحمص الواقعتين على الطريق الرئيسى إلى دمشق، لأن السيطرة عليهما تمنحه قواعد استراتيجية هامة، ومراكز للتموين، لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد دمشق أو فرض الحصار عليها(١).

وكان أن بدأ زنكى فى تنفيذ خططه الرامية إلى الاستيلاء على المدن الإسلامية الواقعة بين حلب ودمشق. فأرسل إلى بورى بن طغتكين الذى خلف أباه فى أتابكية دمشق فى صفر سنة ٥٢٢هـ (فبراير ١١٢٨)، يخطره بعزمه على محاربة الصليبيين ويلتمس منه المعونة، فكتب بورى إلى ولده سونج بحماه يأمره بالخروج فى عسكره والانضمام إلى جيش زنكى، فلما وصل سونج إلى معسكر زنكى أحسن لقاءه، ثم لم يلبث أن قبض عليه، وزحف إلى حماه بعد أن خلت من المدافعين عنها، واستولى عليها فى ١٤ شوال ٥٢٤هـ (٢٤ سبتمبر ١١٢٩) دون مقاومة تذكر(٢). ثم أسرع زنكى بالتوجه للاستيلاء عليها بنفس الطريقة التى استولى بها على حماه، بعد أن قبض على صاحبها خير خان بن قراجة وأمره بمراسلة أهلها لتسليمها إليه، ولكن أهالى حمص أغلقوا أبوابها دونه ودافعوا عنها ببسالة، فرحل عنها إلى الموصل(٣).

فى ذلك الحين، كان عماد الدين زنكى مهتما بالاستيلاء على دمشق، خاصة عندما وصلته فى سنة ٥٢٩هـ أنباء عن تغييرات حدثت داخل أسوارها. ذلك أنه بعد وفاة بورى بن طغتكين أتابك دمشق فى شعبان سنة ٥٢٦هـ (يونيو ١١٣٢م) خلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذى بدأ حكمه بداية طيبة، فاستعاد بانياس من الصليبيين فى صفر ٥٢٧هـ (ديسمبر ١١٣٢م)، وحماه من أيدى منافسيه فى شوال ٥٢٧هـ (أغسطس ١١٣٣م)، ثم قام بغارة مخربة على كونتية الجليل، انتقاما من الصليبيين الذين أغاروا على حوران التابعة

(١) عماد الدين خليل: المرجع السابق ص ١١٩ .

(٢) الكامل جـ ص ٣٢٩ - ٣٣٠؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦١ - ٢٦٢؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٥٦؛ Gibb "Zengi and the Fall of Edessa" p. 456.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦٢؛ الكامل، جـ ص ٣٣٠؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٤٦؛ Gibb, op. cit. p.456.

لدمشق فى ذى القعدة سنة ٥٢٨هـ (سبتمبر ١١٣٤)[١]. غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة بارتكابه المنكرات التى حرمّها الله، وبالغ فى ظلم الأهالى ومصادرة أموالهم، وأسرف فى قتل معارضيه. ونتيجة لهذه السياسة الغاشمة التى سار عليها إسماعيل اضطربت أحوال دمشق، وتألب عليه الجميع، وفوق هذا كتب إسماعيل إلى زنكى سرًا يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمه إياها بمحض إرادته، شريطة أن يمكنه من خصومه الأمراء والمقدمين والأعيان، وحذره إن أهمل فى سرعة الحضور إلى دمشق فسيقوم بتسليمها إلى الصليبيين، ويشير إلى ذلك بقوله «وإن اتفق أهمال لهذا الأمر وإغفال أو إمهال، أحوجت إلى استدعاء الأفرنج من بلادهم، وسلمت إليهم دمشق بما فيها، وإن إثم دم من بها فى رقبته (رقبة زنكى)[٢]»، وتلى ذلك أن شرع إسماعيل فى القبض على كبار رجال دولته وغيرهم من أهل دمشق. وحدث ما لم يكن فى الحسبان، إذ ما أن علمت صفوة الملك زمرد خاتون بما فعله إبنها إسماعيل، وأدركت العواقب السيئة التى ستعود على دمشق من جراء سياسته، حتى أسرعت بتدبير مؤامرة للتخلص منه فى فبراير سنة ١١٣٥م، «فأمرت غلمانها بقتله، غير راحمة له، ولا متألمة لفقده، لما عرفت من قبيح فعله، وفساد عقله، وسوء سيرته، ومذموم طريقته»، وأجلست مكانه فى الحكم أخاه شهاب الدين محمود. وكان زنكى وقتئذ قد عبر الفرات مجدًا لتسلم دمشق من إسماعيل، وعندما واتته الأخبار فى طريقه بما حدث لم يهتم، بل واصل سيره إلى أن بلغ ظاهر دمشق، وفرض عليها الحصار، ولكن أهالى دمشق بذلوا جهدًا كبيرًا فى الدفاع عن مدينتهم، فلما طالت الأيام على زنكى، «ولم يحصل على طائل مما حاول ولا مرام، راسل فى طلب الصلح». ووافق ذلك وصول رسول قبل الخليفة العباسى يطلب إليه رفع الحصار عن دمشق والرحيل عنها، فانصرف زنكى بجيوشه عائدًا إلى حلب فى جمادى الأولى ٥٢٩هـ (فبراير ١١٣٥)[٣].

ولم يلبث عماد الدين زنكى أن وجه جهوده لقتال الصليبيين فى قلاعهم القريبة من حلب، وفى غضون أسابيع إستطاع أن يطهر الطرق المؤدية إلى حلب من ناحية الغرب والجنوب الغربى، وذلك باستيلائه على الأثارب وزردنا ومعرة النعمان وقلاع أخرى[٤].

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٧٥ - ٣٨٥؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٣٧ - ٣٤٢؛ Gibb, op. cit., p. 457.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٨٧ - ٣٨٩؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٤٥ - ٣٤٦؛ Gibb, op. cit., p. 457.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٨٩ - ٣٩٢؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٤٦؛ Gibb, op. cit., p. 457-458.

(٤) Gibb, op. cit., pp. 457 - 458.

ثم توجه زنكى بعدئذ إلى حمص، وفرض عليها الحصار، غير أنه فشل فى الاستيلاء عليها وانسحب عائدًا إلى الموصل. وبسبب ما تعرضت له حمص من مضايقات مستمرة على أيدى زنكى وعساكره، فقد تنازل أصحابها أولاد خيرخان بن قراجه عنها إلى صاحب دمشق مقابل حصولهم على تدمر، فتسلمها منهم فى ٢٢ ربيع الأول عام ٥٣٠هـ (٣٠ ديسمبر ١١٣٥م)، وأقطعها معين الدين أنر. فلما رأى عساكر زنكى بحلب خروج حمص عن أيديهم، تابعوا الغارات على أعمالها، إلى أن استقر الصلح بين الجانبين[١].

وهنا ينبغى ألا ننسى أن زنكى آمن دائمًا بأن قيام الجبهة الإسلامية المتحدة فى الشام، يجب أن تسبق أية خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين[٢]. ومن هذا المنطلق خرج زنكى من الموصل فى شعبان عام ٥٣١هـ (يونيو ١١٣٧م)، وعبر الفرات، وجدد هجومه على حمص، غير أنه فشل فى الاستيلاء عليها بسبب المقاومة العنيدة التى أبداها معين الدين أنر الذى كان يحكمها نائبا عن صاحب دمشق من ناحية، ولنهوض ملك بيت المقدس الصليبى فولك أنجو (١١٣١ - ١١٤٣) ومعه ريموند الثانى أمير طرابلس الجديد لنجدتها من ناحية أخرى[٣]. وعندئذ اضطر زنكى إلى فك الحصار عن حمص، واتجه لمنازلة الصليبيين فى حصن بعرين المنيع فى ٢٠ شوال من نفس العام (١١ يوليو ١١٣٧)، فوجدهم قدا حتشدوا بقيادة فولك أنجو، ودارت رحى معركة كبرى وصفها المؤرخون بأنها أشد قتال رآه الناس، الأمر الذى جعلهم يحتمون بالحصن، فشدد زنكى عليهم الحصار، «ولم يزالوا على هذه الحال فى المضايقة والمحاربة، إلى نفذ ما عندهم من القوت، فأكلوا خيولهم». ولكن زنكى ما لبث أن رفع الحصار مقابل خمسين ألف دينار وتسليم الحصن إليه، وذلك بعد أن علم بقرب وصول النجدات الصليبية لتخليص الملك الصليبى ورجاله «من الشدة والخوف والهلاك»[٤].

ومهما يكن من أمر، فإنه لم يغب عن بال زنكى ضرورة الاستيلاء على دمشق لتحقيق الوحدة الإسلامية ببلاد الشام، ولكنه كان يدرك أنه ليس من السهولة بمكان أن يضمها لنفوذه، فرأى أن يستخدم الحيلة فى الوصول إلى هدفه. وعلى هذا الأساس تقدم طالبا يد

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ٣٩٧ - ٣٩٨؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٥٣؛ Gibb, op. cit. p. 458.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٠٧؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٥٧ .

(٤) ذيل تاريه دمشق، ص ٤٠٧ - ٤٠٨؛ الكامل، جـ ٨ ص ٣٥٧ - ٣٥٨؛ William of Tyre, II, pp. 89-91.

على حدودها، كما بات من المتوقع أن تزداد الغارات الإسلامية عليها بعد أن زال الخطر الصليبى فى الرها[١].

وعلى أية حال، بعد أن استولى عماد الدين زنكي على الرها، وجه اهتمامه إلى البلاد التابعة لها شرقى الفرات، فاستولى على سروج بعد أن هرب الصليبيون منها؛ وتوجه بعد ذلك إلى البيرة، وهى من أمنع المعاقل الصليبية التى تتحكم فى عبور الفرات إلى تل باشر، وضيق عليها الحصار فى رمضان سنة ٥٣٩هـ (مارس ١١٤٥)، حتى أشرف أهلها على تسليمها، لولا ما بلغه عن وقوع اضطرابات بالموصل ومقتل نائبه بها نصير الدين جقر، فرحل زنكى عن البيرة، وعهد إلى تمرتاش صاحب ماردين بالسير إليها، فاستسلمت له حاميتها الصليبية[٢].

وفى رمضان سنة ٥٣٩هـ (فبراير ١١٤٥) وصلت الأخبار إلى زنكى أن الصليبيين فى أنطاكية يتجهزون لنجدة أهالى الرها، فخرج إليهم على رأس قوات ضخمة، واشتبك معهم فى قتال، انتهى بهزيمتهم، وسقوط الكثير منهم ما بين قتيل وأسير[٣]. ثم توجه زنكى إلى قلعة جعبر (دوسر) الواقعة على الطريق من الفرات إلى دمشق، بعد أن رفض أميرها سالم بن مالك العقيلى الاعتراف بسيادته عليه، ونزل عليها وضيق عليها الحصار، غير أنه لقى مصرعه غيلة بيد أحد غلمانه، وأصله فرنجى يدعى يرنقش فى ٦ ربيع الثانى سنة ٥٤١هـ (١٤ سبتمبر ١١٤٦)[٤]. وبموت عماد الدين زنكى، طويت صفحة مجيدة من صفحات الجهاد ضد الصليبيين، فقد وضع أول حجر فى بناء جبهة إسلامية موحدة متماسكة تستطيع أن تضرب بشدة على أيدى الصليبيين الدخلاء وتصد أطماعهم، وترك لمن يأتى من بعده مهمة إنجاز العمل الذى بدأه.

وبوفاة عماد الدين زنكى انقسمت دولته إلى قسمين، إحداهما الشرقى وعليه إبنه الأكبر سيف الدين غازى ومقره الموصل، والآخر الغربى وعليه ولده الآخر نور الدين محمود ومقره

(١) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٦٩ .

(٢) التاريخ الباهر، ص ٧٠ - ٧١؛ الكامل، جـ ٩ ص ٤؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٣٥ - ٤٣٦؛ Cahen, op. cit., p.371., Gibb, op. cit., p. 461.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٣٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٤٤؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٢-١٣؛ إبن أيبك: الدرة المضية، ص ٥٤٦ - ٥٤٧؛ إبن العماد: شذرات الذهب، جـ ٤ ص ١٢٨.

حلب؛ وكان نهر الخابور – فرع من نهر الفرات – هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين[١]. أما الإبن الثالث لزنكى وهو نصير الدين فقد حكم حران تابعا لأخيه نور الدين، فى حين كان الإبن الرابع قطب الدين صغيرًا فلبث فى رعاية أخيه غازى بالموصل. ولاشك أن أمير حلب صار لزامًا عليه أن يتفرغ للمشكلتين الكبيرتين اللتين أنفق عماد الدين زنكى معظم حياته فى التصدى لهما، وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية المختلفة[٢].

ويهمنا من هؤلاء الأنباء نور الدين محمود الذى تميز بالكفاية والمقدرة والعقل وبعد النظر والحرص على مصالح المسلمين، وقد جعلت منه تلك الصفات بطلا حقيقيا من أبطال عصره، على الرغم من أنه عندما تولى حكم حلب بعد وفاة أبيه سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) كان شابا دون الثلاثين من عمره[٣]، تعوزه الخبرة والتجارب، ويحيط به كثير من الأعداء والمنافسين الأقوياء، بالإضافة إلى الأحقاد والصراعات التى كانت تشتعل بين أمرائه[٤]. وهنا نلاحظ أنه منذ أوائل حكمه اتخذ سياسة هامة سار عليها طيلة عهده، وهى سياسة العمل على نصرة الإسلام والمذهب السنى؛ فعندما جاء نور الدين إلى حلب، كان للمذهب الشيعى أنصار عديدون فى هذه المدينة، يمارسون شعائرهم علنا، ولفترة قصيرة اتبع سياسة أبيه زنكى فى التسامح معهم وعدم مناوأتهم، حتى لا يزيد من المشاكل التى واجهته فى بداية حكمه. ولكنه منذ حوالى شوال سنة ٥٤١هـ (مارس ١١٤٧)، تغير موقفه بالنسبة للشيعة فى داخل دولته، فأخذ يعمل على إعادة فرض المذهب السنى بحلب، وأنشأ المدارس والربط، واستدعى الفقهاء والعلماء والمتصوفين إلى تلك المدينة، وكان لإعادة المذهب السنى وإقامة المدارس السنية والربط بالغ الأثر فى حث المسلمين على الجهاد ضد الصليبيين[٥].

ومما ساعد على ارتفاع مكانة نور الدين فى قلوب معاصريه أنه لم يتصف بما اتصف به أبوه زنكى من قسوة وغلظة فى بعض المواقف، كما أن نور الدين تمتع بمقدرة فائقة فى اختيار الرجال، الأمر الذى هيأ له حاشية من الأوفياء أخلصوا له النصح وتعاونوا معه

---

(١) عماد الدين الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٩١ – ١٩٢؛ العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٠؛ Stevenson, op. cit., 153 - 154; grousset, op. cit., p. 190.

(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٥٣ – ٥٤ .

(٣) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ٥٣ .

(٤) Gelb, The Career of Nur -ad- Din.U P. 513.

(٥) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

فى صدق وإيمان[1]، ومن هؤلاء الرجال أسد الدين شيركوه -عم صلاح الدين الأيوبى - الذى كرس سنوات عديدة من حياته لخدمة نور الدين، وقدم مثلا رائعا فى العمل والإخلاص بصورة يندر وجودها[2]. وبعبارة أخرى، فإنه بفضل مساعدة البيت الأيوبى وإخلاصه، استطاع نور الدين محمود أن يواصل جهود أبيه فى توحيد الجبهة الإسلامية ومنازلة الصليبيين[3].

ظهور الأيوبيين :

ويحسن بنا أن نتناول بشيء من الإيجاز ظهور الأيوبيين، وذلك لارتباطهم الوثيق بالأحداث التى عاشها البيت الزنكي ومشاركتهم فيها بشكل فعال، وهو ما سنتعرض له فى دراستنا. ومن دراسة موطن الأيوبيين الأصلى ونشأتهم الأولى، يتبين لنا أنهم أكراد الجنس، فأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وهو الأكبر، إبنا شاذى من بلد دوين، وهى من آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس، وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الراوندية، أحد بطون الهذبانية[4]. غير أن بعض الأيوبيين حاول الابتعاد عن الأصل الكردى والالتصاق بالدم العربى من ناحية، والارتباط بأصحاب الأمجاد العالية من ناحية أخرى، ذلك أن الملك المعز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ملك اليمن (١١٨١ - ١١٩٦)، ادعى النسب فى بنى أمية، ولكن العادل الأيوبى أنكر ذلك، وساء فعله، «وجحد أن يكون لبنى أيوب نسب يتصل ببنى أمية»[5]. ولم يكن صلاح الدين الأيوبى أقل من أخيه العادل لهذا الادعاء، فقد ذكر المؤرخ القاضى بهاء الدين بن شداد أن صلاح الدين أنكر ذلك، وقال: «ليس لهذا الأصل أصلا»[6]. وحسم المقريزى[7] هذا الموضوع عندما

(١) عاشور: المرجع السابق، ٥٣ - ٥٤ .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 155.

(٣) العرينى: المرجع السابق، ص ٣٠ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٠١؛ التاريخ الباهر، ص ١١٩؛ أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ١ ص ١٧؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٣ - ٤ المقريزى: السلوك، جـ ١ ص ٤٠؛ إبن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٧ ؛ الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب، تحقيق د. عاشور (القاهرة ١٩٧٢) ص ٦؛ محمود الحويرى: العادل الأيوبى (القاهرة ١٩٧٩) ص ٧ .

(٥) مفرج الكروب، جـ ٣ ص ١٣٧؛ إبن أيبك: الدر المطلوب، ص ٦

(٦) إبن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٧ ص ١٤١ .

(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ ٢ ص ٣٧٨؛ محمود الحويرى: المرجع السابق، ص ٧ - ٨ .

علق على محاولة بعض الأيوبيين الخروج عن دائرة الأصل الكردى بقوله: «إنما هى أقوال الفقهاء لهم، ممن أرادوا الحظوة لديهم، لما صار الملك إليهم». وعلى هذا، فإن الأيوبيين ليسوا عربًا بالدم والجنس والأصل، ولكنهم عرب باللغة والحضارة والتاريخ والمشاعر، وفوق ذلك كله بالإسلام.

وليس من المعروف التاريخ الذى انتقلت فيه الأسرة الأيوبية من موطنها دوين، وإن كان البعض يرى أن شاذيا كان له صديق فى تلك البلدة اسمه مجاهد الدين بهروز، تولى شحنة (شحنكية) بغداد من قبل السلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه، ومنحه قلعة تكريت الواقعة على نهر دجلة إقطاعا، ثم عين بهروز صديقه شاذى حاكما على تلك القلعة، حيث استمر فى وظيفته إلى أن توفى، فرأى مجاهد الدين فى ابنه نجم الدين «عقلا ورأيا حسنا وحسن سيرة»، فولاه مكان أبيه[١]. ولما لم يعد أمام الباحث إلا تاريخ تولى بهروز شحنة بغداد، لاقترانه بتاريخ الأيوبيين المبكر، وإذا عرفنا أن بهروز تولى شحنة بغداد لأول مرة سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨)، فإن ما يمكن استنتاجه من ذلك أن شاذيا رحل من دوين بابنيه أيوب وشيركوه قبل ذلك التاريخ بقليل، أى فى بداية القرن السادس الهجرى – بداية القرن الثانى عشر الميلادى[٢].

ثم شاءت الظروف أن تحمل أيوبا وأخاه أسد الدين شيركوه على ترك حكم تكريت، إذ حدث أن عماد الدين زنكى أتابك الموصل هاجم بغداد سنة ٥٢٦هـ (١١٣١)، مظاهرًا للسلطان مسعود السجلوقى ضد الخليفة العباسى المسترشد بالله، بيد أنه لقى الهزيمة على يد قراجه الساقى، واضطر إلى التقهقر، فوصل إلى تكريت، وهناك لقيه حاكمها نجم الدين أيوب بترحاب، وساعده وفلوله فى عبور نهر دجلة إلى الضفة الغربية بأن قدم له السفن[٣]. ويقول ابن واصل[٤]: «وكان هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى ونجم

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٠١؛ وفيات الأعيان، جـ ٧ ص ١٤١ – ١٤٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ١٧؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٢٥٩؛ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية وشرقيى (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٦ .

(٢) على بيومى: قيام الدولة الأيوبية (القاهرة ١٩٥٢)، ص ٦٢؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بهروز».

(٣) التاريخ الباهر، ص ١١٩؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٥٩ – ٦٠؛ السلوك، جـ ١ ص ٣٥؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ١١٧؛ الروضتين، جـ ١ ص ٢٠٣؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ٢٢٦ – ٢٢٧؛ ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ ١٠ ص ٢٥؛ Newby, Saladin., pp. 28-29.

(٤) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٨ .

الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه، ومبدأ سعادتهما، ولكل شيء سبب!»، ويقال إن أسد الدين قتل رجلا من العامة دون سبب قوى، فأخرجهما بهروز من قلعة تكريت، وتوجها إلى عماد الدين زنكى بالموصل، حيث رحب بهما وأحسن إليهما، ردًا لجميلهما القديم، واقطعهما إقطاعات وافرة، وانخرطا فى سلك جنده؛ ويبدو أنهما بذلا جهدًا طيبًا فى حروب زنكى، بدليل أنه ما كان يستولى على حصن بعلبك سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩هـ)، حتى أسند قيادته إلى نجم الدين[١].

ولما سقط عماد الدين زنكى قتيلا فى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦) على يد أحد غلمانه، خلفه – كما رأينا – ولداه نور الدين محمود فى حلب، وسيف الدين غازى فى الموصل. ويقال إن نجم الدين شعر بحرج موقفه فى بعلبك، بعد أن طمع فيها مجير الدين أبق صاحب دمشق وطالبه بتسليمها. فطلب نجم الدين من سيف الدين غازى أن يتسلم منه بعلبك، ولكن سيف الدين كان مشغولا آنذاك «بترتيب الممالك الشرقية»، فخاف نجم الدين أن تأخذ منه عنوة وينالـه أذى، ومن ثم اضطر إلى تسليمها إلى صاحب دمشق، حيث عوضه عنها بأن منحه منزلا وإقطاعا جليلا ومالا، وصار من اصحاب الحظوة لديه[٢]. أما أسد الدين شيركوه، فصار فى خدمة نور الدين محمود، الذى قربه إليه وأعطاه إقطاعًا، وجعله مقدم عسكره، نظرًا لشجاعته وجرأته فى الحروب، ولم تزل مكانته فى ازدياد، حتى صارت له حمص والرحبة وغيرها[٣]. ومما يؤكد المكانة الرفيعة التى بلغها شيركوه لدى نور الدين محمود، أن الأخير كان قد أصيب بمرض حاد فى رمضان سنة ٥٥٢هـ (أكتوبر ١١٥٧)، فلما اشتد به المرض وخاف على نفسه، أوصى بأن يخلفه أخاه نصير الدين لشهامته وشدة بأسه، وأن يقيم بحلب، كما أوصى أن تسند ولاية دمشق لشيركوه، واستحلف نور الدين كبار رجال دولته على العمل بوصيته؛ ولما وردت الأخبار إلى شيركوه بشفاء نور الدين «سارع بالنهوض من دمشق إلى ناحية حلب، ووصل إليها فى خيله، واجتمع مع الملك العادل نور الدين، فأكرم لقياه، وشكر مسعاه»[٤].

---

(١) التاريخ الباهر، ص ١٢٠؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١١٧؛ الروضتين، جـ ١ ص ٢٥٩؛ وفيات الأعيان؛ جـ ٧ ص ١٤٣؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٢٥٩؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٤٠٥؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «أيوب»؛ Newby, Saladin., P.29.

(٢) الروضتين، جـ ١ ص ١٧-١٨؛ مفرج الكروب، ص ٩ - ١٠؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٧٣-٦٤.

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٢٠؛ وفيات الأعيان، جـ ٧ ص ١٤٣-١٤٤؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٥.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٣٣-٥٣٥.

توسع نور الدين فى الشام :

كان من الطبيعى أن يواصل نور الدين محمود رسالة أبيه فى منازلة الصليبيين، خاصة أن مقر إقامته فى حلب جعله أشد إحساسًا بخطرهم، وأكثر تعرضًا لهجماتهم فى شمال الشام[1]. وكان أول خطر صليبى واجه نور الدين هو المحاولة التى قام بها جوسلين الثانى فى ٨ جمادى أولى سنة ٥٤٠هـ (٢٧ أكتوبر ١١٤٥)، غير أنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة المدينة التى احتمت بها الحامية التركية؛ ولما عرف نور الدين ما فعله جوسلين الثانى، أسرع إلى الرها لإنقاذها، وما لبث جوسلين الثانى ومعه الصليبيون والأرمن أن وجدوا أنفسهم وقد طوقتهم حامية القلعة وقوات نور الدين، ودار قتال عنيف لقى فيه الصليبيون والأرمن هزيمة فادحة، وفى هذه المرة لم تفرق القوات الإسلامية بين الصليبيين والمسيحيين الوطنيين والأرمن، فأعملت السيف فى الجميع، ونهبت المدينة وخربتها[2].

وهنا نلاحظ أن سياسة نور الدين محمود استهدفت محاربة الصليبيين فى أنطاكية، وفى ذات الوقت استمالة ود جيرانه المسلمين فى دمشق. وتطبيقا لهذه السياسة نهض نور الدين لاجتذاب معين الدين أنر صاحب السلطة الفعلية فى دمشق إلى جانبه، فبدأت السفارات تتردد بين حلب ودمشق، حتى انتهى الأمر بعقد الصلح بين نور الدين وأنر فى ٢٣ شوال ٥٤١هـ (٢٨ مارس ١١٤٧). على أن نور الدين لم يكتف بعقد هذه الاتفاقية، بل عمل على تدعيمها بالزواج من ابنة أنر[3]، وبذلك مهد الطريق لانتزاع دمشق من التحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية. حدث هذا فى الوقت الذى أخذ نور الدين يسدد ضرباته إلى إمارة أنطاكية، فسقطت فى يده عدة مدن وحصون كانت لا تزال باقية تحت سيطرة أنطاكية منذ أيام الحملة الصليبية الأولى؛ ونتيجة لذلك أصر ريموند كونت أنطاكية على قدوم حملة صليبية مشابهة من الغرب الأوربى، ورسم صورة قاتمة للوضع الناتج عن سقوط الرها فى أيدى المسلمين[4].

---

(١) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ٥٤ .

(٢) التاريخ الباهر، ص ٨٦ – ٨٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١١٠ – ١١١؛
Stevenson, op. cit. p. 147., Cahen, 0p. cit., p. 373., Grousset, op. cit., pp. 190-191.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٥٠؛ Stevenson, 0p. cit., p. 157.

(٤) Stevenson, op. cit., p. 157; Cahen, op. cit., p. 373.

وعلى الرغم من الصلح الذى تم بين حلب ودمشق، إلا أن معين الدين أنر ظل مخلصا للتحالف القائم بينه وبين الصليبيين، لأن هذا التحالف فى نظره كان بمثابة حجر الزاوية فى حفظ ميزانا لقوى ببلادا لشام أمام ازدياد نفوذ الزنكيين فى حلب[١]. غير أن هذا التحالف سرعان ما قضى عليه، بسبب الموقف الذى اتخذته مملكة بيت المقدس ضد أنر حول مسألة حوران التابعة لدمشق. ذلك أن ألتونتاش حاكم صرخد وبصرى قد استاء من أنر ودخل فى نزاع معه، الأمر الذى جعل ألتونتاش يتوجه إلى الصليبيين فى بيت المقدس، ويطلب منهم مساعدته فى الاستقلال بحوران، مقابل إعطائهم صرخد وبصرى، فوافق الصليبيون فورًا على هذا العرض السخى، ضاربين عرض الحائط بالتحالف القائم بينهم وبين دمشق؛ ولم يكد أنر يعلم بما حدث، حتى أرسل يذكر حلفاءه فى بيت المقدس بتحالفهم معه، ولكنهم لم يأبهوا له[٢]. ولم يلبث بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره، أن خرج بقواته فى ذى الحجة سنة ٥٤١هـ (مايو ١١٤٧) إلى حوران لإتمام الصفقة التى عقدها مع ألتونتاش، بيد أن أنر لم يقف ساكنا، وأسرع بالخروج على رأس جيوشه ليعترض الصليبيين فى الطريق المؤدى إلى صرخد وبصرى، وفى ذات الوقت استنجد بنور الدين محمود طالبا مساعدته، فأتى إليه من حلب مسرعًا على رأس جيش ضخم، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين وألتونتاش جميعًا، بحيث لم يستطع الصليبيون العودة إلى بيت المقدس إلا بصعوبة شديدة[٣]. ومهما قيل أن الصليبيين قد ارتكبوا خطأً فادحًا بموافقتهم على مهاجمة حوران التابعة لدمشق، فى حين أن سياستهم كانت تقتضى الإبقاء على التحالف القائم بينهم وبين أنر، ينبغى ألا يفوتنا أن الصليبيين كانوا يعملون على حماية مصالحهم وتنفيذ خططهم ومشاريعهم على حساب القوى الإسلامية جميعا، مهما اختلفت الوسائل.

الحملة الصليبية الثانية :

سبق أن ذكرنا أن مدينة الرها قد سقطت فى أيدى عماد الدين زنكى فى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م)، ولم يكد يأتى صيف العام التالى، حتى أذاع الحجاج والمسافرون القادمون من بيت المقدس أنباء سقوط الرها فى الغرب الأوربى. كما أن الأساقفة الأرمن الذين وصلوا

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٦٠٢.

(٢) Stevenaon, op. cit., pp. 157-158.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٥١ -٤٥٣؛ Stevenson, op. cit., p. 158.

إلى أوربا بعد ذلك بوقت قصير للتشاور مع الباب إيوجين الثالث Eugenius III حول توحيد كنيستى روما وأرمينية، قد أبلغوه بأحوال الشرق الصليبى. وفى نفس الوقت أنفذ الصليبيون فى الشرق رسلا إلى الغرب الأوربى طلبا للمساعدة، فذرف هيو أسقف جبلة الدموع أمام المجلس البابوى فى نوفمبر سنة ١١٤٥م، وشرح ما تتعرض له الكنيسة اللاتينية فى الشرق من خطر بعد سقوط الرها[١]. والواقع أن رد الفعل كان شديدًا فى الغرب الأوربى، بصورة أدت إلى إثارة الروح الصليبية من جديد، خاصة فى فرنسا التى تبنت فيها الحملة الصليبية الأولى، ولارتباطها الوثيق باللاتين فى بلاد الشام[٢]. وكان البابا إيوجين الثالث أول من دعا إلى حملة صليبية فى الغرب الأوربى، ففى ديسمبر ١١٤٥م كتب رسالة إلى لويس السابع ملك فرنسا يدعوه للقيام بحملة صليبية جديدة إلى الشرق. وفى هذه الرسالة أشار إيوجين الثالث إلى أن مدينة الرها التى كانت تحت حكم المسيحين، قد وقعت فى أيدى أعداء المسيح، وأخذوا معها كثيرًا من القلاع المسيحية، وقتلوا رئيس أساقفتها ورجاله وكثيرًا من المسيحيين، الأمر الذى يهدد كنيسة الله والمسيحية؛ ثم طلب البابا من ملك فرنسا النهوض للدفاع عن الكنيسة والعمل على تخليص الآلاف الأسرى من قبضة المسلمين، ووعد الباب الذين سيحملون الصليب بغفران ذنوبهم، وحماية زوجاتهم وأطفالهم وممتلكاتهم، والإعفاء من جميع الالتزامات المقررة عليهم[٣]. ولما تسلم لويس السابع رسالة البابا أعلن استجابته لنداء البابا، وأقسم اليمين بأن يحمل الصليب. على أن الفضل فى قيام الحملة الصليبية الثانية يرجع إلى برنارد رئيس دير كليرفو (١٠٩١ - ١١٥٣م) الذى اشتهر بالفصاحة وقوة البيان والحماسة المتقدة.

ففى فرنسا ألقى برنارد خطابا ناريا دعا فيه إلى حرب مقدسة جديدة ضد المسلمين، وأخذ يوزع شارات الصليب، وحين لم تكف تلك الشارات مزق برنارد ثوبه الرهبانى وصنع منه الأهالى صلبانا. كذلك استطاع برنارد أن يضم إلى الحملة الصليبية كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، بعد أن استمع لموعظته المؤثرة فى شبير Speyer فى ٢٤ ديسمبر ١١٤٦م[٤]. وعندما حمل كونراد الصليب، أحس برنارد أن أمنيته فى قيام حملة صليبية

---

(١) William of Tyre, p. 163., Berry "The Second Crusade", p. 466.

(٢) Stevenson, 0p. cit., p.158.

(٣) Riley - Smith, The Crusades., pp .57-59.

(٤) باركر: الحروب الصليبية، ص ٧٣؛ زابوروف: الصليبيون فى الشرق، ص ١٧٦؛

Berry, op. cit., p. 474., Grousset, op. cit., pp. 193-194.

جديدة قد تحققت، وأطلق على ما أنجزه «معجزة المعجزات»[١]. وعلى هذا النحو بدأت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق. وقرر الملك لويس السابع أن يرتحل بجيشه فى ١٥ يونيو ١١٤٧ ، بينما اتخذ كونراد الثالث منتصف مايو تاريخا لرحيل الجيوش الألمانيـة، على أن تلتقى الجيوش كلها بالقسطنطينية[٢]. وهنا نلاحظ أن العاهلين - كونراد ولويس - قررا أن يسير كل منهما مستقلا عن الآخر، وفى أزمنة مختلفة، حتى يتجنبا أية منازعات تقع بين جيوشهما من ناحية، وحتى لا يؤدى مسير الجيشين معا إلى مشاكل فى التموين من ناحية أخرى[٣].

اتخذ كونراد الثالث الطريق الرئيسى الذى سلكته الحملة الصليبية الأولى، ولما وصل بقواته إلى حدود الدولة البيزنطية، استقبلهم مبعوثان من قبل الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م) للوقوف على نوايا كونراد، كما رفضا السماح لهم بعبور الأراضى البيزنطية إلا بعد أن أقسم قادة وكبار نبلاء الجيش الألمانى باحترام مصالح الإمبراطور وعدم إلحاق الأذى بها، وبلغ الألمان القسطنطينية فى ١٠ سبتمبر سنة ١١٤٧م[٤]. وهناك استقبل الإمبراطور البيزنطى العاهل الألمانى، وأمده بالإمدادات والمؤن، ونصحه أن يتجنب الطريق المستقيم الذى يخترق آسيا الصغرى، وأن يتخذ طريق الساحل الغربى إلى أضاليا - على ساحل البحر المتوسط -الذى يخضع لنفوذ الإمبراطور، لأنه أكثر أمنًا من السابق رغم طوله. غير أن كونراد لم يستمع للنصيحة، وسلك نفس الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية الأولى فى آسيا الصغرى، وبالقرب من دوريلا يوم دارت معركة بين الأتراك السلاجقة والألمان فى ٢٥ أكتوبر سنة ١١٤٧ هلك فيها تسعة أعشار الجنود، ووقع معسكرهم غنيمة فى أيدى السلاجقة، أما كونراد الثالث فلم يعد بوسعه إلا الركون إلى الفرار، والانسحاب إلى مدينة نيقية ولم يبق معه إلا عشر قوته التى لا تتجاوز ألفين مقاتل[٥]. وبهذه الكارثة فقد الجيش الألمانى الصليبى قوته وفعاليته قبل أن يصل إلى بلاد الشام.

---

(١) Berry, op. cit., p. 475.

(٢) زابوروف: المرجع السابق، ١٧٨؛ العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ١٥٥؛ Berry, op. cit., pp. 478 - 479.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٦٠٧ .

(٤) Berry, 0p. cit., p. 484.

(٥) William Of Tyre II, pp. 171-172., Berry, 0p. cit., p. 495., Brooke, op. cit. p. 528., Scott, op. cit. p. 144., Runciman, op. cit., II, p. 268.,

رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٢؛ بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥١.

وجدير بالذكر أن السلاجقة فى آسيا الصغرى لم ينسوا ما حل بهم على أيدى الحملة الصليبية الأولى، فى الوقت الذى كانوا يعلمون أن الجيش الألمانى الصليبى فى طريقه لقتال إخوانهم فى بلاد الشام؛ وعلى الرغم من عدم وجود تحالف بين السلاجقة والقوى الإسلامية ببلاد الشام، فقد أدرك السلاجقة أن القوات الألمانية أتت إلى الشرق لاستعادة الرها من المسلمين، ودعم الوجود الصليبى فى الشام، ولهذا سعى السلاجقة إلى إنزال أقسى الضربات وإلحاق أكبر الخسائر بالقوات الألمانية الصليبية(١).

أما الجيش الفرنسى الصليبى بقيادة لويس السابع، فقد احتشد فى مدينة ميتز فى يونيو سنة ١١٤٧ ، وأصدر الملك الفرنسى أوامر مشددة بالمحافظة على النظام، ثم وصل الجيش إلى وورمز وعبر نهر الدانوب، وواصل سيره إلى أن بلغ بلغاريا، وهناك استقبل لويس سفراء من قبل الإمبراطور البيزطى، وطلبوا منه ألا يتعرض لأية مدينة تابعة للإمبراطور، وأن يلتزم برد الأماكن التى ينتزعها من السلاجقة. ولما اقترب لويس من القسطنطينية، علم أن كونراد الثالث قد اجتاز البوسفور دون أن ينتظر قدومه إلى القسطنطينية التى بلغها فى ٤ أكتوبر سنة ١١٤٧ . وبعد أن استقبله الإمبراطور البيزنطى فى قصره بحفاوة تليق به(٢)، اجتاز لويس السابع مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، ولما وصل إلى نيقية فى أول نوفمبر سمع بأنباء الكارثة التى حلت بالألمان، فتوجه للإلتقاء بكونراد وبقايا جموعه، واتفق العاهلان على أن يسلكا الطريق الساحلى صوب الجنوب، وفعلا تحرك الجيشان - الفرنسى والألمانى - على هذا الطريق، وظلا على اتصال بالأسطول البيزنطى حتى بلغا إفسوس فى منتصف ديسمبر، وعندئذ سقط كونراد صريع المرض، فارتحل مع حاشيته إلى القسطنطينية حتى يكتمل علاجه، وظل هناك فى رعاية الإمبراطور البيزنطى حتى تماثل للشفاء، ثم نقلهم الأسطول البيزنطى فى مارس سنة ١١٤٨ إلى فلسطين(٣).

وفى أثناء مقام الملك لويس فى إفسوس، تلقى رسالة من الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، يحذره فيها بأن يتجنب قتال السلاجقة الذين احتشدوا للانقضاض على الفرنسيين،

---

(١) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول (القاهرة ١٩٨٥)، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) Berry, op. cit., pp. 487- 490.

(٣) Berry. op. cit., pp. 497-498., Brooke, op. cit., p. 329., Runciman, op. cit., II. pp. 268-271; رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٤٣٤ - ٤٣٦؛ بردج: المرجع السابق، ص ١٥٢ .

وإنزال كارثة بهم كما فعلوا مع الألمان، ونصحه بالتزام الطريق الساحلي؛ وتقدم لويس على رأس قواته التى أنهكتها المسيرة من إفسوس إلى أضاليا، فوصلوها فى ٢٠ يناير سنة ١١٤٨ بعد عناء مرير، وقد أوشكت المؤن على النفاذ[١]. وعند أضاليا أصبح أمام لويس ورجاله طريقان للوصول إلى أنطاكية، إما طريق البحر الذى لا تستغرق الرحلة بواسطته أكثر من ثلاثة أيام، وإما طريق البر بحذاء الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، وهو طريق يستغرق مسيرة أربعين يوما فى مناطق جرداء معرضة لخطر السلاجقة؛ وقد استقر الأمر على اتخاذ الطريق البحرى، خاصة أن البيزنطيين قد وعدوا لويس السابع بتوفير السفن اللازمة لنقل قواته، ولكنهم لم يوفروا إلا عددًا قليلاً استقله لويس وزوجته إليانور وحاشيته وفرسانه، فوصلوا ميناء السويدية فى ٢٥ شوال ٥٤٢هـ (١٩ مارس ١١٤٨)؛ أما بقية الجيش فقد شقت طريقها إلى طرسوس، ومنها إلى أنطاكية، بعد أن هلك جانب كبير من العساكر فى الطريق على أيدى السلاجقة، فى حين مات البعض ضحية الجوع والأوبئة، ووقع البعض الآخر أسيرًا فى أيدى المسلمين[٢].

لقى لويس السابع ترحيبا بالغا من ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية، الذى كان يمت بصلة القرابة إلى إليانور زوجة لويس، كما أن ريموند كان أول من أنفذ رسلا إلى الغرب الأوربى طلبا للمساعدة. وقد حدث نزاع بين القوى الصليبية ببلاد الشام حول الطريقة التى يتم بها الاستفادة من الحملة الصليبية الثانية؛ وبعبارة أخرى كان على تلك الحملة أن تختار أحد الهدفين اللذين وضعهما الصليبيون أمامها، الهدف الأول الذى يؤيده ريموند صاحب أنطاكية والإمارات الصليبية الشمالية، والهدف الآخر الذى يتبناه الصليبيون فى بيت المقدس، وقد تمسك كل من الفريقين بهدفه[٣]. وكان ريموند قد اقترح رأيا جديرًا بالاعتبار، فحواه أن تقوم الحملة الصليبية الثانية بشن هجوم على حلب وشيزر لتخفيف ضغط نور الدين محمود على الإمارات الصليبية فى الشمال، خاصة أن الحملة لم تأت إلى الشرق إلا بهدف استرجاع الرها، الأمر الذى يجعل الصليبيين بشمال الشام

---

(١) William of Tyre, II, pp. 175 - 177; Berry, op., pp. 497 - 498; Scott, op. cit., p. 144.

(٢) Berry, op. cit., pp. 500-503., Grousset, op. cit., p. 196., Brooke, op. cit, p.329, runciman, op. cit., II, pp. 272- 274;

العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٥٨ –٥٥٩؛ رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٤٣٩ –٤٤١ .

(٣) Stevenson, op. cit., p. 159; Berry, op. cit., p. 503; Grousset, L'Epopée., pp. 197-198.

أشد حاجة من غيرهم إلى المساعدة التى تقدمها هذه الحملة، بعد أن انتزع نور الدين عدوهم الأول جزءا كبيرًا من أملاكهم. أما مملكة بيت المقدس فقد رأت الاستعانة بقوات الحملة فى مهاجمة دمشق، مع أن تلك المملكة لم تتعرض لأية أخطار من ناحية جيرانها المسلمين. وينبغي ألا ننسى هنا أن الصليبيين على الرغم من أنهم قاموا بحملة فاشلة على حوران التابعة لدمشق، إلا أن معين الدين أنر صاحب النفوذ الفعلى فى دمشق بقى مسالما لهم، ولو حدث أن اتخذت دمشق هدفا للحملة الصليبية الثانية، فلابد أن يلتمس أنر المساعدة من نور الدين محمود، ومن ثم يتجدد التحالف بين دمشق وحلب، ويزداد تماسكا، كما حدث زمن طغتكين[1]. وأخيرًا، تحت تأثير أمراء وبارونات بيت المقدس انتصر الرأى الذى يدعو إلى مهاجمة معين الدين أنر فى دمشق، وهو الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام[2]. ومما أيد هذا الرأى ورجح كفته أن أصحاب الحملة الصليبية الثانية رأوا فى الهجوم على دمشق فرصة لتحقيق أطماعهم فى البلاد التابعة لها[3]. وفضلا عن هذا، فإن الاستيلاء على دمشق يمنع الاتصال بين المسلمين فى شمال الشام وجنوبه، فى الوقت الذى يعوض الصليبيين ما فقدوه من أملاك فى الشمال على أيدى عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود.

ولم تلبث الجيوش الصليبية أن زحفت على دمشق فى عدد بلغ حوالى خمسين ألف مقاتل، وقصدت الموضع المعروف بمنازل العساكر، وشرعت فى حصار دمشق فى ٥ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ (٢٤ يوليو ١١٤٨)، ولم يشترك فى هذا الحصار قوات أنطاكية وطرابلس[4]. وفى اليومين الأول والثانى من الحصار الذى استمر خمسة أيام، إتخذ الصليبيون موقف الدفاع، فقطعوا الأشجار وصنعوا منها أبراجا ليتحصنوا بها، وانتشروا فى الحدائق والبساتين الواقعة فى الجهة الغربية من المدينة المعروفة باسم الميدان الأخضر، «وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه»، وضاق الأمر على أهل دمشق، وأيقنوا أن مدينتهم

---

(١) William of Tyre, II, PP. 179-180; Stevenson, op. cit., p. 159.

(٢) William of Tyre, II, p. 186; Stevenson, p. 160; Berry, op. cit., p. 505;
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٦١٥ – ٦١٦.

(٣) Newby, Saladin., p. 32.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٣؛ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ ١ ص ١٣٠؛
Stevenson. op. cit., p. 160; Berry, op. cit., p. 507.

على وشك السقوط فى أيدى الصليبيين. غير أن معين الدين أنر لم يقف مكتوف اليدين تجاه الخطر المحدق به، فأخذ يهاجم الصليبيين، وبادر بإرسال الكتب إلى ولاة الأطراف، فضلا عن نور الدين فى حلب وسيف الدين غازى صاحب الموصل، يطلب النجدة، فتوالت عليه الإمدادات لقتال الصليبيين «واستئصال شأفتهم»[١]. وهنا ارتكب الصليبيون خطأ استراتيجيا فادحا، إذ نقلوا معسكرهم إلى الجهة الشرقية من المدينة، وهى منطقة جرداء خالية من المياه والأشجار[٢]. ومن المعروف أن وضع دمشق من الناحية الطبيعية لا ينعم بأية ميزة، فقلعتها هى الوحيدة من نوعها التى لم تشيد على تل، بل شيدت فى أرض سهلية، ويقع النهر خلفها[٣]. وعندئذ ساء موقف الصليبيين بسبب نقص الأقوات وشدة الحرارة وحاجتهم إلى المواد اللازمة لحصار طويل، فى الوقت الذى كان يتهددهم فى كل لحظة خطر وصول القوات الإسلامية التى طلبها أنر لدعم موقفه، ومن ثم لم يجد الصليبيون بدًا من رفع الحصار عن دمشق، والعودة «مخذولين مغلولين»[٤]. ولم يلبث الإمبراطور كونراد الثالث أن أبحر من عكا إلى أوربا فى سبتمبر ١١٤٨، فى حين قرر لويس السابع البقاء فى فلسطين ستة أشهر أخرى، لمشاهدة عيد القيامة بالأراضى المقدسة، ثم ارتحل إلى بلاده فى سنة ١١٤٩م[٥].

وهكذا أخفقت الحملة الصليبية الثانية إخفاقا تاما فى تحقيق أهدافها، ولم يعد ثمة خطر يهدد المسلمين ببلاد الشام، الأمر الذى ترتب عليه ارتفاع روحهم المعنوية، وضعف هيبة الكيان الصليبى ببلاد الشام، بعد أن كان مصدر خوف للمسلمين. ولاشك أن فشل تلك الحملة إنما يرجع أساسًا إلى أن جيوشها كانت خليطا من المحاربين وغير المحاربين، فضلا عن انقسام زعمائها واستحالة التعاون بينهم، وتنازع المصالح والأغراض بينهم، وجهلهم بطبيعة البلاد التى أغاروا عليها، فى الوقت الذى شهدت بلاد الشام قوة المسلمين المتنامية[٦].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٣ – ٤٦٥؛ الكامل، جـ ٩ ص ٢٠ –٢١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١١٢؛ Stevenson, op. cit., p. 16; Berry, op. cit., pp. 508-509.

(٢) Berry, op. cit., p. 509.

(٣) William of Tyre, II, pp. 192-193; Newby, Saladin, p. 32.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٥ – ٤٦٦ .

(٥) William of Tyre, II, pp. 195- 196;Stevenson, op. cit., p. 163.

(٦) Berry, op. cit., p. 512; Scott, op. cit.,pp.143-144.

وترتب على الوضع الذى هيأه فشل الحملة الصليبية الثانية، أن وجه نور الدين محمود جهوده للهجوم على ممتلكات الصليبيين وبخاصة أنطاكية، فأنزل الهزيمة بأميرها ريموند دى بواتييه فى المكان المعروف باسم يغرَى فى شمال أنطاكية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩)، ووقع فى يده كثيرًا من الغنائم والأسرى، أرسل منها إلى أخيه سيف الدين غازى بالموصل، وإلى الخليفة العباسى ببغداد، وإلى السلطان مسعود السلجوقى[١]. ثم توجه نور الدين على رأس قواته إلى قلعة إنّب الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصى، وفرض عليها الحصار، وفى المعركة التى دارت بينه وبين الصليبيين اشتد القتال، وانهزم الصليبيون هزيمة ماحقة فى ١٧ صفر سنة ٥٤٤ هـ (٢٩ يونيو ١١٤٩)، أسفرت عن مصرع الكثير من الصليبيين، وسقط ريموند دى بواتييه قتيلا، وقد أفاضت المصادر الإسلامية فى ابتهاج المسلمين بمقتله، لأنه «كان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم»، وحملت رأسه إلى نور الدين، «فوصل حامله بأحسن صلة»[٢].

ورأى نور الدين أن يستغل فرصة الفوضى التى سادت إمارة أنطاكية عقب مقتل صاحبها ريموند، ليستولى على ما تبقى لتلك الإمارة من معاقل وحصون شرقى نهر العاصى. ومن أهم الأماكن التى استولى عليها هناك حصن أفامية، الذى وصفه ابن الأثير[٣] بأنه «مجاور شيزر وحماه على تل عال، من أحصن القلاع وأمنعها». وقد زحف عليه نور الدين وضيق الخناق على أهله الصليبيين، إلى أن استولى عليه فى ١٨ ربيع الأول ٥٤٤ هـ (٢٦ يوليو ١١٤٩). وقد حاول الملك الصليبى بلدوين الثالث إنقاذ هذا الحصن من السقوط فى قبضة المسلمين، ولكنه وصل فى جيش صغير بعد أن تمكن منه نور الدين، «وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج إليه». ولاشك أن تلك الانتصارات الرائعة التى أحرزها نور الدين ضد الصليبيين فى المرحلة المبكرة من حياته، تعتبر نقطة تحول هامة فى إدراكه لرسالته، وفى تاريخ المسلمين ببلاد الشام، فقد أضحى نور الدين فى نظر المسلمين بطل الإسلام والمدافع عن حوزته[٤].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ٢٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١١٤ – ١١٥؛ Stevenson, op. cit., p. 165.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٧٣ – ٤٧٤؛ الكامل، جـ ٩ ص ٢٥؛ التاريخ الباهر، ص ٩٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٠ – ١٣١؛ تاريخ آل سلجوق، ص ٢٠٧؛

Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I.", pp. 532-533.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٢٧ – ٢٨؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٠.

(٤) Gibb, "The Career of Nur-ad-Din.", p. 515.

تصفية بقايا إمارة الرها:

وفى الوقت الذى فشلت فيه الحملة الصليبية الثانية، كان جوسلين الثانى كونت الرها بعد سقوط الرها فى أيدى المسلمين، لا يزال يقيم فى المواضع الواقعة غربى الفرات، متخذًا من تل باشر قاعدة يشرف منها على بقية البلاد التابعة لإمارته، وهى سميساط وقلعة الروم ودلوك والراوندان وخورس، فأصبح بذلك يجاور إمارة أنطاكية فى الشمال عند مرعش، وفى الجنوب عند عزاز[١].

وفى شتاء سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩) جمع نور الدين عساكره، واتجه إلى شمال حلب لمنازلة جوسلين الثانى كونت الرها وانتزاع بعض القلاع منه، ومنها تل باشر وعين تاب وعزاز، فلما علم جوسلين بذلك التقى مع نور الدين وقواته فى معركة انتهت بهزيمة نور الدين[٢]. على أنه من حسن حظ نور الدين أن وقع فى يده جوسلين الثانى، الذى وصفه المؤرخون المسلمون بأنه كان «أشد الفرنج شجاعة، وأقواهم بأسا، وأصحهم رأيا، وأعظم مكيدة»[٣]، وإن كان إلى جانب ذلك فاسدًا منحل الخلق، ميالا إلى الترف والدعة. وكان جوسلين الثانى قد خرج فى جماعة من فرسانه فى رحلة صيد، وفى الطريق انقض عليه بعض التركمان فى كمين نصبوه له، وأخذوه أسيرًا فى ٥ محرم سنة ٥٤٥ هـ (٤ مايو ١١٥٠)، ولما بلغ الخبر نور الدين أرسل من تسلمه منهم، وأمر بحبسه بحلب بعد سمل عينيه، حيث مات بعد تسع سنين فى سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩م). وقد أبدى المسلمون المعاصرون فرحتهم بأسر جوسلين الثانى، واعتبروا «أسره من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطانا عاتيا شديدًا على المسلمين، قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره»[٤].

وبوقوع جوسلين الثانى فى الأسر، خلت بقية إمارة الرها من مدافعيها، ولم تجد من يلم شعثها، فانتهز الفرصة مسعود سلطان سلاجقة الروم (سلطان قونية)، وقام بغزو البلاد التابعة للرها، واستولى فى صفر سنة ٥٤٥ هـ (مايو ١١٥٠) على كيسوم وبهسنا ورعبان؛

---

(١) الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ٥٧٩؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٦٢٤

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ٢٩؛ التاريخ الباهر، ص ١٠١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣؛

Baldwin, op. cit., p. 533.

(٣) مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ٢٩؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣ - ١٢٤.

ومن ناحية أخرى، استطاع حليفه وزوج ابنته نور الدين محمود أن يستولى على قلعة عزاز التى كانت تابعة لأنطاكية فى ١٨ ربيع الأول ٥٤٥ هـ (١٥ يوليو ١١٥٠)[١].

وعندما وصلت الأمور فى أنطاكية وما تبقى من إمارة الرها إلى مرحلة بالغة الانهيار والتدنى، رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الصليبى أن يسرع إلى الشمال لإنقاذ الموقف هناك، وصحبه همفرى صاحب تورون وجاى صاحب بيروت. وفى أثناء وجود بلدوين الثالث فى أنطاكية، بعث الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين رسالة إلى بياتريس Beatrice زوجة جوسلين الثانى والوصية على ما تبقى من إمارة الرها، يعرض عليها شراء البلاد والقلاع التى فى حوزتها، وهى تل باشر وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعين تاب والراوندان وغيرها، بيد أن بياتريس رأت أنه لابد لها أن تعرض الأمر على الملك بلدوين، فوافق رغم معارضة بعض أمرائه وباروناته، وتمت الصفقة فعلا فى سنة ١١٥٠م، واحتفظت بياتريس بقلعة الروم لحصانتها، على أمل أن تقضى فيها بقية أيامها فى سلام[٢].

على أن بياتريس لم تهنأ طويلا بقلعة الروم، إذ أحست أنها لا تستطيع الاحتفاظ بها طويلا، فتنازلت عنها لأحد أتباعها من الأرمن، ورحلت إلى أنطاكية يصحبها من بقى من الفرسان. وكذلك لم يستطع الإمبراطور البيزنطى الاحتفاظ بالبلاد التى اشتراها إلا عامًا واحدًا، إذ اتفق تمرتاش صاحب ماردين ومسعود سلطان قونية ونور الدين محمود على اقتسامها، فأخذ الأول سميساط والبيرة، وأخذ الثانى عين تاب ودلوك، وأخذ الثالث - نور الدين محمود - راوندان، ثم لم يلبث أن أضاف إليها تل باشر فى جمادى الأولى سنة ٥٤٥ هـ (يوليو ١١٥١)[٣]. وبذلك تلاشت إمارة الرها الصليبية، وعادت جميع أراضيها إلى السيادة الإسلامية، الأمر الذى هيأ لنور الدين محمود فرصة للتدخل فى أمور دمشق، والعمل على ضمها إلى الجبهة الإسلامية فى الشام.

---

(١) Stevenson, op. cit., pp. 167-168; Baldwin, op. cit., p. 533;
الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٥٧٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٦٢٤.

(٢) Baldwin, op. cit., pp. 533-534; Stevenson, op. cit., p. 168; Runciman, op., cit., II, pp.328- 329;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٥٢٩-٥٣٠؛ حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٢٢٦-٢٣٧.

(٣) Stevenson, op. cit., pp. 168- 169; Runciman, op. cit., II, p. 330;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٥٣١ - ٥٣٢؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

على وشك السقوط فى أيدى الصليبيين. غير أن معين الدين أنر لم يقف مكتوف اليدين تجاه الخطر المحدق به، فأخذ يهاجم الصليبيين، وبادر بإرسال الكتب إلى ولاة الأطراف، فضلا عن نور الدين فى حلب وسيف الدين غازى صاحب الموصل، يطلب النجدة، فتوالت عليه الإمدادات لقتال الصليبيين «واستئصال شأفتهم»[١]. وهنا ارتكب الصليبيون خطأ استراتيجيا فادحا، إذ نقلوا معسكرهم إلى الجهة الشرقية من المدينة، وهى منطقة جرداء خالية من المياه والأشجار[٢]. ومن المعروف أن وضع دمشق من الناحية الطبيعية لا ينعم بأية ميزة، فقلعتها هى الوحيدة من نوعها التى لم تشيد على تل، بل شيدت فى أرض سهلية، ويقع النهر خلفها[٣]. وعندئذ ساء موقف الصليبيين بسبب نقص الأقوات وشدة الحرارة وحاجتهم إلى المواد اللازمة لحصار طويل، فى الوقت الذى كان يتهددهم فى كل لحظة خطر وصول القوات الإسلامية التى طلبها أنر لدعم موقفه، ومن ثم لم يجد الصليبيون بدًا من رفع الحصار عن دمشق، والعودة «مخذولين مغلولين»[٤]. ولم يلبث الإمبراطور كونراد الثالث أن أبحر من عكا إلى أوربا فى سبتمبر ١١٤٨، فى حين قرر لويس السابع البقاء فى فلسطين ستة أشهر أخرى، لمشاهدة عيد القيامة بالأراضى المقدسة، ثم ارتحل إلى بلاده فى سنة ١١٤٩م[٥].

وهكذا أخفقت الحملة الصليبية الثانية إخفاقا تاما فى تحقيق أهدافها، ولم يعد ثمة خطر يهدد المسلمين ببلاد الشام، الأمر الذى ترتب عليه ارتفاع روحهم المعنوية، وضعف هيبة الكيان الصليبى ببلاد الشام، بعد أن كان مصدر خوف للمسلمين. ولاشك أن فشل تلك الحملة إنما يرجع أساسًا إلى أن جيوشها كانت خليطا من المحاربين وغير المحاربين، فضلا عن انقسام زعمائها واستحالة التعاون بينهم، وتنازع المصالح والأغراض بينهم، وجهلهم بطبيعة البلاد التى أغاروا عليها، فى الوقت الذى شهدت بلاد الشام قوة المسلمين المتنامية[٦].

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٣ - ٤٦٥؛ الكامل، جـ ٩ ص ٢٠ - ٢١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١١٢؛ Stevenson, op. cit., p. 16; Berry, op. cit., pp. 508-509.

(٢) Berry, op. cit., p. 509.

(٣) William of Tyre, II, pp. 192-193; Newby, Saladin, p. 32.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٥) William of Tyre, II, pp. 195- 196;Stevenson, op. cit., p. 163.

(٦) Berry, op. cit., p. 512; Scott, op. cit.,pp.143-144.

وترتب على الوضع الذى هيأه فشل الحملة الصليبية الثانية، أن وجه نور الدين محمود جهوده للهجوم على ممتلكات الصليبيين وبخاصة أنطاكية، فأنزل الهزيمة بأميرها ريموند دى بواتييه فى المكان المعروف باسم يغرَى فى شمال أنطاكية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩)، ووقع فى يده كثيرًا من الغنائم والأسرى، أرسل منها إلى أخيه سيف الدين غازى بالموصل، وإلى الخليفة العباسى ببغداد، وإلى السلطان مسعود السلجوقى[١]. ثم توجه نور الدين على رأس قواته إلى قلعة إنّب الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصى، وفرض عليها الحصار، وفى المعركة التى دارت بينه وبين الصليبيين اشتد القتال، وانهزم الصليبيون هزيمة ماحقة فى ١٧ صفر سنة ٥٤٤ هـ (٢٩ يونيو ١١٤٩)، أسفرت عن مصرع الكثير من الصليبيين، وسقط ريموند دى بواتييه قتيلا، وقد أفاضت المصادر الإسلامية فى ابتهاج المسلمين بمقتله، لأنه «كان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم»، وحملت رأسه إلى نور الدين، «فوصل حامله بأحسن صلة»[٢].

ورأى نور الدين أن يستغل فرصة الفوضى التى سادت إمارة أنطاكية عقب مقتل صاحبها ريموند، ليستولى على ما تبقى لتلك الإمارة من معاقل وحصون شرقى نهر العاصى. ومن أهم الأماكن التى استولى عليها هناك حصن أفامية، الذى وصفه ابن الأثير[٣] بأنه «مجاور شيزر وحماه على تل عال، من أحصن القلاع وأمنعها». وقد زحف عليه نور الدين وضيق الخناق على أهله الصليبيين، إلى أن استولى عليه فى ١٨ ربيع الأول ٥٤٤ هـ (٢٦ يوليو ١١٤٩). وقد حاول الملك الصليبى بلدوين الثالث إنقاذ هذا الحصن من السقوط فى قبضة المسلمين، ولكنه وصل فى جيش صغير بعد أن تمكن منه نور الدين، «وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج إليه». ولاشك أن تلك الانتصارات الرائعة التى أحرزها نور الدين ضد الصليبيين فى المرحلة المبكرة من حياته، تعتبر نقطة تحول هامة فى إدراكه لرسالته، وفى تاريخ المسلمين ببلاد الشام، فقد أضحى نور الدين فى نظر المسلمين بطل الإسلام والمدافع عن حوزته[٤].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ٢٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١١٤ – ١١١٥؛ Stevenson, op. cit., p. 165.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٧٣ – ٤٧٤؛ الكامل، جـ ٩ ص ٢٥؛ التاريخ الباهر، ص ٩٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٠ – ١٣١؛ تاريخ آل سلجوق، ص ٢٠٧؛

Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I.", pp. 532-533.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٢٧ – ٢٨؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٠.

(٤) Gibb, "The Career of Nur-ad-Din.", p. 515.

تصفية بقايا إمارة الرها:

وفى الوقت الذى فشلت فيه الحملة الصليبية الثانية، كان جوسلين الثانى كونت الرها بعد سقوط الرها فى أيدى المسلمين، لا يزال يقيم فى المواضع الواقعة غربى الفرات، متخذًا من تل باشر قاعدة يشرف منها على بقية البلاد التابعة لإمارته، وهى سميساط وقلعة الروم ودلوك والراوندان وخورس، فأصبح بذلك يجاور إمارة أنطاكية فى الشمال عند مرعش، وفى الجنوب عند عزاز[١].

وفى شتاء سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩) جمع نور الدين عساكره، واتجه إلى شمال حلب لمنازلة جوسلين الثانى كونت الرها وانتزاع بعض القلاع منه، ومنها تل باشر وعين تاب وعزاز، فلما علم جوسلين بذلك التقى مع نور الدين وقواته فى معركة انتهت بهزيمة نور الدين[٢]. على أنه من حسن حظ نور الدين أن وقع فى يده جوسلين الثانى، الذى وصفه المؤرخون المسلمون بأنه كان «أشد الفرنج شجاعة، وأقواهم بأسا، وأصحهم رأيا، وأعظم مكيدة»[٣]، وإن كان إلى جانب ذلك فاسدًا منحل الخلق، ميالا إلى الترف والدعة. وكان جوسلين الثانى قد خرج فى جماعة من فرسانه فى رحلة صيد، وفى الطريق انقض عليه بعض التركمان فى كمين نصبوه له، وأخذوه أسيرًا فى ٥ محرم سنة ٥٤٥ هـ (٤ مايو ١١٥٠)، ولما بلغ الخبر نور الدين أرسل من تسلمه منهم، وأمر بحبسه بحلب بعد سمل عينيه، حيث مات بعد تسع سنين فى سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩م). وقد أبدى المسلمون المعاصرون فرحتهم بأسر جوسلين الثانى، واعتبروا «أسره من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطانا عاتيا شديدًا على المسلمين، قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره»[٤].

وبوقوع جوسلين الثانى فى الأسر، خلت بقية إمارة الرها من مدافعيها، ولم تجد من يلم شعثها، فانتهز الفرصة مسعود سلطان سلاجقة الروم (سلطان قونية)، وقام بغزو البلاد التابعة للرها، واستولى فى صفر سنة ٥٤٥ هـ (مايو ١١٥٠) على كيسوم وبهسنا ورعبان؛

---

(١) الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ٥٧٩؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٦٢٤

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ٢٩؛ التاريخ الباهر، ص ١٠١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣؛
Baldwin, op. cit., p. 533.

(٣) مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ٢٩؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣ – ١٢٤.

ومن ناحية أخرى، استطاع حليفه وزوج ابنته نور الدين محمود أن يستولى على قلعة عزاز التى كانت تابعة لأنطاكية فى ١٨ ربيع الأول ٥٤٥ هـ (١٥ يوليو ١١٥٠)[١]

وعندما وصلت الأمور فى أنطاكية وما تبقى من إمارة الرها إلى مرحلة بالغة الانهيار والتدنى، رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الصليبى أن يسرع إلى الشمال لإنقاذ الموقف هناك، وصحبه همفرى صاحب تورون وجاى صاحب بيروت. وفى أثناء وجود بلدوين الثالث فى أنطاكية، بعث الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين رسالة إلى بياتريس Beatrice زوجة جوسلين الثانى والوصية على ما تبقى من إمارة الرها، يعرض عليها شراء البلاد والقلاع التى فى حوزتها، وهى تل باشر وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعين تاب والراوندان وغيرها، بيد أن بياتريس رأت أنه لابد لها أن تعرض الأمر على الملك بلدوين، فوافق رغم معارضة بعض أمرائه وباروناته، وتمت الصفقة فعلا فى سنة ١١٥٠م، واحتفظت بياتريس بقلعة الروم لحصانتها، على أمل أن تقضى فيها بقية أيامها فى سلام[٢].

على أن بياتريس لم تهنأ طويلا بقلعة الروم، إذ أحست أنها لا تستطيع الاحتفاظ بها طويلا، فتنازلت عنها لأحد أتباعها من الأرمن، ورحلت إلى أنطاكية يصحبها من بقى من الفرسان. وكذلك لم يستطع الإمبراطور البيزنطى الاحتفاظ بالبلاد التى اشتراها إلا عامًا واحدًا، إذ اتفق تمرتاش صاحب ماردين ومسعود سلطان قونية ونور الدين محمود على اقتسامها، فأخذ الأول سميساط والبيرة، وأخذ الثانى عين تاب ودلوك، وأخذ الثالث – نور الدين محمود – راوندان، ثم لم يلبث أن أضاف إليها تل باشر فى جمادى الأولى سنة ٥٤٥ هـ (يوليو ١١٥١)[٣]. وبذلك تلاشت إمارة الرها الصليبية، وعادت جميع أراضيها إلى السيادة الإسلامية، الأمر الذى هيأ لنور الدين محمود فرصة للتدخل فى أمور دمشق، والعمل على ضمها إلى الجبهة الإسلامية فى الشام.

(١) Stevenson, op. cit., pp. 167-168; Baldwin, op. cit., p. 533;
الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٥٧٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٦٢٤.

(٢) Baldwin, op. cit., pp. 533-534; Stevenson, op. cit., p. 168; Runciman, op., cit., II, pp.328- 329;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٥٢٩–٥٣٠؛ حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٢٢٦–٢٣١.

(٣) Stevenson, op. cit., pp. 168- 169; Runciman, op. cit., II, p. 330;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٥٣١ – ٥٣٢؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

الوحدة بين حلب ودمشق :

رأى نور الدين محمود أنه لابد من ضم دمشق إلى حلب، حتى يزيح العقبة الكأداء التى تعترض توحيد الجبهة الإسلامية ببلاد الشام، هذا فى الوقت الذى كان يدرك تماما أنه من الصعب عليه مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، طالما بقيت دمشق فى أيدى حكام لاهم لهم إلا الحرص على مصالحهم الخاصة، وقد دفعهم التمسك بتلك المصالح إلى التفريط فى مصالح المسلمين، فتحالفوا مع القوى الصليبية المجاورة واستمدوا منها العون ضد نور الدين. وقد سبق لنا الإشارة إلى أن مملكة بيت المقدس الصليبية قد هدمت التحالف القائم بينها وبين دمشق، بمشاركتها فى الحملة الصليبية الثانية فى حصار دمشق، ومع ذلك فالذى يسترعى الانتباه أن حكام دمشق لم يستفيدوا من هذا الدرس، بل تغافلوا عما حدث لهم على أيدى حلفائهم الصليبيين. ووصل الأمر بمعين الدين أنر صاحب السيادة الفعلية فى دمشق بعد أن زال خطر الحملة الصليبية الثانية عنه، أن سعى إلى تجديد التحالف مع مملكة بيت المقدس فى المحرم سنة ٥٤٤ هـ (مايو ١١٤٩) لمدة سنتين، وبذلك لم يعد ثمة ما تخشاه مملكة بيت المقدس، وعادت الأمور فيها إلى حالتها الطبيعية[١].

وشاءت الأحوال أن تتغير فى مدينة دمشق، ففى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٤٤هـ (٢٨ أغسطس ١١٤٩) توفى معين الدين أنر، بعد عمر طويل قضاه فى معارضة قيام الوحدة الإسلامية ببلاد الشام، وولى أمر حكومة دمشق الأتابك مجير الدين أبق حفيد تاج الملك بورى، وهو الذى كان أنر يحكم دمشق باسمه. والواقع أن البيت البورى الذى استقل بحكم دمشق، قد تعرض لتدهور شديد بعد وفاة أنر، فقد اشتهر مجير الدين أبق بالقسوة والعنف، والميل إلى المباذل، فضلا عن سياسته التى اتصفت بقصر النظر، ولم يظهر على حقيقته إلا بعد وفاة أنر، فأسهم بذلك فى انهيار البيت البورى[٢]. ويشير ابن الأثير[٣] إلى الأوضاع السيئة التى انحدرت إليها دمشق، بعد أن انفرد مجير الدين أبق بحكمها، وجعلت نور الدين يفكر فى السيطرة عليها، قائلا: «فلما ملك الفرنج عسقلان

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٧١ - ٤٧٢؛ Stevenson, op. cit., p. 164.

(٢) الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٤٤٥؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٦؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٦؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ١٥٢.

(٥٤٩هـ/١١٥٣م) طمعوا فى دمشق، حتى أنهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى، فمن أراد المقام بها تركوه، ومن أراد العودة إلى وطنه أخذوه قهرًا شاء صاحبه أم أبى، وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة (جزية) يأخذونها منهم، فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم، فلما رأى نور الدين ذلك، خاف أن يملكها الفرنج، فلا يبقى للمسلمين بالشام مقام».

وعلى كل حال، فبينما كان نور الدين يستعد للتدخل فى أحوال دمشق، بلغه موت أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (سبتمبر ١١٤٩)، وما تبع ذلك من قيام قطب الدين مودود، وهو الإبن الثالث لعماد الدين زنكى وكان مقيما مع أخيه سيف الدين، بوضع يده على الموصل. عند ذلك سار نور الدين نحو الموصل على رأس قوة صغيرة بلغت سبعين فارسا، من بينهم أسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى سنجار استولى عليها، وأوشك القتال أن يندلع بين الأخوين – نور الدين وقطب الدين –، لولا أن جمال الدين الأصفهانى وزير الموصل سعى إلى الصلح بينهما، واستقر الأمر على أن تكون الموصل وديار الجزيرة فيما عدا سنجار لقطب الدين، على أن يخطب فى بلاده لنور الدين؛ وما لبث أن تخلى نور الدين عن سنجار لأخيه قطب الدين، مقابل حصوله على حمص والرحبة بأرض الشام، فبقى الشام لنور الدين، وبذلك عاد الوفاق إلى الأخوين، واتفقت كلمتهما، «فكان كل واحد لا يصدر إلا عن أمر أخيه»[١].

ولما استقرت الأمور بالموصل، رجع نور الدين إلى الشام، واتجه بكل قواه ليفرغ من مسألة دمشق، وتهيأت له الفرصة عندما أوغلت قوات مملكة بيت المقدس الصليبية فى أرض حوران فى عام ٥٤٤ هـ (١١٤٩م)، فعزم نور الدين على منازلة الصليبيين، «وكتب إلى من فى دمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعى منهم المعونة على ذلك بألف فارس، تصل إليه مع مقدم يعول عليه». فرد عليه مجير الدين أبق ورجاله ردًا سيئا، لأنهم «عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يدًا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين»[٢]. ونتيجة لذلك اتجه نور الدين إلى دمشق، ونزل بعساكره خارجها فى المكان المعروف

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٤؛ التاريخ الباهر، ص ٩٥–٩٦؛ حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٢٣٩–٢٤٠؛ Gibb, "The Career of Nur-ad-Din.", p. 516.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٧٨.

بمرج يبوس، فما كان من أصحاب دمشق إلا أن أرسلوا إلى بلدوين الثالث طالبين منه سرعة الحضور لإنقاذ دمشق من الخطر الذى يحيط بها. ولما علم نور الدين بذلك، انتقل بقواته إلى الموضع المعروف باسم منازل العساكر الواقع على بعد أربعة أميال جنوبى دمشق فى ذى الحجة سنة ٥٤٤ هـ (أبريل ١١٥٠)، ومن هناك كتب إلى مجير الدين وأصحابه قائلا: «إننى ما قصدت بنزولى هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان، بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتتت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعنى مع ما أعطانى الله، ولله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين، وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، ولا يحل لى القعود عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتى، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم، وهذا ما لا يرضى الله تعالى، ولا أحد من المسلمين»؛ على أن مجير الدين رد على نور الدين ردًا عنيفا قاسيا، فقد قال: «ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الأفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا، ونزلت علينا»[1].

على أن نور الدين لم يلبث أن انصرف عن قتال دمشق، وانسحب بقواته من أمام أسوارها، لأنه «أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها»، هذا بالإضافة إلى أن مجيرالدين أبق عرض عليه فى مستهل المحرم سنة ٥٤٥ هـ (٣٠ أبريل ١١٥٠) أن يدخل فى طاعته، شريطة أن يظل فى حكم دمشق، ويقيم له الخطبة على منابرها بعد الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى، ويضرب السكة باسمه، فوافق نور الدين على ذلك وارتحل عائدًا إلى حلب[2].

وفى شهر المحرم سنة ٥٤٦ هـ (أبريل ١١٥١) زحف نور الدين على دمشق من جديد للقضاء على البيت البورى المتحالف مع الصليبيين، ونزل بقواته على ربض عذراء القرية من دمشق، فاغتنم الفرصة جماعة من المفسدين، وقاموا بإتلاف مزروعات دمشق، وأفنوا ثمارها، وأضروا بأصحابها ضررًا بالغا، فارتفعت الأسعار، وانقطع الطريق من المارة،

(١) نفس المصدر، ص ٤٧٨ — ٤٨٠ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨٠

واضطربت الأمور، فأرسل نور الدين رسله إلى ولاة الأمور بدمشق يخبرهم بقوله: «أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من فى أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معى فى عسكر دمشق، وتعاضدنا على الجهاد، وجرى الأمر على الوفاق والسداد، فذلك غاية الإيثار والمراد»، ولكنهم أغلقوا آذانهم عن هذا النداء، وردوا عليه بما لا يوافق رغبته. فما كان من نور الدين إلا أن زحف على دمشق، وصار أقرب ما يكون إلى أسوارها، ولكنه لم يشن هجوما عليها حقنا لدماء المسلمين مثلما فعل من قبل، ولما كان يأمله فى الحصول عليها دون قتال؛ على أنه لم يلبث أن ارتحل إلى داريا عندما تناهى إلى أسماعه قرب وصول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس[1]. وكان الملك الصليبى قد خرج بقواته لمساندة حلفائه حكام دمشق، ووصل إلى أسوار المدينة فى ٣ ربيع الأول (٢٠ يونيو ١١٥١م)، وسمح لهم مجير الدين بدخول البلد لقضاء حوائجهم، ولم يكتف بذلك، بل خرج إليهم ومعه عدد وافر من أهل دمشق، وفى اللقاء الذى جرى بين الحليفين مجير الدين وبلدوين، اتفقا على النزول بقواتهما على حصن بصرى والاستيلاء عليه. غير أن الصليبيين والدماشقة لم يتمكنوا من الاستيلاء على هذا الحصن، لأن نور الدين كان قد أسرع بالخروج على رأس جيش ضخم لنجدة صاحب الحصن، وبذلك لم يتهيأ للصليبيين والدماشقة ما أرادوه[2].

ولم يكد الصليبيون يرجعون إلى بيت المقدس، حتى قرر نور الدين محمود الزحف على دمشق لمهاجمتها وامتلاكها، ولكنه لم يلبث أن أوقف الزحف بعد أن اقترب منها بقواته، تحرجا من قتل المسلمين، وأشار إلى أنه «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا، وأنا أدخرهم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين». ومن هذا المنطلق، دارت المفاوضات لعقد الصلح بينه وبين الدماشقة فى ربيع الآخر سنة ٥٤٦ هـ (يوليو ١١٥١)، واشترك فى المفاوضات أسد الدين شيركوه نيابة عن نور الدين، وأخوه نجم الدين أيوب نيابة عن مجير الدين، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية الصلح بين الجانبين، وارتحل نور الدين عائدا إلى حلب. وتأكيدًا لاتفاقية الصلح، قام مجير الدين بزيارة ودية إلى حلب فى ١٢ رجب ٥٤٦ هـ (٢٥ أكتوبر ١١٥١)، فرحب به نور الدين وأكرمه، «وبالغ فى

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٨٤ – ٤٨٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٨٧ – ٤٨٨.

الفعل الجميل فى حقه، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه، بعد أن بذل له الطاعة، وحسن النيابة فى دمشق»[1]. ومع ذلك لم يكن نور الدين راضيا عن سياسة الدماشقة، الذين كانوا ولا زالوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين باتفاقية التحالف التى عقدوها مع مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

وإذا كان نور الدين محمود لم يلجأ إلى استخدام القوة لضم دمشق إلى نفوذه، حرصا منه على دماء المسلمين، «لأن صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم، لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم»، ففى هذه المرة سعى نور الدين إلى أعمال الحيلة فى أخذها، وليحقق ذلك راسل مجير الدين أبق، وأظهر له المودة، وواصله بالهدايا حتى وثق به، ولم يكتف نور الدين باتباع هذا الأسلوب، بل حرص على الإيقاع بين مجير الدين وكبار رجال دولته، فكان يبعث إليه برسائل بين حين وآخر، يخبره أنه تلقى عروضا من بعض أمراء دمشق للتدخل ضده، ولكنه رفض ذلك حرصًا على المودة التى يكنها له؛ ونتيجة لذلك أخذ مجير الدين يتشكك فيمن حوله، فصادر أملاكهم وقتل بعضهم، واستولى على إقطاعهم، ولم يبق عنده أحد من أنصاره إلا عطاء بن حفاظ السلمى الخادم، الذى كان يدرك تماما نوايا نور الدين وخططه، ولذلك سعى نور الدين للإيقاع بين مجير الدين والسلمى، «فقبض عليه مجير الدين وقتله»[3]. حدث ذلك فى الوقت الذى منع نور الدين وصول القوافل المحملة بالغلال إلى دمشق من ناحية الشمال، فأضر ذلك أسوأ الضرر بأهلها الضعفاء والمساكين، ففى شهر ذى القعدة عام ٥٤٨ هـ (يناير ١١٥٤) أرتفعت أسعار الحنطة وشحت المؤن، فوقعت دمشق فى مجاعة قاسية، وفى ذلك يقول ابن القلانسى[4]: «وخلا من البلد الخلق الكثير، ولقوا من البؤس والشدة والضعف ما أوجب جماعة وافرة فى الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات».

ولما أيقن نور الدين من نجاح خطته، وأنه لن يواجه مقاومة فى داخل دمشق، راسل أهلها، فوعدوه بتسليم البلد إليه. وعندئذ أنفذ نور الدين قائده أسد الدين شيركوه فى

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨٩ – ٤٩١؛ Gibb, op. cit., p. 518.
(٢) Gibb, op. cit., p. 518.
(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٤٤٥؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٦ – ١٢٧؛ إبن خلدون: العبر، المجلد الخامس، ص ٣٣٩ – ٣٤٠.
(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠٢.

١٣ محرم سنة ٥٤٩ هـ (نهاية مارس ١١٥٤) فى ألف فارس إلى دمشق للتفاوض مع مجير الدين أبق، ولكن الأخير لم يحفل به، ولم يخرج للقائه أحد من أعيان الدولة، فاعتبر نور الدين هذا التصرف إهانة موجهة لشخصه، وزحف بقواته على دمشق فى ٢ صفر من نفس العام (١٨ أبريل ١١٥٤م)[١]. ولم يجد مجير الدين بعد أن صار وحيدًا، بدًا من الاتصال بحلفائه الصليبيين فى بيت المقدس، يطلب منهم المساعدة لقاء تسليمهم قلعة بعلبك، بيد أن نور الدين سبق الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق، فدخلها من الباب الشرقى يوم ٢٥ أبريل. أما مجير الدين فقد احتمى بقلعة دمشق، وما لبث أن استسلم لنور الدين بعد أن بذل له إقطاعا فى حمص وتوابعها، ولكنه لم يمكث فى حمص طويلا، إذ عز له نور الدين عنها لقربها من ممتلكات الصليبيين، «وأعطاه عوضًا عنها بالس[٢] فلم يرضها، وسار منها إلى العراق وأقام ببغداد» إلى أن مات بها[٣]. ومما يجدر ذكره أن أسد الدين شيركوه لعب دورًا هاما فى استيلاء نور الدين على دمشق، فقد راسل شيركوه أخاه نجم الدين أيوب أثناء إقامته بها، طالبا منه المساعدة على فتحها، فأجابه إلى ذلك، الأمر الذى أدى إلى ازدياد علو مكانة الأخوين عند نور الدين، وبلغ من تقدير الأخير لنجم الدين أن «جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه، قعد من غير أن يؤمر بذلك»[٤].

وبسقوط دمشق فى أيدى نور الدين، قامت لأول مرة فى بلاد الشام منذ أن وطئها الصليبيون بأقدامهم، دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق؛ وقد أفزع هذا الصليبيون، وكتب المؤرخ وليم الصورى[٥] قائلا: «كان هذا التغيير بمثابة كارثة أودت بمصالح المملكة، فبدلاً من وجود رجل ضعيف (مجير الدين أبق) جعله ضعفه عديم الضرر للمسيحيين، وهذا الرجل الذى كان حتى ذلك الوقت يدفع لهم جزية سنوية، قد حل محله عدو قوى

---

(١) البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، بينها وبين الفرات أربعة أميال (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٤٤٦؛ التاريخ الباهر، ص ١٠٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٧؛ العبر، المجلد الخامس، ص ٣٤٠ .

(٤) الروضتين، جـ ١ ص ١١٨؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٤٦؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ١٨٧ .

(٥) William of Tyre, II, p. 224;

عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٥٤ .

خطير (نور الدين محمود)». والواقع أنه بضم دمشق إلى حوزة نور الدين، تحقق جانب كبير من أهدافه الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وفوق هذا صار بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب، فقد انهار الحاجز المنيع الذى كان يفصل حلب عن بيت المقدس؛ وبعبارة أخرى أضحت بيت المقدس فى متناول يده[١].

ومهما يكن من أمر، فبعد أن استحوز نور الدين على دمشق، أعاد تنظيم دفاعاتها واستحكاماتها، كما بدأ فى تطبيق برنامجه الدينى، فأحيا المذهب السنى فى دمشق، وبنى المدارس والخوانق والاربطة، وقرب إليه العلماء. ويرجع الفضل أيضا إلى نور الدين فى أنه شيد مؤسستان عظيمتان، أحدهما وهو المارستان (المستشفى) الذى يعتبر من أهم المنشئات التى شهدتها العصور الوسطى، والأخرى وهى دار العدل على شاكلة تلك التى أقامها بحلب، حيث كان يرأسها مرتين فى الأسبوع طيلة إقامته بدمشق، ليستمع إلى شكاوى الأهالى، ولاسيما تلك التى توجه ضد كبار ضباط الجيش وموظفى الإدارة وأصحاب الإقطاعيات، الأمر الذى جعل الخليفة العباسى يلقبه فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤) بالملك العادل[٢].

نور الدين والصليبيون بعد توحيد حلب ودمشق :

بدأت المتاعب تطل على الدولة المتحدة الفتية التى أسسها نور الدين بالشام. ففى شعبان سنة ٥٥١هـ (سبتمبر ١١٥٦)، شهد الجزء الشمالى من ممتلكاته سلسلة من الزلازل العنيفة، أدت إلى تدمير المدن والدفاعات والاستحكامات والأسوار والقلاع، فجمع نور الدين عساكره، وشرع فى عمارتها حتى لا يتعرض لها الصليبيون[٣].

وفى السنوات القليلة التى تلت سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، مال نور الدين محمود إلى مهادنة القوى الصليبية القريبة منه، بسبب حاجته إلى وقت يسمح بتوطيد نفوذه فى البلاد

(١) Stevenson, Crusaders in the East, pp. 173-174.

(٢) Gibb, op. cit., p. 519.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥١٦؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٥٣؛ التاريخ الباهر، ص ١١٠؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، ص ٢٣٠ – ٢٣١: Gibb, op. cit., p. 520.

التى خضعت له، فى الوقت الذى كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لا يرغب فى القيام بأعمال عدائية ضد نور الدين، إلى أن يتمكن من إيقاف الموجات العدائية الآتية من مصر، وعلى وجه الخصوص الغارات التى كان يشنها الأسطول المصرى على السواحل الخاضعة لمملكة بيت المقدس[١] ولهذا التزم نور الدين بالجزية السنوية التى كانت تؤديها دمشق أيام البوريين لمملكة بيت المقدس، كما عقد هدنة مع الصليبيين مدتها سنة ابتداء من شهر شعبان ٥٥١هـ (سبتمبر ١١٥٦)[٢].

على أن الصليبيين لم يلتزموا بالهدنة التى عقدوها مع نور الدين، فقد حدث أن جماعات غفيرة من الرعاة التركمان والعرب الفلاحين، استغلت الأمان الذى وفرته الهدنة، وخرجت بمواشيها وأغنامها وجمالها للرعى فى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، فانتهز صليبيو تلك المدينة الفرصة، وهاجموا الرعاة فى ذى الحجة ٥٥١هـ (فبراير ١١٥٧)، وأمعنوا فيهم القتل، وأسروا الباقى «واستاقوا ما وجدوه» وعادوا محملين بالغنائم. وكان نور الدين وقتئذ مشغولا بإصلاح المدن والقلاع التى دمرتها الزلازل، فلم يكد يسمع بما حدث للرعاة، حتى ثارت ثائرته وقرر الخروج لمنازلة الصليبيين، فوصل إلى بعلبك، وأقام معسكره على مقربة منها، ومن هناك أرسل جماعات من جنده لمواجهة الاعتداءات الصليبية، وفى نفس الوقت أنفذ مبعوثا إلى مصر الفاطمية لتنسيق التعاون مع القوات المصرية ضد الصليبيين[٣].

وفى ١٣ ربيع الأول ٥٥٢هـ (٢٥ أبريل ١١٥٧)، اشتبك نصرة الدين أخو نور الدين مع الصليبيين من منظمتى الاسبتارية والداوية[٤] أثناء مسيرهم إلى بانياس لإمدادها بالمؤن

---

(١) Baldwin The Latin States. p. 538.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥١٦؛ Baldwin, op. cit. pp. 538-549.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥١٧ – ٥١٩؛ Baldwin, op. cit, p. 539.

(٤) شهدت الحركة الصليبية ببلاد الشام ابتكارًا فريدًا أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى، ويتمثل ذلك فى الهيئات الدينية الحربية، التى جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية فى رباط واحد. وأهم تلك الهيئات هيئتا الاسبتارية والداوية. وترجع الأصول الأولى للاسبتارية إلى نزل Hospice لإيواء الحجاج وعلاج مرضاهم، ثم تطور إلى منظمة دينية ضخمة، عرفت باسم الاسبتار Hospitallers التى حرفت بالعربية إلى الاسبتارية، وصار لها فروع فى معظم أنحاء أوربا، أما الهيئة الدينية الأخرى المشابهة للاسبتارية، فهى هيئة الداوية التى تأسست فى سنة ١١١٨م. وقد حصل فرسان هذه الهيئة على مقر لهم بالقرب من معبد سليمان (وهو المسجد الأقصى)، ومن هنا عرفوا باسم فرسان المعبد Knights of the Temple أما فى العربية فقد عرفوا باسم الداوية نسبة إلى محراب داود. وقد لعب فرسان الاسبتارية والداوية دورًا خطيرًا فى الحروب الصليبية. للمزيد من التفصيلات، أنظر، محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ص ٥٥ – ٦٥.

والسلاح، فأدركهم قبل بلوغها، وأنزل بهم هزيمة قاسية، لم ينج منها إلا القليل، «وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح، وحصل فى أيدى المسلمين من خيولهم وعُدد سلاحهم وكراعهم وأموالهم وقراطيسهم وأسراحهم، ورؤوس قتلاهم، مالا يُحد كثرة»[١] كذلك استطاع أسد الدين شيركوه على رأس قوة من التركمان أن يظفر بسرية وافرة من الصليبيين، ظهرت من معاقلهم الشمالية، فأوقع بها الهزيمة، ثم توجه شيركوه بهؤلاء التركمان إلى بعلبك، واجتمع بنور الدين فى ٢٥ ربيع الأول ٥٥٢هـ (٧ مايو ١١٥٧). وعندئذ قرر نور الدين مهاجمة بانياس، فزحف عليها، «وتبعه من الأحداث والمتطوعة والصوفية والمتدينين العدد الكثير»، وضيق عليها الخناق إلى أن سقطت المدينة فى يده فى ١٠ ربيع الآخر (٢١ مايو ١١٥٧)، واحتمى من سلم من الصليبيين بالقلعة، وقد عانوا من شدة الحصار الذى فرضه أسد الدين شيركوه عليهم، وأشرفوا على الهلاك، وطلبوا الأمان، وعرضوا على نور الدين تسليم القلعة، «فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه». غير أن الموقف لم يلبث أن تبدل عندما قام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لإنقاذ الصليبيين، فانسحب نور الدين من بانياس، ثم قام بهجوم مضاد على معسكر الملك الصليبى عند الملاحة بين طبرية وبانياس فى ٩ جمادى الأولى ٥٥٢هـ (١٩ يونيو ١١٥٧)، نال فيه الصليبيون هزيمة مريرة، ولقى الكثير منهم مصرعه، حتى أن الملك الصليبى لم يستطع النجاة إلا بصعوبة[٢]. وتلى ذلك أن عاد نور الدين لمهاجمة بانياس غير أنه مالبث أن اضطر للانسحاب منها مرة أخرى، بسبب تجمع جيوش أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس لإنقاذها. ومن المحتمل أن السبب الذى من أجله انسحب نور الدين من بانياس، يرجع إلى تجدد حدوث الزلازل التى بدأت فى ٤ يوليو ١١٥٧ ، واستمرت حتى شهر نوفمبر، والحقت أضرارًا خطيرة ببعض المدن الإسلامية، مثل حمص وحماه وافامية وشيزر التى هلك بها كل أمراء بيت بنى منقذ[٣].

ولم يتأخر الصليبيون فى الاستفادة من حدوث الزلازل فى شمال الشام ونتائجها السيئة التى عادت بأبلغ الضرر على حصون وقلاع وبيوت المسلمين، واحتشدوا فى أنطاكية

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥١٩ - ٥٢٠؛ الروضتين، جـ ١ ص ١٠٧ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٢١ - ٥٢٣؛ الروضتين، جـ ١ ص ١٠٧ - ١٠٨؛
Gibb, op. cit., p. 521., Baldwin, op. cit., p.539.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٢٦ - ٥٢٧؛ Gibb, op. cit. p. 521.

استعدادًا لمنازلة نور الدين، فأسرع نور الدين بقواته إلى إنب، لمواجهة أى هجوم يشنه الصليبيون[1]. وهناك أصابه مرض خطير فى رمضان سنة ٥٥٢هـ (أكتوبر ١١٥٧)، وأرجف بموته، وخاف نور الدين على نفسه، وبلغ به اليأس من الشفاء حدًا جعله يوصى إذا أدركه الموت لأخيه نصرة الدين بحلب، على أن ينوب عنه أسد الدين شيركوه بدمشق؛ ثم حمل نور الدين فى محفة إلى حلب، بينما توجه شيركوه إلى دمشق للدفاع عنها، وحفظها من أطماع الصليبيين[2].

وما أن ذاعت الأخبار بمرض نور الدين واليأس من شفائه، حتى اضطربت أحوال دولته، وخاصة فى حلب، فى الوقت الذى تهلل الصليبيون فرحا، لأن الموت سيخلصهم من عدوهم اللدود، ويمهد لهم الطريق للقضاء على دولته، واستعادة ما فقدوه. ويأكد ذلك الحشود الهائلة التى جمعها بلدوين الثالث فى أنطاكية، ففضلا عن جيوش مملكة بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس، انضم إليهم ثوروس الثانى الأرمنى أمير قيليقية، الذى حضر على رأس جيش ضخم من الأرمن؛ وزحفوا جميعا على إمارة شيزر لمهاجمتها والاستيلاء عليها[3] فإذا سقطت فى أيديهم انقطع الاتصال بين فامية وحماه من ناحية، وبين دمشق وحلب من ناحية أخرى؛ ومن المعروف أن شيزر أفلتت من يد الزنكيين، وظلت فترة طويلة خاضعة لأسرة بنى منقذ العربية[4]. وكان أن سقطت شيزر فى أيدى الصليبيين فى رمضان ٥٥٢هـ (أكتوبر ١١٥٧)، وكادت القلعة تخضع لهم، لولا النزاع الذى اشتعل فى صفوف الصليبيين، وسببه أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس رغب فى إعطاء شيزر لكونت فلاندرز، الذى وصل حديثا من الغرب الأوربى، غير أن ريجنالد شاتيون (أرناط) طالب أن يبذل له كونت فلا ندرز الولاء والتبعية، كما كان يفعل أمراء بنى منقذ، فرفض الكونت أن يكون تابعًا لبارون فرنسى أقل منه شأنا. ونتيجة لذلك ترك الصليبيون شيزر[5]. ثم اتجهوا بقيادة بلدوين الثالث إلى حصن حارم، وضيقوا عليه الحصار،

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٣٣؛ Gibb, op. cit., p. 521., Baldwin, op. cit., p. 541.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٣٣ – ٥٣٤؛ الروضتين، جـ ١ ص ١٠٩؛
Baldwin, The Latin States., p. 541.

(٣) Gibb, op. cit., p. 521., Baldwin, op.cit., 541.

(٤) الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٦٠٩ – ٦١٠.

(٥) Baldwin, op. cit. pp. 541-542. Grousset, L Epopee. p. 213; العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٦١٠؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١ ص ٦٥٠.

إلى أن استولوا عليه فى غرة المحرم عام ٥٥٣هـ (٢ فبراير ١١٥٨)؛ ومن هذا الحصن أخذوا يشنون الغارات الناجحة على القرى والضياع المجاورة، وقد ساعدهم على ذلك تفرق العساكر الإسلامية، ووقوع الخلاف بينهم، أثناء انشغال نور الدين بمرضه؛ ثم عاد الصليبيون إلى بلادهم. ولم يلبث الملك بلدوين الثالث أن شن غاراته فى صفر ٥٥٣هـ (مارس ١١٥٨)، على حوران وداريا، التى أحرق منازلها وجامعها، وتمادى فى تخريبها[١].

وفى تلك الأثناء، كان نور الدين قد شفى من مرضه، وانتقل إلى دمشق فى ٦ ربيع الأول ٥٥٣هـ (٧ أبريل ١١٥٨)، فابتهج الأهالى، «وبالغوا فى شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدعاء له، بدوام أيامه، ونصر أعلامه؛ وشرع فى تدبير أمر الأجناد، والتأهب للجهاد[٢]». على أن ميدان الجهاد ضد الكيان الصليبى، لم تعد أرضه آنذاك قاصرة على بلاد الشام، فقد تطورت الأحداث فى مصر، لتجعل منها ميدان جديد خاضه نور الدين محمود ضد الصليبيين، وهو الموضوع الذى سنتناوله فى الفصل التالى.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٣٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة.



الفصل الرابع

ضم مصر إلى الجبهة الإسلامية بالشام

- تدهور أحوال الدولة الفاطمية.
- مصر والصليبيون.
- حملة شيركوه الأولى على مصر (١١٦٤ م).
- حملة شيركوه الثانية (١١٦٧ م).
- حملة شيركوه الثالثة (١١٦٨ م).
- صلاح الدين الأيوبى.
- زوال الخلافة الفاطمية.

رأينا فيما سبق أن ضم دمشق وأعمالها إلى حوزة نور الدين محمود، جعل الفجوة التى كانت تحجزه عن مملكة بيت المقدس تنهار وتزول. وبعبارة أخرى، فإن نجاح نور الدين فى الاستيلاء على دمشق والتوحيد بينها وبين حلب تحت حكمه، وبعد أن تزايد نفوذه على أتباعه وحلفائه من أمراء الجزيرة، أصبحت تحت إمرته إمكانات عسكرية نسبيا، كما أصبح فى وضع يمكنه من التفكير فى مصر وضمها إلى دولته، حتى يتحقق له تطويق المملكة الصليبية برًا[١]. هذا فى الوقت الذى أدرك الصليبيون أن سيطرة نور الدين على حلب وحماه وحمص ودمشق، قد حالت دون توسعهم فى شمال الشام، وأن الطريق الطبيعى الذى بقى مفتوحًا أمامهم هو طريق مصر، حيث كانت الدولة الفاطمية تعانى آلام الموت البطىء[٢].

وعلى أية حال، أخذ نور الدين يتجه ببصره إلى مصر، على أساس أن الجبهة الإسلامية فى الشام ضد الصليبيين، لا تقوى وتتماسك إلا إذا انضمت إليها بمصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الوفيرة، وهى إذا اتحدت مع الشام والعراق كان ذلك إيذانا بتصفية الكيان الصليبى الدخيل. على أن هذه الفكرة لم تغب عن بال الصليبيين، لذلك حرصوا على أن يفلتوا من هذا الحصار بمنع نور الدين من تحقيق غرضه، وأن يتخذوا من مصر قاعدة لهم فى حروبهم ضد المسلمين بالشام[٣]. وينبغى ألا ننسى أن مصر بحكم موقعها الاستراتيجى، كانت ولا تزال حلقة الوصل بين المغرب العربى وبقية أنحاء العالم الإسلامى، فإذا وضع الصليبيون أيديهم على مصر، يتهيأ لهم انتزاع المغرب العربى، ويصبح بمكنتهم عقد اتصال مباشر مع المسيحيين فى النوبة والحبشة[٤]. وهكذا تطلع نور الدين والصليبيون إلى الاستيلاء على مصر، التى جعلت منها الظروف ميدانًا للصراع والتنافس بينهما.

تدهور أحوال الدولة الفاطمية :

والمعروف أن الدولة الفاطمية منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حتى سقوطها سنة ١١٧١ م، كانت قد دخلت فعلا دور ضعف وانحلال، وحال بينها وبين القيام بأى

(١) عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص ٦٥ .

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ٤١٢؛ الناصر صلاح الدين، ص ٥٩ .

(٣) الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢١-٢٢ .

(٤) Saunders (J.J.), Aspects of the Crusades. (Canterbury, 1962), p. 28.

عمل حربى فعال ضد الصليبيين. وثمة عوامل عديدة تضافرت على اختلال أحوال تلك الدولة أواخر أيامها، يأتى فى مقدمتها ازدياد نفوذ الوزراء، فالأمور كلها صارت بأيدى وزراء مستبدين، سيطروا على الخلفاء الفاطميين سيطرة تامة، وتحكموا فى تعيينهم وخلعهم، ووصل الأمر إلى حجبهم عن الناس، وفى ذلك يقول ابن الأثير[١]: «كانت الوزارة فى مصر لمن غلب، والخلفاء وراء الحجاب، والوزراء كالمتملكين، وقل أن وليها أحد بعد الأفضل (الوزير الفاطمى) إلا بحرب وقتل، وما شاكل ذلك».

ومما أسهم فى إضعاف الدولة الفاطمية وعجل بسقوطها اضطراب أحوالها الاقتصادية، التى كان إحدى جوانبها حدوث المجاعات، ولاسيما تلك التى حدثت سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) فى عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م)، نتيجة لانخفاض النيل، واستمرت سبع سنين متوالية، وهو ما يعرف فى التاريخ بالشدة المستنصرية العظمى، فقد انعدمت بمصر الأقوات، وارتفعت الأسعار، واشتد بلاؤها على أهل مصر، مما حمل الكثير منهم على مغادرتها والرحيل عنها[٢]. واقترنت تلك المجاعة المروعة بقيام الفتن والقلاقل وثورات الجند من الأتراك والسودانيين، بصورة جعلت الخلافة عاجزة عن كبح جماحها، فساءت أحوال مصر، واضطربت أمورها.

ويضاف إلى ذلك الانشقاق العنيف الذى أخذ يسود بين أنصار المذهب الإسماعيلى، فالوزير الأفضل بن بدر الجمالى عمل بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) على إبعاد ابنه وولى عهده الأكبر نزار عن الخلافة، وبايع ابنه الأصغر المستعلى الذى كانت أمه ابنة بدر الجمالى وأخت الأفضل. وقد أدى إقصاء نزار إلى فراره إلى الإسكندرية، حيث ادعى لنفسه الخلافة والإمامة، فانحاز إليه الناس وبايعوه بالخلافة[٣]. وترتب على ذلك أن ظهرت فرقتان متعاديتان، فرقة المستعلية التى ترى أحقية المستعلى فى الخلافة، وفرقة النزارية؛ وهناك الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الخليفة الفاطمى الآمر، الذى رزق ابنه أبا القاسم

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٤١ .

(٢) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ١٥-١٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢ ، ص ٣٤ . وفى تلك المجاعة أكل الجند خيلهم وجمالهم وبغالهم، حتى أن الخليفة المستنصر بالله كان يركب وحده، وخواصه مشاة حوله. انظر ابن أبى الهيجاء، تاريخه ورقة ١٢٩ ب.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ١٤٢- ١٤٣؛ أخبار مصر، جـ ٢ ص ٣٥ ؛ على بيومى: قيام الدولة الأيوبية، ص ٣٧-٣٨.

الطيب فى عام ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) وجعله وليا لعهده. فلما قتل الخليفة الآمر فى أواخر تلك السنة انتقلت الخلافة إلى الحافظ لدين الله، الذى لم يلبث أن أخفى أمر الطيب، غير أن الدعوة أقيمت للأخير فى اليمن، وجرى اعتبار إمامة الحافظ باطلة[١].

وفى وسط المصاعب التى غرست بأنيابها فى الدولة الفاطمية، جرت أحداث عجلت بانهيارها. فقد حدث أن دبر الوزير عباس مع ابنه نصر أمر اغتيال الخليفة الظافر لدين الله، وقاما بتنصيب ابنه الفائز فى الخلافة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤)، برغم أنه كان طفلا فى الرابعة من عمره. على أن مقتل الخليفة أثار أهل القاهرة، واشتد الحزن بأخوات الفائز، فالتمسن المساعدة من طلائع بن زريك – وهو من أصل أرمنى – والى الأشمونين والبهنسا (إحدى قرى مركز بنى مزار بمحافظة المنيا)، فجاء إلى القاهرة على رأس جنده، بحجة المطالبة بدم الخليفة المقتول، ومن ثم صار وزيرًا للخليفة الطفل. أما الوزير عباس فلم يستطع مقاومة طلائع بن رزيك، «إذ لا طاقة له بملاقاته فى حشده الكثير، فتأهب للهرب فى خواصه وأسبابه، وحرمه ووجوه أصحابه»، وعوّل على الخروج من مصر والتوجه إلى الشام للاستنجاد بنور الدين محمود، فهرب هو وابنه نصر فى ١٤ ربيع الأول ٥٤٩ هـ (٢٩ مايو ١١٥٤ م)، ولكن ما كاد يجتاز صحراء سيناء، حتى انقضت عليهما قوات من الصليبيين بالقرب من عسقلان، فلقى عباس مصرعه، ووقع ابنه فى الأسر، فأرسله الصليبيون فى قفص من حديد مقابل ستين ألف دينار، وتسلمه نساء الخليفة، وقمن بقتله على أبشع صورة، وظلت جثته معلقة على باب زويلة مدة سنتين[٢].

بعد أن تولى طلائع بن زريك منصب الوزارة، قضى على الاضطرابات والفوضى التى اجتاحت القاهرة، وتلقب بالملك الصالح. غير أن الأيام ما لبثت أن كشفت النقاب عن

---

(١) الفارقى: تاريخه، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (القاهرة ١٩٦٤)، ص ١٠٠-١٠١ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠٧؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ، ١٥٢-١٥٣؛ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ٢٠-٢٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢ ، ص ٩٢-٩٤؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ، ص ٥٩٠-٥٩١.

ويذكر أبو المحاسن أن طلائع بن زريك بعث إلى الصليبيين يطلب نصر بن عباس، وبذل لهم أموالا، فلما وصل سلمه إلى نساء الظافر، فأقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل.(نوع من الخفاف تلبسه الجوارى) أياما، وأقطعن لحمه، وأطعمنه أياه، إلى أن مات ثم صلب. انظر النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٩٦-٢٩٧ ، ٣١٠-٣١١.

حقيقته، إذ استبد بالأمر دون الخليفة الذى لم يعد له من الخلافة إلا ظلها، وأصبح بذلك صاحب النفوذ المطلق فى الدولة الفاطمية. كما أخذت علاقته بالبيت الفاطمى تسير من سيىء إلى أسوأ، وفى ذلك يقول أبو المحاسن[١]: «وضايق القصر الفاطمى طمعا فى صغر سن الخليفة، فتعب الناس معه». ويشير ابن الأثير[٢] إلى أن طلائع عامل كبار رجال الدولة وأعيانها معاملة سيئة، «واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأهلك أهلها، وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم من هلك، ومنهم من تفرق فى بلاد الحجاز واليمن وغيرها». ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اعتنق طلائع مذهب الإمامية[٣]، منصرفًا عن المذهب الإسماعيلى الذى نال على يديه صنوفا عديدة من الأذى[٤].

ولم يزل طلائع بن رزيك صاحب السلطة الفعلية فى مصر، حتى توفى الخليفة الفائز سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وهو فى الحادية عشرة من عمره، فأقام طلائع فى الخلافة العاضد ابن عم الفائز، الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره، وزوجه ابنته ليبقى على زمام الأمور فى يده. وعندما أظهر أهل القاهرة فرحتهم بالخليفة الجديد، قال: «كأنى بهؤلاء الجهلة، وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم»[٥]. وكان من الطبيعى أن يستغل طلائع صغر سن العاضد الذى صار أداة طيعة فى يده، فزاد من استبداده، وأساء السيرة، «وتحكم فى الدولة التحكم العظيم»؛ وثقلت وطأته على الخليفة العاضد، فحنق عليه نساء القصر، وأعقب ذلك أن تآمرت عليه إحدى عمات الخليفة وتدعى ست القصور على قتله، فرتبت له من قتله فى أحد دهاليز القصر فى رمضان سنة ٥٥٦ هـ (سبتمبر ١١٦١ م)[٦].

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣١٣ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ، ص ٤٤؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ، ص ١٧٧ .

(٣) انقسم الإمامية بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ إلى طائفتين: الإمامية الموسوية وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، وعرفت هذه الطائفة باسم الإمامية الإثناعشرية لانتظارهم إمامهم الثانى عشر، أما الطائفة الثانية، وهى إمامة الإسماعيلية، فهى التى نبتت فيها الخلافة الفاطمية. انظر، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٦٦)، ص ١٥–١٨ .

(٤) النجوم الزاهرة، جـ ٢ ، ص ٣٦٣؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٦ ورقة ٩٦؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٦ .

(٥) الكامل، جـ ٩ ، ص ٦٨ ؛ المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٤٩ .

(٦) الكامل، جـ ٩ ، ص ٧٥؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣١٣–٣١٥؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٩٩؛ ابن أبى الهيجاء، تاريخه ورقة ١٥٩ أ؛ الأصفهانى: البستان الجامع لتواريخ أهل الزمان، ورقة ١١٢.

أدى مقتل طلائع بن رزيك إلى فتح باب النزاع بين القوى المتنافسة على السلطة فى مصر، ثم تدخل كل من نور الدين والصليبيين فى شئون الدولة الفاطمية. فعندما قتل طلائع خلفه فى الوزارة ابنه العادل الذى لقب بمجد الإسلام، وكان أبوه قد أوصاه وهو على فراش الموت أن يأخذ حذره من جانب شاور بن مجير السعدى حاكم قوص - وهى عاصمة الصعيد آنذاك - وألا يفكر فى عزله من منصبه، لما أظهره من كفاءة فى الحكم أعلت من قدره، وجعلت الناس يلتفون حوله. ولكن العادل كان قصير النظر، خالف وصية ابيه وعزله، فلم يسع شاور إلا أن جمع أعدادًا وفيرة من العربان وأمراء الصعيد، وأسرع بالسير بهم عن طريق الواحات إلى أن وصل إلى تروجه بالقرب من الاسكندرية، ثم توجه إلى القاهرة ودخلها، وهناك تغلب بجموعه على العادل، واستطاع أن يحل محله فى الوزارة بعد أن أمر بقتله فى المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م).. وانقرضت به دولة بنى رزيك»[١].

على أن شاور لم يلبث هو الآخر أن استبد بالحكم وأساء السيرة، مثلما فعل سابقوه، فأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم، وعامل الخليفة العاضد معاملة سيئة. ولكن شاور لم يستقر فى منصبه طويلا، ذلك أن طلائع بن رزيك كان قد أنشأ جندًا يقال لهم البرقية، نسبة إلى برقة فى غربى مصر، وجعل ضرغاما بن عامر قائدًا عليهم. ولم يكن ضرغام أقل طمعا فى الوزارة من غيره، فقد خرج على شاور، وتمكن من إيقاع الهزيمة به وقتل ولده طيىء، فأسرع شاور إلى الفرار، متخذًا طريقه إلى الشام فى رمضان ٥٥٨ هـ (أغسطس ١١٦٣ م)، للاستنجاد بنور الدين محمود، «فأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه»[٢]. ووجه الأهمية هنا أن شاور نقل الصراع من مستواه الداخلى إلى مستوى جديد، امتزجت فيه الأغراض الواقعية للعناصر الداخلية مع المخططات البعيدة المدى لبعض القوى الخارجية، بدليل أن طلب شاور المساعدة من نور الدين قائد المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين آنذاك قد لقى ترحيبا[٣]. وفى غضون ذلك تقلد ضرغام الوزارة، وجريا على عادة من سبقه من الوزراء أساء السيرة، «فقتل كثيرا من الأمراء المصريين (الفاطميين)، لتخلو له البلاد من منازع،

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٨١؛ نهاية الأرب، جـ ٢٦ ورقة ٩٨-٩٧؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٠٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، ص ١٦؛ محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٢٨٨ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ، ص ٨٤؛ الدر المطلوب، ص ٢٥؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٦٠-٢٦٤ .

(٣) حامد غنيم أبو سعيد: الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ ٢ ، ص ١٦.

فضعفت الدولة بهذا السبب، حتى خرجت البلاد عن أيديهم»[1]. حدث هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون فى مملكة بيت المقدس يفكرون فى غزو مصر.

مصر والصليبيون :

وربما يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أن تفكير الصليبيين فى غزو مصر، يرجع إلى الفترة المبكرة من وجودهم ببلاد الشام قبل استيلائهم على بيت المقدس. ففى يونيو سنة ١٠٩٩م ناقش زعماء الحملة الصليبية الأولى عدة مسائل أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس، فعليهم أن يؤمنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا، بيد أنهم لم يستطيعوا وقتئذ وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ، لأنهم كانوا فى موقف لا يمكنهم من الإقدام على غزو مصر قبل الاستيلاء على مدينة بيت المقدس بالذات[2]. والواقع أن موضوع غزو مصر لم يغب عن بال الصليبيين بعد أن استقروا فى بيت المقدس، ففى ذى الحجة سنة ٥١١ هـ (مارس ١١١٨ م) خرج الملك الصليبى بلدوين الأول على رأس قواته، ووصل إلى العريش، ومنها إلى الفرما (جنوب بورسعيد الحالية)، فاستولى عليها، وأشعل النار فى جامعها ومساجدها، ولكنه لم يستطع التوغل فى الأراضى المصرية إلى أبعد من ذلك لصغر قوته، ثم لمرضه المفاجىء الذى انتهى بموته فى أبريل سنة ١١١٨ م، فشق الصليبيون بطنه وصبروه – أى حنطوه – ورموا أحشاءه فى المكان الذى نسب إليه، وصار يعرف بسبخة البردويل قرب بورسعيد الحالية[3].

وجدير بالذكر أن المصادر الصليبية قد أشارت إلى أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ – ١١٦٣ م)، قد هدد بالزحف على مصر فى سنة ١١٦٠ م، منتهزا فرصة الفوضى التى انتشرت بها عقب وفاة الخليفة الفائز سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)، ولكن

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٨١.

(٢) سعيد عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية» ص ١٧٤ – ١٧٥، وانظر ص ٥٤–٥٥.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٢٨٤؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ص ١٧١؛ شذرات الذهب، جـ ١ ص ٣٠؛ الدرر المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، ص ٤٨٠ –٤٨١؛

Fink, "The Foundation of the Latin States", p. 408; Grousset, L' Epopeé., p. 117; Runciman, Hist. of the Crusades, II, p. 99; William of Tyre, I, pp. 315 - 316.

الدولة الفاطمية استطاعت أن تصرفه عن عزمه مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار، وإن كانت هذه الجزية لم يجر دفعها مطلقا[(١)]. ومع أن المصادر العربية وقفت صامتة أمام هذه الواقعة، إلا أنه ليس من المستبعد صمتها، والسبب فى ذلك أن الدولة الفاطمية كانت آنذاك أضعف من أن تواجه الصليبيين، ولا أقل من أن تعمل على إسكاتهم بالمال، هذا بالإضافة إلى أن هذا الموقف يسيء إلى الدولة الفاطمية فى نظر المسلمين، وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله إلى المؤرخين المسلمين، وبالتالى عدم إشارتهم إليه[(٢)].

ولما توفى بلدوين الثالث، خلفه فى الحكم أخوه عمورى الأول – أو أملريك – فى ١٨ فبراير سنة ١١٦٢ م. وعلى الرغم من أن عمورى لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عند اعتلائه عرش مملكة بيت المقدس، إلا أنه كان مفعما بالحيوية والنشاط والطموح، واشتهر بالذكاء والمهارة السياسية، ويعتبر عهده فاتحة تاريخ جديد فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، وذلك لما أحدثه من تغيير جذرى فى سياسة الصليبيين، وهى سياسة تختلف تماما عن سياسة سلفه، فالمشكلة الكبرى التى كانت تواجهه، هى أن الانتصارات المتوالية التى أحرزها نور الدين محمود قد جعلت الكيان الصليبى فى طريقه إلى الانهيار، ولذلك وضع فى حسبانه ضرورة توسيع رقعة ممتلكاته فى اتجاه آخر، وهو مصر[(٣)]. ويرى البعض أن السياسة الخارجية لعمورى الأول ارتكزت أساسًا على القيام بسلسلة من المحاولات لغزو مصر، وقد دفعه إلى ذلك توحيد حلب ودمشق فى أيدى نور الدين، فإذا سقطت مصر فى أيدى القوى السنية المسلمة بالشام، وقعت الإمارات الصليبية فى طوق الحصار؛ وإلى جانب تلك الاعتبارات الاستراتيجية، لم يغب عن ذهن عمورى تجارة مصر الضخمة، وميناء الإسكندرية الكبير الذى يعمل على رواج تلك التجارة[(٤)]. وينبغى ألا ننسى حركة التجارة العالمية التى كانت تمر بمصر آنذاك، فحتى اكتشاف رأس الرجاء

(١) رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٥٩٢؛ الباز العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٦٦١ – ٦٦٢؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٠٤ .

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٣) Stevenson, op. cit., p. 185; Grousset, L'Epopée., pp. 225-226; Parkes, Hist. of Palestine., pp. 124-128.

(٤) Baldwin, op. cit., p. 519.

الصالح فى أواخر العصور الوسطى، كانت مصر تتحكم فى أقصر وأفضل طرق التجارة إلى الشرق(١). ونتيجة لهذا كله، أصر عمورى على الاتجاه جنوبا، إلى مصر.

ومهما يكن من أمر، فقد استغل عمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤ م) فرصة تدهور الأوضاع الداخلية فى مصر الفاطمية، وقام بتجهيز حملة فى غزة وعسقلان لغزوها والاستيلاء على الدلتا، وقد تذرع بأن الدولة الفاطمية لم تدفع الجزية التى وعدت بها أخاه بلدوين الثالث. وقد ساهمت منظمة الاستبار مساهمة فعالة فى تجهيز هذه الحملة، وأبدى مقدم تلك المنظمة جلبرت الأسيلى Gilbert d'Assaily الذى كانت حصونه تمتد على الحدود الجنوبية الغربية من المملكة، حماسًا زائدًا لمشروع الغزو، وسانده بكل قواه(٢). ثم سار عمورى على رأس جيوشه إلى العريش فى ذى القعدة ٥٥٨ هـ (سبتمبر ١١٦٣م)، دون أن تصادفه أية مقاومة، حتى بلغ بلبيس فى محافظة الشرقية، وضيق عليها الخناق، حتى كادت أن تسقط فى يده، لولا أن ضرغام استغل فيضان النيل، فعمد إلى قطع بعض السدود وتحطيمها، فساح الماء وأغرق الأرض، وامتلأت الترع بالمياه، الأمر الذى أرغم عمورى على الانسحاب والعودة إلى فلسطين(٣). وإذا كان عمورى قد عاد إلى فلسطين يجر أذيال الفشل، فقد تأكد له ما كانت عليه الدولة الفاطمية فى مصر من ضعف يؤذن بزوالها، بسبب النزاع الدائر بين الوزراء حول الاستئثار بالسلطة، وانتشار روح الفوضى والاضطرابات، وانعدام الروح الحربية عند الجند السودانيين والأرمن، وعجز الأسطول الفاطمى عن حماية سواحل مصر المطلة على البحر المتوسط، وانعدام الحصون والاستحكامات فى مصر، فضلا عن أمل الصليبيين فى الحصول على مساعدة القبط(٤).

وفى تلك الأثناء، لم يقف نور الدين محمود مكتوف اليدين، فقد اغتنم فرصة وفاة بلدوين الثالث، واعتلاء عمورى الأول عرش مملكة بيت المقدس، وقام بفرض الحصار

---

(١) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٧١ .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 186; Riey-Smith (Jonathan), The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (London, 1967), p. 70.

(٣) William of Tyre, II, pp. 302-303; Riley-Smith, op. cit., pp. 70-71; Schlumberger (G.), Campagnes du Roi Amaury Ier de Jerusalem en Egpte (Paris, 1906), pp. 38-43;
رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٥٩٢ .

(٤) العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٦٦٢ - ٦٦٣ .

على حارم التابعة لبوهيموند الثالث صاحب أنطاكية فى عام ٥٥٦ هـ (١١٦٢ م)، ولكنها امتنعت عليه لحصانتها، فانسحب من أمامها وعاد إلى بلاده[١].

ولاشك أن نور الدين قد علم بأخبار الغزوة الفاشلة التى قام بها عمورى الأول ضد مصر، وخشى أن تتكرر المحاولة الصليبية مرة أخرى، فتضيع مشاريعه الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية. ولذلك فإن سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) تعتبر نقطة تحول هامة فى تاريخ الحروب الصليبية، ففى هذه السنة بدأت الخطوات الأولى لتوحيد المسلمين فى مصر وبلاد الشام[٢]. وبمعنى آخر، بدأت فى هذه السنة أحداث التسابق بين نور الدين وعمورى الأول للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين، إلى أن تم لنور الدين الفوز بها، بفضل الجهود الحربية التى قام بها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

حملة شيركوه الأولى على مصر ٥٥٩هـ (١١٦٤) :

سبقت الإشارة إلى أن الوزير الفاطمى شاور قد لجأ إلى نور الدين فى دمشق فى ربيع الأول ٥٥٨ هـ (نهاية أكتوبر ١١٦٣ م) للاستنجاد به ضد منافسه ضرغام، فرحب به نور الدين واستضافه. ويورد المؤرخون أن نور الدين تردد أول الأمر فى إجابة شاور إلى مطلبه، ولكنه لم يلبث أن وافق، تحقيقا لخطته الرامية إلى توحيد المسلمين فى مصر والشام لاستئصال شأفة الكيان الصليبى، وذلك بإحكام الحصار حوله من الشمال والجنوب. ويذكرون أن نور الدين تردد فى إرسال حملة إلى مصر لمساعدة شاور، لخوفه من أن تتعرض قواته للأخطار من قبل مملكة بيت المقدس الصليبية التى تقع أراضيها بين دمشق ومصر، فى الوقت الذى ينبغى عليه أن يعمل حسابا لتحركات عمورى الأول ملك بيت المقدس؛ ولكن الفضل يرجع إلى أسد الدين شيركوه فى دفع مخاوف نور الدين بعيدًا، فقد أوضح له أن المصريين يفضلون حاكما مسلما على بلادهم على السيطرة الصليبية، مما يدل على أن شيركوه كان على دراية بالأوضاع السياسية فى مصر آنذاك، كما أنه كان من أبرز الشخصيات التى وجهت سياسة نور الدين فى وقت عصيب[٣] مزدحم بالأحداث،

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ٧٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٤ .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 186.

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٢٠ - ١٢١؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ص ٢٦٤ -٢٦٥؛
Stevenson, op. cit., p. 186; Lane - Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 176.

ويتطلب الحسم والجرأة. ومن الطبيعى أن شيركوه أخذ يعدد لنور الدين المزايا التى تعود عليه بامتلاك مصر فى مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، على أساس أن وقوع مصر والشام تحت زعامة حاكم مسلم واحد، سيجعل مملكة بيت المقدس بين نارين، كذلك يمكن لنور الدين فى حالة استيلائه على مصر أن يستخدم أسطولها ضد السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين، الأمر الذى يترتب عليه قطع خطوط مواصلاتهم مع أوربا الغربية[١].

ويرى البعض أن ثمة سببًا قويًا ربما حرك عند نور الدين الرغبة فى استيلائه على مصر، وهو العامل المذهبى. ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت مصدرًا من مصادر الفرقة فى العالم الإسلامى، لأنها جعلت المسلمين فى الشرق الأدنى منقسمين إلى خلافتين ومذهبين، أحدهما الخلافة العباسية السنية فى بغداد، والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة، ومن ثم كان من الطبيعى أن يتجه نور الدين وهو الحاكم السنى الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات، إلى التفكير فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى القاهرة[٢].

وكيفما كان الأمر، فقد قرر نور الدين إرسال حملة عسكرية إلى مصر، لإعادة الوزير الفاطمى المخلوع شاور إلى منصبه، وفى نفس الوقت أراد الوقوف على أحوال مصر، تمهيدًا لضمها إليه. ويتضح ذلك فيما ذكره المؤرخان ابن شداد[٣] وأبى شامة[٤] من أن نور الدين استجاب لطلب شاور «قضاء لحق الوافد المستصرخ، وجسًا للبلاد، وتطلعا على أحوالها»، خاصة أن شاور وعده إن عاد إلى منصب الوزارة بسد نفقات جند الحملة، وأن يبذل لنور الدين «ثلث دخل البلاد بعد أقطاعات العساكر، ويكون شيركوه (قائد الحملة) مقيما بعساكره فى مصر، ويتصرف هو (أى شاور) بأمر نور الدين». وإزاء تلك الوعود التى قطعها شاور على نفسه، لم يضيع نور الدين وقته، وحرص على اختيار شيركوه قائدًا لحملته، لأنه على قول ابن الأثير[٥]: «مقدم عسكره، وأكبر أمراء دولته وأشجعهم». ويبدو

(١) Stevenson, op. cit., p.186.
(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ١٥ - ١٦؛ شخصية الدولة الفاطمية، ص ٢٠٧.
(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٩٦٤)، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص ٣٦ .
(٤) الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ ١ (القسم الثانى) تحقيق د. محمد حلمى محمد، ص ٣٣٢ .
(٥) الكامل، جـ ٩ ص ٨٩ .

أن نورالدين كان يتفاءل خيرًا بشيركوه، فهو «لم يرسله فى أمر إلا نجح، ولم يولجه فى مضيق إلا انفتح»[١].

ولما وصل الخبر إلى ضرغام عن الاستعدادات التى تجرى فى دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، بادر بالاستنجاد بالصليبيين أعداء نور الدين، وتعهد بدفع جزية يقررها الملك عمورى الأول، وفوق ذلك وافق على أن تصير مصر تابعة للصليبيين، وخضوعه التام لهم[٢].

وكان أن خرج شيركوه على رأس حملته الأولى صوب مصر فى جمادى الثانية ٥٥٩هـ (أبريل ١١٦٤)، يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذى كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، بينما أخذ نور الدين يهاجم الأطراف الشمالية لممتلكات الصليبيين المجاورة لدمشق، ليصرف أنظارهم عن التعرض لشيركوه[٣]، الذى اتخذ طريقه إلى شرقى الكرك والشوبك، ثم إلى أيلة (العقبة حاليا)، ثم إلى صدر والسويس، ومنها إلى القاهرة. وتحت أسوار القاهرة حدثت معركة عنيفة، انتهت بهزيمة ضرغام بعد أن تخلى عنه جميع أعوانه، ولم يبق معه إلا حرسه الخاص، فلقى مصرعه عند مشهد السيدة نفيسة فى رجب ٥٥٩هـ (يونيو ١١٦٤م)، ودخل شاور منتصرًا، وأعيد إلى منصبه فى الوزارة[٤].

على أن الغدر كان يجرى فى دماء شاور، إذ لم يكد ينجح فى التخلص من منافسه ضرغام بفضل المساعدة التى قدمها له نور الدين، حتى أساء معاملة الناس، ولم يف بما وعد به نور الدين. فقد رفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه، وطلب منه الخروج من مصر، فامتنع شيركوه ورد على موقف شاور المتقلب بالاستيلاء على إقليم الشرقية. وعند ذلك أيقن شاور من عزم شيركوه على البقاء، فاندفع كسلفه ضرغام يطلب المعونة من عمورى الأول ملك بيت المقدس، وأخذ يخوفه من نور الدين، وعرض عليه مبلغا ضخما من المال مقابل إخراج شيركوه من مصر[٥]. كما أرسل شاور هدية خاصة لمنظمة الاسبتار

(١) الروضتين، جـ ١ ص ١٦٩ .

(٢) William of Tyre, II, p. 304, Schlumberger op. cit., p. 49.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ٨٤ - ٨٥؛ الروضتين، جـ ١ ص ١٣٣؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٨ - ١٣٩؛ Stevenson, The Crusaders in the East., p.187.

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ٨٥؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٨ -١٣٩؛ النجوم الزاهرة، حـ ٥ ص ٣٤٦-٣٤٧؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦١ أ .

(٥) Schlumberger, op. cit., pp. 59 - 60; Riley - Smith, op. cit., p. 71; Newby, Saladin., p. 46.

التى كانت تشكل عصب جيوش مملكة بيت المقدس آنذاك، لإغراء فرسانها على المجيء إلى مصر لتخليصه من قوات نور الدين، وأبدى استعداده بتحمل نفقاتهم؛ وهكذا انغمس شاور في لعبة سياسية خطيرة ،محاولته إثارة الأعداء لمصلحته الخاصة[١].

ولاشك أن الصليبيين آنذاك كانوا يتابعون تطور الأحداث في مصر، فلما علموا بمسيرة أسد الدين شيركوه إلى مصر، ازدادت مخاوفهم، ولما وصلتهم دعوة شاور لمعاونته رحبوا بها، وبادر عمورى الأول بعقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرر فيه تلبية دعوة شاور، بعد أن أوضح عمورى قدرته على تجهيز حملة لغزو مصر، دون أن يضعف ذلك من دفاعات المملكة، خاصة وأنه قد وصل من أوربا وقتئذ عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس، يمكن الإفادة منهم في المجهود الحربى، كما اتفق على أن يقوم بوهيموند الثالث أمير أنطاكية بإدارة شئون المملكة خلال غياب عمورى[٢]. وأسرع عمورى بالحضور إلى مصر على رأس قواته للمرة الثالثة فى رمضان ٥٥٩ هـ (أغسطس ١١٦٤ م)، وفور وصوله اتصل بشاور، واتفقا على حصار شيركوه فى بلبيس – محافظة الشرقية –التى اتخذها قاعدة له. وبعد حصار دام حوالى ثلاثى شهور دافع شيركوه خلالها عن بلبيس، تم الاتفاق بين شيركوه وعمورى فى ذى الحجة من نفس العام (أكتوبر ١١٦٤ م) على مغادرة مصر، بعد أن اتضح لشيركوه أن الموقف لم يعد فى صالحه، لأن المؤن المتبقية لديه أوشكت على النفاذ، فضلا عن تفوق الجيوش الصليبية الفاطمية فى العدد. أما عمورى الأول، فقد حرص على الانسحاب من مصر، لأن نور الدين انتهز فرصة تغيبه فى مصر، وشدد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام[٣].

ذلك أنه بعد أن رحل شيركوه على رأس قواته إلى مصر بوقت قصير، غادر نور الدين دمشق لمهاجمة طرابلس، فنزل بالبقيعة جنوب شرقى الأكراد، غير أن القوات الصليبية اجتمعت على المسلمين فى السهل الواقع أسفل التلال فى البقيعة، وأنزلوا بهم هزيمة فادحة، وأمعنوا فيهم القتل والأسر، ويذكر المؤرخون أن نور الدين تمكن من الفرار بحياته

(١) Baldwin, The Latin States., p.550.

(٢) Baldwin, op. cit., p. 550.

(٣) الكامل، جـ ٩ ، ص ٨٥؛ التاريخ الباهر، ص ١٢١-١٢٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٣٣٥-٣٣٧؛ النجوم الزاهرة، جـ ٢ ، ص ٣٤٧-٣٤٨؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٧٤-٢٧٥؛
Stevenson, op. cit., pp. 188-189; Newby, op. cit., p.47.

بأعجوبة، إذ خرج فرسان الاسبتار فى حصن الأكراد، وهاجموا بغتة معسكر نور الدين وانتشروا فيه، فجرى نور الدين ورجاله إلى خيولهم، وكان حصان نور الدين لا زال مربوطا إلى وتده، فأسرع أحد الأكراد بقطع الحبل، ولكن الصليبيين لحقوا به وضربوه، فراح ضحية إخلاصه لنور الدين[1].

وفى الوقت الذى خرج فيه عمورى الأول على رأس جيشه متوجها إلى مصر، أراد نور الدين أن يخفف ضغط الصليبيين على قواته فى مصر، فجهز قواته، «وكاتب أخاه قطب الدين مودود صاحب الموصل، وقرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا والديار الجزيرية، ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين، وأصحاب الأطراف يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد»[2]. وفى هذه المرة توجه نور الدين لمهاجمة حارم التى استعصت عليه من ناحية، وللانتقام من الهزيمة التى حلت به قرب حصن الأكراد من ناحية أخرى. ولكن بوهيموند الثالث أمير أنطاكية الذى كان ينوب عن عمورى ملك بيت المقدس خلال غيابه لم يواجه وحده قوات نور الدين، بل انضم إليه-ريموند الثالث أمير طرابلس، وثوروس الثانى صاحب أرمينية، والقائد البيزنطى قنسطنطين كولمان حاكم قليقية. وعندئذ قرر نور الدين استدراج الصليبيين، فترك حارم واتجه صوب أرتاح، حيث دارت معركة مريرة بالقرب من هذا المكان فى ١٩ رمضان ٥٥٩ هـ (١٠ أغسطس ١١٦٤ م)لقى فيها الصليبيون هزيمة شنيعة، ووقع فى الأسر «ما لا يُحد»، وقتل عدد كبير قدرته المصادر الإسلامية بما يزيد على عشرة آلاف وراجل. وقد كان على رأس الأسرى بوهيموند أمير أنطاكية، وريموند أمير طرابلس، وجوسلين دى كورتناى، وهيو لوزجنان، وقنسطنطين كولمان، ولم يفلت من الأسر إلا ثوروس صاحب أرمينية الذى ولى هاربا، بعد أن تبين له استحالة الصمود أمام المسلمين، ولم تلبث حارم أن سقطت فى أيدى نور الدين فى ٢١ رمضان من نفس العام (١٢ أغسطس ١١٦٤م)، بعد حصار استمر يومين[3].

---

(١) الكامل، جـ ٩، ص ٨٣-٨٢؛ مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٣٥؛ البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ٢٤٦؛ William of Tyre, II, p. 306; Baldwin, op. cit., p. 551.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٢٢-١٢٣؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٢٤-١٢٥؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٤٣-١٤٥؛ سنا البرق الشامى، تحقيق د. فتحية النبراوى (القاهرة ١٩٧٩)، ص ١١٦؛ الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، ص ١٦٦؛ الدر المطلوب، ص ٣٧؛ William of Tyre, II, pp. 306-308; Baldwin, op. cit., p.551; Stevenson, op. cit., p. 189; Riley - Smith, op. cit., p. 70; Schlumberger, pp. 84-88.

ولاشك أن نور الدين حقق كسبًا رائعا باستيلائه على حارم، التى كانت قلعتها الحصينة تحرس الطريق المؤدى إلى انطاكية من ناحية حلب، ونتيجة لذلك صارت أنطاكية تحت التهديد المباشر من قبل نور الدين. وكان بإمكان نور الدين الاستيلاء على أنطاكية لو أنه أراد ذلك، ولكنه رجع عن مهاجمتها، خشية أن يستنجد أهلها بالإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، الذى كان آنذاك على علاقات طيبة مع الصليبيين. ويؤكد ذلك ما أورده المؤرخ ابن واصل[1] عندما أشار أصحاب نور الدين عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها بعد أن أصبحت خالية ممن يحميها ويدافع عنها، فامتنع وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فهى منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية فيسلمونها إليه، ومجاورة بيمند (بوهيموند) أحب إلينا من مجاورة ملك الروم».

ولحرص نور الدين على مواصلة جهوده الرامية إلى تخفيف الضغط الصليبى على شيركوه فى مصر، توجه إلى بانياس وحاصر قلعتها المنيعة الواقعة على بعد بضعة أميال شمال المدينة بضعة أيام، فسقطت فى يده فى ذى الحجة سنة ٥٥٩ هـ (١٠ أكتوبر ١١٦٤ م)، الأمر الذى أرغم عمورى الأول على الإنسحاب من مصر لإنقاذ الصليبيين من هجمات نور الدين، ولكنه وصل بعد فوات الأوان[2]. وباستيلاء نور الدين على حارم وبانياس أثبت نجاح خطته الرامية إلى توحيد المسلمين ومنازلة الكيان الصليبى فى وقت واحد، وهى الخطة التى سينتهجها صلاح الدين من بعده.

وهنا ينبغى القول أن الحملة الصليبية على مصر قد كسبت جولة فى الصراع الدائر بينها وبين قوات نور الدين فى مصر، إذ يكفى أن الصليبيين أرغموا شيركوه على الانسحاب من أرض مصر، والتخلى عن المواقع التى استولى عليها، هذا فى الوقت الذى صار للصليبيين قدر كبير من النفوذ المادى والمعنوى عند شاور، فهم الذين ناصروه، وهم الذين أرغموا شيركوه على الانسحاب[3]. وعلى الرغم من أن حملة شيركوه لم تحقق أهدافها فى مصر،

---

(١) مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٤٥؛ التاريخ الباهر، ص ١٢٥ .

(٢) مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٤٧-١٤٦؛ التاريخ الباهر، ص ١٣١-١٣٠؛

William of Tyre, II, pp. 308-310; Stevenson, op. cit., p.189-190; Baldwin, op. cit., p. 551.

(٣) حامد غنيم: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٥ .

فإن المحصلة النهائية هى أن أملاك نور الدين قد تدعمت فى الشام، وارتفع شأنه فى العالم الإسلامى، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل، واستبد اليأس بهم[١].

وعلى أية حال، فقد غادر شيركوه وعمورى الأول أرض مصر، وقد بان لكل منهما سوء أحوالها الاقتصادية، ومدى ما بلغته من ضعف، كما وقفا على ما تتمتع به مصر من ثروة وفيرة، وموارد بشرية هائلة، تجعل من يستحوز عليها صاحب الكفة الراجحة فى ميزان القوى ببلاد الشام. وهنا نلاحظ أن شيركوه منذ أن غادر أرض مصر، ظل يحدث نفسه بالعودة إليها، «وكان عنده من الحرص على ذلك كثير»، ومما زاد من رغبته فى العودة إلى مصر، حقده على شاور بعد أن ثبت غدره، وعدم الوفاء بما التزم به[٢]. يضاف إلى ذلك أن الخلافة العباسية حرصت آنذاك على تشجيع كل محاولة من شأنها القضاء على الخلافة الشيعية فى مصر، ولهذا كتب الخليفة العباسى إلى جميع الأمراء والحكام، يطلب إليهم تقديم العون لشيركوه[٣].

وقد انتهز شاور فرصة خروج أسد الدين شيركوه وعمورى الأول من مصر، وانبرى على عادته يظلم ويقتل ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمى العاضد معه أمر ولا نهى؛ ولما ثقلت وطأة شاور على العاضد، كتب الأخير إلى نور الدين محمود «يستنجد على شاور، وأنه قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدماء»[٤].

حملة شيركوه الثانية ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) :

خرج شيركوه إلى مصر على رأس حملته الثانية فى ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (يناير ١١٦٧م)، ومعه ابن أخيه صلاح الدين، وألفان من الفرسان المنتقين، وقبل أن يتجاوز شيركوه أراضى مملكة بيت المقدس الصليبية، هبت على جيشه عاصفة رملية كادت تطمره؛ وقد اتخذ الطريق البرى بعيدًا عن الطريق الصليبى، حتى لا يصطدم بالصليبيين، ومضى فى طريقه إلى الدلتا، ولكنه لم يتوجه إلى القاهرة بعد أن علم أن الصليبيين وشاور قد عسكروا بها، واضطر إلى السير جنوبا إلى أطفيح الواقعة على بعد حوالى أربعين ميلا

(١) العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٦٧٣.
(٢) التاريخ الباهر، ص ١٣٢؛ الكامل، جـ ٩ ص ٩٤-٩٥؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٣ .
(٣) الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٨ .
(٤) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ .

جنوبى القاهرة، ومن هناك عبر النيل، وسار حتى بلغ الجيزة، فعسكر فيها قبالة الفسطاط، وأقام بها خمسين يوما[١].

والواقع أنه لم تكد الأخبار تصل إلى شاور بقدوم شيركوه إلى مصر، حتى رأى أن يستنجد بالصليبيين للمرة الثانية طالبا العون، فوافقوا على تحقيق مطلبه خشية أن تقع مصر فى حوزة نور الدين، فيصبح وضعهم بالشام محفوفا بالمخاطر، وقد علق ابن واصل[٢]على ذلك قائلا: «وعلموا أن (أى الصليبيين) أنه إن ملكها نور الدين -رحمه الله -واستضافها إلى البلاد الشامية، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم فى وسط بلاده». وكان عمورى الأول وقتئذ نبابلس، فدعا باروناته ورجال الكنيسة للاجتماع لمجلس حرب، وبعد أن أوضح لهم ما تتعرض له فلسطين من خطر، إذا استولى نور الدين على مصر، وافق المجلس على توجيه حملة وافرة العدد والعدة لإنقاذ شاور، وعهد بحكم المملكة أثناء غياب عمورى الأول إلى بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، ووضعت تحت تصرفه قوات معقولة، خشية أن يقوم نور الدين بهجوم على الممتلكات الصليبية[٣]. وأسرع عمورى إلى الخروج بقواته من عسقلان فى ٧ ربيع الثانى ٥٦٢ هـ (٣٠ يناير ١١٦٧ م)، فاجتاز غزة والعريش، وعندما وصل إلى مصر استقبله شاور وقواته فى بلبيس، حيث استقر الأمر بينهما على أن يؤدى شاور له أربعمائة ألف دينار مقابل طرد شيركوه من مصر، على أن يعجل بدفع نصف هذا المبلغ، ويؤجل دفع النصف الآخر. ومن الواضح أن هذه الإتفاقية جعلت من الصليبيين المدافعين عن مصر والخلافة الفاطمية، ولذلك رحب بها عمورى الأول، وحرص على إعطائها صفة رسمية، فأرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمى زارته فى قصره، حيث تم التصديق على الإتفاقية[٤]. وقد تألفت هذه السفارة من هيو صاحب قيصرية Hugh of Caesarea الذى كان يتحدث باللغة العربية،

---

(١) التاريخ الباهر، ص ١٣٢؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٢٤-٤٢٥؛ ابن أبى الهيجاء، تاريخه ورقة ١٦٢-١٦٣أ؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٨٢؛ الأصفهانى، البستان الجامع، ورقة ١١٥؛ حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٢٩٦؛ William of Tyre, II, pp. 317-318; Stevenson, op. cit., pp.190-191; Lane-Poole, op. cit., p. 173.

(٢) مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

(٣) William of Tyre, II, p. 314; Baldwin, op. cit., p.552; Schlumberger, op. cit., pp. 104-105; Runciman, Hist. of the Crusades, II, p. 372;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ص ٦٠١.

(٤) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٥.

وجيوفرى فولشر Geoffrey Fulcher مقدم منظمة الداوية فى بيت المقدس[١]. وقد استقبل السفيران بحفاوة، فاجتازا الردهات والأبواب التى يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة، وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة، وأخذا يسيران من قاعة إلى أخرى، حتى ظهرت أمامها غرفة العرش الذهبى، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلىء، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات، تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع؛ ثم فتحت الستارة، فظهر الخليفة جالسا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمة، وقد ارتدى ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها، ويحيط به أبرز مستشاريه وقد كساهم الوقار. وقد أراد هيو أن يصافح يد الخليفة عارية من القفاز، فارتاع رجال البلاط وشرحوا له أنه من المستحيل إجابة طلبه، ولكن الخليفة ابتسم ساخرًا، وخلع قفازه وصافح هيو، ثم انسحب السفيران وقد هالهما الثروة التى تتمتع بها الخلافة الفاطمية؛ وبذلك عقدت الإتفاقية بين مصر الفاطمية ومملكة بيت المقدس الصليبية[٢].

وبعد أن صدق الجانبان على الإتفاقية، إجتازت قواتهما النيل إلى الضفة الغربية، ليوقعا بشيركوه وقواته، فما كان من شيركوه إلا أن بادر بالاندفاع جنوبا إلى الصعيد، ولكن شاور وعمورى الأول اقتفيا أثره بقواتهما، وظلا فى مطاردته. فلما وصل شيركوه إلى القرب منا لأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا) فى موضع يعرف بالبابين استعد للمعركة. وكانت قوات شاور وعمورى تفوق فى العدد والعدة جيش شيركوه، بيد أن شجاعة الأخير ظهرت فى هذا الموقف، «فعزم على قتالهم ولقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم»؛ على أنه خاف أن يستولى اليأس على عساكره قبل الدخول فى معركة مع الصليبيين وشاور، فاستشار بعض أصحابه المقربين، فنصحوه بعبور النيل إلى الضفة الشرقية والعودة إلى الشام، بحجة أنه ليس لهم ملجأ فى حالة الهزيمة. ولكن أحد الأمراء النوريين الشجعان وهو

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٩٥؛ William of Tyre, II, pp. 318-319; Lane-Pool, op. cit., p.180; سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ١٧.

(٢) William of Tyre, II, pp. 319-321; Grousset, op. cit., pp. 229-230; Lane-Poole, op. cit., pp.180- 181; Baldwin op. cit., p. 552; Newby, op. cit., p. 48; Schlumberger pp. 116-125; ستانلى لين بول: سيرة القاهرة (القاهرة ١٩٥٠)، ص ١٢٨-١٢٩؛ أولج فولكف: القاهرة، مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، ص ٦١- ٦٢.

شرف الدين برغش، هب قائلا: «من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل (نور الدين) من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار؟!»، ووافق شيركوه وصلاح الدين على هذا الرأى، واتفقت كلمة الجميع على القتال[١]. ولم يلبث شيركوه أن جعل صلاح الدين وعساكره فى قلب الجيش، واتفق معه على أن يتظاهر بالتقهقر أمام الصليبيين؛ أما شيركوه فقد اختار جماعة ممن «يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم فى الميمنة»، وعندما دارت المعركة فى ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٢ هـ (١٨ مارس ١١٦٧ م)، حدث ما توقعه شيركوه، إذ اندفع عمورى الأول وجيوشه إلى قلب الجيش، فلما تراجع صلاح الدين أمامه ظن عمورى أن الهزيمة دارت على خصمه، وهنا انقض شيركوه على الصليبيين وطوقهم من جميع الجهات، وأمعن فيهم، فلقى عدد كبير من فرسان الصليبيين مصرعهم، وانسحب عمورى وحليفه شاور ومن تبقى من عساكرهما إلى القاهرة[٢].

وعلى الرغم من أن النصر الذى أحرزه شيركوه على شاور وحلفائه الصليبيين جميعا، وجعلهم يرتدون إلى القاهرة، فقد كان بوسع شيركوه أن يستولى على القاهرة، لو أنه تعقب أعداءه. بيد أنه لم يشأ ذلك، فقد كان لا يشك فى أن الملك الصليبى سيأخذ طريقه إلى بيت المقدس، وخاصة بعد الكارثة التى حلت به وبجيشه، ولهذا ترك شيركوه المنهزمين فيما هم فيه[٣]، وتوجه رأسًا إلى مدينة الإسكندرية، فتلقاه أهلها طائعين مرحبين به، وسلموها إليه بسهولة[٤]، لميلهم لمذهب السنة من ناحية، وتأييدهم له ضد شاور الذى تحالف مع الصليبيين أعداء المسلمين من ناحية أخرى.

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٥؛ سنا البرق الشامى، ص ٢٠؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥٠-١٥١؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٤-٣٦٥؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣٤٨-٣٤٩؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦٣ أ.

(٢) مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥١؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٥- ٣٦٦؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٨٤؛ Lane-Poole, op. cit., pp. 181-182; Schulmberger, pp.136- 144.

(٣) حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣٠١.

(٤) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٥؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٥.

لم يطل شيركوه البقاء فى الإسكندرية، خشية أن يقوم الصليبيون وشاور بفرض حصار برى وبحرى عليها، ولهذا ترك عليها ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فى حكمها ترافقه قوة صغيرة من نحو ألف فارس، وعهد إليه بالدفاع عنها. أما هو فقد اتجه مرة أخرى صوب الصعيد وأوغل فيه، فتمكن من الاستيلاء عليه، والحصول على أموال وفيرة من الأهالى تقوى بها. وقد حدث ما كان يتوقعه شيركوه، إذ اتجه الحليفان شاور وعمورى إلى الإسكندرية، وضيقا عليها الحصار من البر والبحر حوالى ثلاثة شهور، ساء فيها موقف صلاح الدين، وقاست المدينة حتى قلت الأقوات بها. وعندما ثقلت وطأة الحصار على صلاح الدين، أرسل لعمه بالصعيد الذى كان وقتئذ فى مدينة قوص، يشرح له حرج موقفه، ويطلب منه النجدة العاجلة، فعاد شيركوه مسرعًا إلى الإسكندرية لنجدة ابن أخيه، يتبعه الكثير من العربان وأهالى الصعيد، الأمر الذى أجبر شاور وحلفاءه على رفع الحصار عن الإسكندرية[١].

ويبدو أن الأمور بعدئذ لم تجر كما كان يأمل شيركوه، فى الوقت الذى تبين لعمورى الأول أنه لا فائدة من مواصلة القتال. وعلى هذا لم يعد أمام شيركوه إلا التفاوض على الصلح مع عمورى، الذى بادله الرغبة فى ذلك، خاصة بعد أن ساء موقف الصليبيين ببلاد الشام آنذاك، بسبب ما قام به نور الدين من تحركات على أملاكهم كبدتهم خسائر فادحة[٢]. ففى خلال السباق الذى كان يجرى على أرض مصر بين شيركوه والصليبيين وحلفائهم الفاطميين، بذل نور الدين جهده ليخفف الضغط الصليبى على مصر، فجمع عساكره، وانضم إليه أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل على رأس جموعه، لمهاجمة معاقل الصليبيين، وفى طريقه من دمشق إلى طرابلس باغت نور الدين حصن المنيطرة، فاستولى عليه عنوة وغنم منه مغانم كثيرة فى شعبان سنة ٥٦١ هـ (مايو ١١٦٧ م).[٣] ثم واصل نور الدين زحفه ومعه أخوه قطب الدين للإغارة على أراضى طرابلس فى الشمال، وأخذت عساكرهم

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٥-٩٦؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥١؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٥-٣٦٦، ص ٤٢٧؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ، ص ٢٠٤؛ الدر المطلوب، ص ٢٩؛ النويرى الإسكندرانى: كتاب الإلمام، جـ ٤ ص ٦٨؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦٣ أ - ١٦٣ ب؛ William of Tyre, II, pp. 334-338.

(٢) Stevenson, op. cit., p. 191; Baldwin, op. cit., p. 553; Newby, Saladin, p. 50; Schlumberger, op. cit., p.159.

سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٤؛ التاريخ الباهر، ص ١٣١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٤٨؛ النوادر السلطانية، ص ٣٨.

تخرب البلاد التى تصادفهم، وفتحوا قلعتى العريمة وصافيتا، ثم قصدوا حصن هونين وهو من أمنع المعاقل الصليبية، ولم يكد نور الدين يهدد هذا الحصن حتى فرت حاميته، فأمر بهدم سوره وتركه حطاما فى ذى القعدة ٥٦٢ هـ (أغسطس ١١٦٧ م)؛ وأراد نور الدين الإستيلاء على بيروت، ولكن خلافا قام بين عساكره، فاضطر إلى الرجوع عنها، وعاد قطب الدين إلى الموصل وقد كافأه أخوه بمنحه الرقة على نهر الفرات(١).

وعلى أية حال، فقد استقر الأمر بين شيركوه وعمورى على الصلح، واشترط شيركوه «أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين (الفاطميين)(٢)»، ثم غادر شيركوه مصر إلى دمشق فبلغها فى ١٨ ذى القعدة ٥٦٢هـ (٥ سبتمبر ١١٦٧م). والواقع أن هذا الشرط يبرز لنا ما كان يحرص عليه شيركوه، باعتباره ممثل نور الدين، من الحيلولة بين الصليبيين وبين الحصول على موضع قدم لنفوذهم فى أرض مصر، وذلك لما قد تؤدى إليه هذه البداية من استفحال للنفوذ الصليبى، وبالتالى وقوع مصر فى قبضة الأعداء الصليبيين، وهو ما لا يسمح به نور الدين(٣). على أن عمورى الأول، لم يغادر القاهرة بجيوشه إلا بعد أن عقد اتفاقا مع شاور، تعهد الأخير بمقتضاه أن يكون للصليبيين شحنة (حامية)، وأن تكون أبواب البلد بيد هذه الحامية، كما يكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار(٤). وجدير بالذكر أن بعض البارونات الصليبيين الذين اشتركوا فى حملة عمورى، ظنوا أنه كان بوسع الملك الصليبى أن يحصل على شروط أفضل من تلك التى حصل عليها، ولكن عمورى فى الواقع لم يشأ أن يخاطر بقواته فى مصر إلى أبعد مما حدث، دون أن يحمى ممتلكات الصليبيين بالشام من هجمات نور الدين(٥) التى تناولناها منذ قليل.

ويلاحظ أن ارتماء شاور فى أحضان الصليبيين بموافقته على السماح لهم بوجود حامية صغيرة تتولى حراسة أبواب مدينة القاهرة، كان له وقع سيىء فى نفوس أهل مصر، فثارت

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٦؛ مفرج الكروب، جـ ٣ ، ص ١٥٢ - ١٥٣؛ Stevenson, op. cit., pp.191-192.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٣٤؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٦٦.

(٣) حامد غنيم: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٢٩.

(٤) التاريخ الباهر، ص ١٣٤؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣٤٩؛ نهاية الأرب، جـ ٢٦ ورقة ١٠١؛ كتاب الإلمام، جـ ٤ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٥) رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٦٠٨؛ Runciman, Hist. of the Ctusades, II, p.376.

ثائرتهم بسبب هذا التصرف الذى لم يرضوا عنه. ومما يدل على ذلك، أن أقرب الناس إلى شاور وهو ابنه الكامل شجاع وقف موقف المعارض من تصرف أبيه، فاتصل بنور الدين «ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته، وضمن عن نفسه أن يجمع بمصر الكلمة على طاعته، وبذل له ما لا يحمل كل سنة»، وقد استجاب نور الدين لما عرضه الكامل شجاع[١]. هذا ويرى البعض أنه حينما كان شاور يتفق مع الصليبيين، كان ابنه شجاع يحاول الانضمام إلى صف نور الدين، ولعل ذلك باتفاق مع أبيه حتى يضمنا حماية الطرفين المتنازعين حول الإستيلاء على مصر[٢].

أما عن موقف الخليفة الفاطمى العاضد من تواطؤ شاور مع الصليبيين واتفاقه معهم دون الرجوع إليه بوصفه صاحب مصر، فخير ما يعبر عنه قول ابن الأثير[٣]: «هذا كله استقر مع شاور، إن العاضد لم يكن له معه حكم لأنه قد حجر عليه، وحجبه عن الأمور كلها».

حملة شيركوه الثالثة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) :

بعد أن انسحب شيركوه وعمورى الأول من مصر للمرة الثانية، صار كل منهما أكثر تمسكا بفكرة استحواذه على مصر. فالصليبيون – كما رأينا – قد وطدوا العزم على وضع أيديهم على مصر، بعد أن خبروا ضعفها، «واطلعوا على عوراتها[٤]». ولا ريب أنهم أفادوا من وجود حامية لهم فى القاهرة، أتاحت الفرصة لرجالها أن يقفوا على مدى ما تعانيه مصر من تدهور شديد، فأرسلوا إلى ملكهم عمورى الأول يستدعونه للإستيلاء عليها، وهونوا عليه من شأنها[٥]. بيد أن عمورى تردد فى الزحف على مصر، لأن الجزية التى كان يحصل عليها من مصر، تكفيه للوقوف ضد نور الدين ببلاد الشام، وخاف إن توجه إلى مصر، «فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها» لا يسلمونها للصليبيين، ويحملهم الخوف منهم على تسليمها لنور الدين، «فإذا تحقق ذلك وصار له فيها مثل شيركوه، كان

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٩؛ التاريخ الباهر، ص ١٣٤؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ص ٢٣٣ .
(٣) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٦ .
(٤) النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ .
(٥) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠١؛ التاريخ الباهر، ص ١٣٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥٦-١٥٥ .

فى ذلك هلاك للصليبيين وإجلاؤهم من أراضى الشام». وتشير المصادر الإسلامية إلى أن عمورى الأول ما لبث أن غير رأيه نزولا على رغبة الزعماء الصليبيين الذين قالوا له: «إنه لا مانع عنها ولا محامى، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة، فلا يقدر عليها»[1].

وإذا كان الملك الصليبى قد تردد فى التوجه إلى مصر ثانية، فإن ذلك لا يعنى تخليه عن فكرة السيطرة على مصر، وكل ما فى الأمر أنه أدرك شدة حاجته إلى قوة خارجية تساعده فى تحقيق أطماعه، خاصة وأن غيابه عن مملكته فى المرة السابقة جعلها محفوفة بالمخاطر من قبل نور الدين. ونتيجة لذلك اتجه عمورى الأول بنظره إلى الإمبراطور البيزنطية، فتقرب من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين، واتفقا على أن يسيرا معا إلى مصر. والواقع أن مانويل لم يكن غافلا عن أحوال مصر الداخلية، وتنافس نور الدين وعمورى الأول على الفوز بها[2]. ومن الأسباب التى دفعت مانويل إلى التعاون مع عمورى على غزو مصر، هو أنه كان يرى أن مصر كانت من ضمن أملاك الإمبراطورية فيما مضى، أى قبل الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى، وأن للإمبراطورية حقوق على مصر ويجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطى؛ ومهما اختلفت أهداف كل من عمورى ومانويل فى غزو مصر، فإن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن استيلاء الصليبيين على مصر يضعف القوى الإسلامية ويفصل الشرق الإسلامى عن مغربه، ولهذا اتفق الجانبان – عمورى ومانويل – على التعاون فى إنجاز هذا المشروع[3]. وتلى ذلك أن أرسل الإمبراطور البيزنطى سفارة إلى بيت المقدس تحمل شروطه للقيام بعمل مشترك لغزو مصر، على أن يكون الثمن الذى يتقاضاه الإمبراطور هو الحصول على نصيب من غنائم مصر، وأن يكون له التصرف المطلق فى أمر أنطاكية، فضلا عن التنازل له عن بعض ممتلكات الصليبيين[4]. ونظرًا لأن هذه الشروط كانت مجحفة بالنسبة للصليبيين، فقد أرسل عمورى إلى القسطنطينية مبعوثًا هو كبير شمامسة صور والمؤرخ

---

(١) التاريخ الباهر، ص ١٣٧–١٣٨؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥٦؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٩٠.

(٢) Grousset, L' Empopee., 312;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٣) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطوية البيزنطية، ص ٢٩٥ .

(٤) Runciman, Hist. of the6 Crusades, II, p. 379.

والترجمة العربية، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢ ، ص ٦١٢ .

الشهير وليم الصورى، لاستئناف المباحثات مع الإمبراطور البيزنطى. ولما وصل وليم الصورى إلى العاصمة البيزنطية علم أن الإمبراطور متغيبا عن عاصمته فى صربيا للقضاء على ثورة قامت ضده، فتوجه إليه وليم، وهناك تم عقد اتفاقية بين الطرفين فى سبتمبر سنة ١١٦٨ م، تنص على قيام الأسطول البيزنطى بمعاونة القوات الصليبية البرية فى غزو مصر، على أن يقتسم الإمبراطور والملك الصليبى كل ما يجرى الاستيلاء عليه بمصر؛ ورجع وليم الصورى إلى فلسطين فى أكتوبر سنة ١١٦٨م[١].

وقبل أن يرجع وليم الصورى إلى فلسطين، كان الملك الصليبى قد غادر مملكته على رأس قواته لمهاجمة مصر. ذلك أن كبار رجال الملك وباروناته قد رفضوا أن يشاركهم البيزنطيون اقتسام مصر، وقد شجعهم على ذلك وصول وليم الرابع كونت نيفر William IV of Nevers فى أواخر الصيف فى جماعة كبير من الفرسان الصليبيين إلى فلسطين، الأمر الذى جعل بارونات مملكة بيت المقدس يصرون على رأيهم. وعندئذ دعا الملك الصليبى إلى عقد مجلس لمناقشته هذا الأمر، وفى هذا المجلس تزعم مقدم منظمة الاسبتارية جلبرت الأسيلى الرأى القائل بوجوب الإسراع بغزو مصر دون انتظار لأية مساعدة بيزنطية، ووافقه معظم البارونات؛ ولكن منظمة الداوية بقيادة فيليب الميلى Philip of Milly عارضت فى توجيه حملة إلى مصر، بحجة أن هذا العمل سيحطم الإتفاقيات والعهود التى قطعها الصليبيون مع المسلمين، ويرمى بمصر فى أحضان نور الدين. وكان أن اضطر الملك الصليبى إلى الرضوخ لرأى الأغلبية، وعقدا تفاقية مع جلبرت الأسيلى، مؤداها أن يمده الاسبتار بخمسمائة فارس ونفس العدد من التركوبولى (الخيالة الخفيفة) للإشتراك فى الحملة، وفى مقابل ذلك يكون للاسبتار نصيب فى الغنائم، فضلا عن الحصول على مدينة بلبيس، وحصته من دخل مصر تبلغ مائة وخمسين ألف بيزنت[٢].

والجدير بالذكر، أن عمورى الأول قد حرص فى هذه المرة على إخفاء خطته ونواياه لتضليل نور الدين. فبدأ بالمسير على رأس حملته الرابعة من عسقلان فى المحرم سنة ٥٦٤هـ

---

(١) William of Tyre, II, pp. 347-349; Baldwin, "The Latin States" p.555; Schlumberger, op. cit., pp. 183-187; Runciman, op. cit., II, p. 379.

رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٦١٢-٦١٤؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

(٢) William of Tyre, II, pp. 350-351; Riley-Smith, op. cit., pp. 71-72; Baldwin, op. cit., p. 555; Runciman, op. cit., II, pp. 379-380.

(أكتوبر ١١٦٨م)، بعد أن تظاهر بأنه يقصد مهاجمة حمص، ثم واصل سيره حتى وصل إلى بلبيس فى صفر من نفس العام (نوفمبر ١١٦٨ م)، وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام اقتحمها، فوقعت فريسة فى يده، وأخذ فى نهب أهلها وسبيهم، وتخريب بيوتهم، وقتل الكثير منهم على صورة بشعة(١). ولاشك أن المذابح التى ارتكبها الصليبيون فى بلبيس قد كشفت النقاب عن حقيقتهم، مما أدى إلى كراهة المصريين لهم، وحملتهم على التكتل ضدهم، والاستماتة فى الدفاع عن القاهرة بعد ذلك، حتى لا يصيبها ما أصاب أهل بلبيس. وقد علق ابن الأثير(٢) على ذلك بقوله: «ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسَّن لهم ذلك ليقضى الله أمرًا كان مفعولا».

بعد أن فعل الصليبيون ما فعلوه فى بلبيس، واصلوا زحفهم على القاهرة، ثم ظهروا أمام أسوار الفسطاط ليستولوا عليها، ولكن شاور ليمنعهم أمر بإحراقها، بعد أن طلب من أهلها الإنتقال إلى القاهرة، فغادورها كلهم، وفى القاهرة آوى المهاجرون فى المساجد والحمامات والشوارع والأزقة، وبمجرد أن أخليت المدينة حمل إليها شاور فى ١٩ صفر سنة ٥٦٤ هـ (٢٢ نوفمبر ١١٦٨ م) عشرين ألف موقد ملتهب، واستمرت النار متأججة أربعة وخمسين يومًا أتت فيها على المدينة، ولم تترك منها إلا هيكلا هزيلا. وهنا أدرك عمورى الأول صعوبة الإستيلاء على مدينة القاهرة، بعد أن رأى ما أصاب الفسطاط من دمار وخراب، فتراجع عنها بعد أن قدم له شاور عرضا سخيا يدفع بمقتضاه ألف ألف (مليون) دينار(٣) مقابل الإنسحاب من مصر، فقبل عمورى هذا العرض، وعجّل له شاور بدفع مائة ألف دينار، فانسحب الصليبيون إلى المطرية بالقرب من القاهرة، وعسكروا هناك لمدة ثمانية أيام(٤).

وكان الخليفة الفاطمى العاضد عندما رأى المصاعب تمسك بخناق بلاده آنذاك، قد كتب إلى نور الدين محمود يستصرخه ويستنجد به من الغزو الصليبى، وإمعانًا فى إثارة

---

(١) William of Tyre, II, p. 351; التاريخ الباهر، ص ١٣٨؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٣٥٠؛ الدر المطلوب، ص ٢٩.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٣٨؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٩٠.

(٣) الكامل، جـ ٩ ، ص ٩٩ ، التاريخ الباهر، ص ١٣٨؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٩١ ، أولج فولكف: القاهرة؛ عبد المنعم ماجد: صلاح الدين الأيوبى، ص ٥٧-٥٨؛ Schlumberger, op. cit., pp. 196-199.

(٤) Schlumberger, op. cit., p. 208; Baldwin, op. cit., p. 556; Runciman, op. cit., II, pp. 381-382,

همته «أرسل فى الكتب شعور النساء، وقال هذه شعور نسائى من قصرى، يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»، وتعهد العاضد بأن ينزل له عن ثلث بلاد مصر، والإذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، على أن يكون نفقات هؤلاء الجند خارجة عن ثلث البلاد المقرر لنور الدين[١]. وما أن وصلت استغاثة العاضد إلى نور الدين، حتى أثرت فى نفسه تماما، وأسرع إلى تلبية النداء بإعداد قوة قوامها ثمانية آلاف فارس على رأسها شيركوه، الذى كانت الرغبة ما زالت تملأ جوانحه للمسير إلى مصر، وانضم إليه فى حملته الثالثة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى كارها متمنعا، بسبب ما عاناه من شدائد فى الحملتين السابقتين، وقد أصر نور الدين على أن يخرج رفقة عمه، ولم يدر صلاح الدين أن ذلك كان من حسن طالعه، وأن اشتراكه فى هذه الجملة كتب مستقبله الزاهر. وخير ما يعبر عن ذلك ابن الأثير[٢] بقوله: «أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح المسير وفيه سعادته وملكه»؛ ويشير ابن شداد[٣] إلى أن صلاح الدين قال له: «كنتُ أكره الناس للخروج فى هذه الموقعة (الحملة)، وما خرجت مع عمى باختيارى»، ويعقب ابن شداد على ذلك قائلا: «وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم».

لما وصلت الأخبار إلى عمورى الأول باقتراب شيركوه من مصر، خرج بجيشه إلى بلبيس فى ٢٣ صفر سنة ٥٦٤ هـ (٢٥ ديسمبر ١١٦٨ م)، على أمل أن يباغت قوات شيركوه وهى متعبة، غير أن شيركوه خيب ظنه بأن تسلل إلى الجنوب من موضع عمورى متجنبا الالتقاء به، حتى وصل القاهرة، فاستقبله أهلها مرحبين. وبذلك فاتت الفرصة على عمورى فى الالتقاء بشيركوه، وأحس بحرج موقفه، فاضطر إلى الجلاء عن مصر راجعا إلى فلسطين فى ربيع الأول ٥٦٤ هـ (يناير ١١٦٩ م)[٤]. وعلى الرغم من أن حملة عمورى على مصر قد انتهت نهاية فاشلة لمحاولة حمقاء، إلا أنه أصاب فى عدم دخوله هذه المرة فى معركة مع شيركوه الذى كان تحت إمرته ثمانية آلاف مقاتل انتقاهم نور الدين من

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٠؛ التاريخ الباهر، ص ١٣٨-١٣٩؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٩١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ١٥٨.

(٢) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٠؛ التاريخ الباهر، ص ١٣٩.

(٣) النوادر السلطانية، ص ٣٩؛ الدر المطلوب، ص ٣١.

(٤) William of Tyre, II, pp. 355-356; Riley-Smith, op. cit., p. 72.

أفضل العناصر، يضاف إلى ذلك أن المصريين وقتئذ التفوا حول شيركوه، ومالوا إليه باعتباره المدافع عنهم[١].

أيقن شاور أن غاية شيركوه البقاء فى مصر، وأن الأمر قد خرج من يده، ووجد نفسه وحيدًا فى الميدان، ولذلك أخذ يتودد إلى شيركوه، ويتقرب إليه بشتى الطرق، ولكن شيركوه كان على دراية تامة بغدره وألاعيبه التى لم تنطل عليه. ومما يدل على تقلب شاور أنه حاول تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه، ثم الفتك بهم جميعا، ولكن ابنه نهاه عن ذلك وعارضه قائلا: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا، فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج»[٢]. ولما تبين لشيركوه خيانة شاور وغدره عوّل على التخلص منه، فاتفق مع أصحابه على قتله، وتلا ذلك أن استدرجه صلاح الدين الأيوبى وجماعة من الجند إلى ضريح الإمام الشافعى، وقاموا بقتله فى ١٧ ربيع الأول ٥٦٤هـ (١٨ يناير ١١٦٩ م)، وأباحوا للناس نهب دوره[٣]، وانتهت بذلك حياته المليئة بالخيانة والدسائس. وبلغ العاضد ما حدث لشاور. فلم ينكره، بل طلب من شيركوه أن يرسل إليه رأس شاور، فأرسله إليه؛ ثم دخل شيركوه القصر الفاطمى، فخلع عليه العاضد بخلع الوزارة، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وأصدر العاضد منشورًا بذلك يقول: «هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوة النبوة»[٤].

وكان من الطبيعى بعد أن تقلد شيركوه منصب الوزارة، وصارت له السيادة العليا فى مصر، أن يعمل على تدعيم مركزه فى مصر، فأخذ ينظم شئون البلاد، واستعمل على الأقاليم والأعمال من يثق فيهم، وأقطع البلاد لعساكره الذين أتوا معه، وأطلق يد ابن أخيه صلاح الدين فى تصريف أمور الدولة لكفايته ودرايته ومهارته السياسية[٥]. والواقع أن

---

(١) Stevenson, op. cit., p. 194.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٤٠؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٩٦-٣٩٧؛ النجوم الباهرة، جـ ٥ ، ص ٣٥١؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، الجزء الأول، تحقيق د. حسن محمد الشماع (العراق ١٩٦٧ م)، ص ٣١ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٠-١٠١؛ التاريخ الباهر، ص ١٤٠؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٦١-١٦٢؛ الدر المطلوب، ص ٣٥؛ تاريخ ابن الفرات، ص ٣١-٣٢.

(٤) تتمة المختصر، جـ ٢ ، ص ١١٦؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٥) النوادر السلطانية، ص ٤٠؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٠٢ ، إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٣٠٤ .

مصر وقتئذ بدأت تدخل عهدًا جديدًا من تاريخها. غير أن المقادير شاءت ألا يبقى شيركوه في الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام، إذا أدركته المنية فجأة في ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ (٢٣ مارس ١١٦٩ م)، نتيجة إفراطه الشديد في الأكل (مرض التخمة)، إذ «كان كثير الأكل للحوم الغليظة، فكانت تورث عليه التخمة والخوانيق، فاعتراه خانوق فمات منه فجأة»[١].

ويهمنا القول هنا أن الدور العظيم الذي أداه شيركوه في بناء وحدة مصر والشام، جعل نور الدين محمود والمشرق الإسلامي يدينان له بالكثير. فقد كان طوال حياته محاربا لا يكل ولا يهدأ، بعيد النظر، نفذ خططه بعزم وإصرار وشجاعة، ولو حدث أن وفاته جاءت قبل موعدها بستة أشهر، لكان لها وقع الكارثة على سيده نور الدين والمسلمين، ولكن شاءت الأقدار أن تكتب وفاته بعد أن أنجز عمله العظيم؛ ومن ناحية أخرى، فإن الخدمة التي ساهم بها شيركوه في حركة الجهاد الإسلامي جديرة بأن تكتب بأحرف من ذهب في سجل التاريخ، ففي خلال عشرين عامًا من استيلائه على مصر، عادت مدينة بيت المقدس وغالبية الأقاليم التي انتزعها الصليبيون إلى أصحابها المسلمين[٢].

صلاح الدين الأيوبي :

ولد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) بقلعة تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، في نفس الليلة التي غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك البلدة، وتوجه أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه إلى عماد الدين زنكي بالموصل، حيث دخلا في خدمته، وسرعان ما شاركا في حروبه وجهوده الرامية إلى تكوين جبهة إسلامية قوية لطرد الصليبيين من الشام، ثم صار أيوب حاكما على بعلبك التي أقطعها إياه عماد الدين زنكي سنة ١١٣٩ م[٣]. وعلى الرغم من أن أخبار صلاح الدين قد ملأت صفحات ضافية

(١) مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٦٧–١٦٨؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٣٨ ، شذرات الذهب، جـ ٤، ص ٢١١.

(٢) Stevenson, op. cit., 194.

(٣) الدرة المضية، ص ٥١٠؛ البداية والنهاية، ص ٢٦٣؛ محمد مصطفى زيادة: الدولة الأيوبية، مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، ص ٤٥١؛ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٥٢.

فى المصادر الإسلامية المعاصرة واللاحقة، إلا أن تلك المصادر لا تشير إلى شىء بالتفصيل عن حياة صلاح الدين أثناء إقامته فى بعلبك، فيما عدا أنه نشأ فى كنف أبيه، وأنه تقلب فى بيئة عالية مهادها العلم والتقى. ولابد أنه قضى معظم أيامه فى تعلم علوم طبقته وفنونها، فدرس القرآن الكريم والحديث والفقه والنحو والتاريخ واللغة والأدب، فضلا عن فنون الفروسية والصيد وغيرها من فنون أبناء الطبقة الحاكمة. ثم لحق صلاح الدين بعمه شيركوه فى حلب، حيث كان شيركوه فى خدمة نور الدين ومقدم عسكره، وحصل على إقطاع بها[١].

ولما استولى نور الدين على دمشق استدعى نجم الدين أيوب إليها، وأقطعه بها إقطاعا جليلا، وأكرمه من أجل أخيه شيركوه صاحب اليد الطولى فى فتح دمشق، وجعل تورانشاه الابن الأكبر لنجم الدين فى شحنة دمشق (رئيس الشرطة بها)، ثم جعل أخاه صلاح الدين فى هذا المنصب سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)[٢]. غير أن صلاح الدين لم يلبث أن تخلى عن منصبه، بسبب ما وقع بينه وبين صاحب الديوان من خلاف، فرجع إلى حلب مرة أخرى، وهناك شمله نور الدين بعنايته لمهارته فى لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعبتها فى ميدان حلب، فاختص به لذلك، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر[٣]. ثم ولّى صلاح الدين شحنة دمشق مرة أخرى فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠م)، «فأظهر السياسة وهذب الأمور»[٤]. وفيما عدا ذلك لا نعرف شيئا آخر عن صلاح الدين، غير أنه سار على نهج نور الدين فى الاستقامة والسلوك الطيب، والجهاد فى سبيل الله[٥]. وفى ذلك يقول البندارى[٦]: «وكان صلاح الدين أحد خواصه وأخلص ذوى استخلاصه، لا يفارقه راكبا فى ميدانه ولا جالسًا فى إيوانه، يقف على رأسه ووالده (نجم الدين أيوب) من جلاسه، وقد اقتدى به فى جميع ما اتصف به من التقى والعفة والنزاهة والنباهة وآداب

---

(١) الباز العرينى: الشرق الأوسط، جـ ١، ص ٧١٠، مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٣-٢٤؛ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص ٥٢؛ Newby, Saladin., pp. 33-34.

(٢) البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٣٢- ٢٣٣؛ Gibb, "The Rise of Saladin", p. 563.

(٣) الباز العرينى: الشرق الأوسط، جـ ١، ص ٧١٠؛ مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٤؛ Gibb, op. cit., 563-564.

(٤) شذرات الذهب، جـ ٤، ص ١٨٨؛ Gibb, op. cit., p. 564; Newby, Saladin., p.35.

(٥) Gibb, op. cit., p. 564.

(٦) سنا البرق الشامى، ص ٥٦٢-٥٨٣.

الملك وأحكام السلطنة، فتلقى منه مبادئ الخيرات ثم جاوز بها فى أيامه الغايات». ويصف ابن خلكان[١] صلاح الدين وخلاله بقوله: «وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد، حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية».

ومهما يكن من أمر، فإن الأحداث التى جرت فى مصر والشام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، قد حددت مستقبل صلاح الدين. ذلك أنه ظل حتى الخامسة والعشرين من عمره بعيدًا عن أى أعمال تؤهله إلى أن يصبح له ما أصبح من القوة والنفوذ، على حين أن عمه شيركوه الذى دفعه إلى الحياة العامة دفعا، كان وقتذاك الساعد الأيمن لنور الدين؛ هذا ويلاحظ أن صلاح الدين لم يشترك فى الحروب التى خاضها عمه حتى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م)، وهى السنة التى اختاره فيه عمه ليصحبه فى الحملات التى قادها إلى مصر[٢].

زوال الخلافة الفاطمية :

بعد أن وورى جسد أسد الدين شيركوه التراب، تنازع أمراء نور الدين وقواد الجيش الأيوبى على كرسى الوزارة. إذ طلب جماعة من الأمراء النورية أن يخلفوا شيركوه فى قيادة الجيش وولاية الوزارة، منهم عين الدولة الياروقى، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكارى، وشهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين؛ أما صلاح الدين فقد كان معه الفقيه عيسى الهكارى الذى استطاع أن يستميل إلى صلاح الدين المشطوب والحارمى، إذ قال للأخير: «هذا ابن أختك وملكه لك، وكذا فعل بالباقين، فمالوا إليه إلا الياروقى، قال: أنا لأخدم يوسف (صلاح الدين)، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين[٣]». على أن الخليفة الفاطمى العاضد حسم الأمر باختيار صلاح الدين للوزارة دون غيره من الرجال لحداثة سنه الذى لم يتجاوز آنذاك الثانية والثلاثين من عمره، ظنًا منه أنه أقل رجال

(١) وفيات الأعيان، جـ ٧ ، ص ١٤٥.
(٢) الباز العرينى: الشرق الأوسط، جـ ١ ، ص ٧١١ ، مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٤-٢٥ .
(٣) الكامل، جـ ٩ ، ١٠٢؛ التاريخ الباهر، ص ١٤٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٦٨؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ، ص ١١٧؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ، ص ١٧-١٨ .

الجيش النورى خبرة بشئون الحرب والسياسة، وبذلك يصير أداة طيعة فى يده أكثر مما كان شيركوه[1]. وقد كتب العاضد فى طرة العهد المكتتب عنه بالوزارة لصلاح الدين: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله تعالى عليك، فأوفى بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدّنا رسول الله ﷺ أحسن أسوة، ولمن بقى بقربنا أعظم سلوة، (وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوا فى الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين)»[2]. ويعلق المؤرخ ابن واصل[3] على هذا العهد، وكأنه بحاسته التاريخية الواعية كان يقرأ المستقبل، بقوله: «وهذا آخر منشور كتب عنهم، وانقرض أمرهم، وانفصمت عرى دولتهم. وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، وأخذت الدولة المصرية (الفاطمية) فى الوهن والضعف والانحطاط، إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين». والواقع أن صلاح الدين لم يكن سهلا بالصورة التى تخيلها العاضد، فقد برهن على مقدرته قائدًا عسكريا وعلى براعته سياسيا. والدليل على ذلك أنه ما كاد يتسلم زمام الأمور حتى خيب ظن العاضد، ولقنه درسًا لا ينساه، فقد حجر على العاضد نفسه، ومنعه من كل تصرف، وبدأ فى استمالة قلوب الناس إليه، بما بذله من أموال وهدايا،«وشرع فى نقص إقطاع المصريين، وأعطاها الشاميين»، الأمر الذى ساعد على تقوية نفوذه، وإضعاف سلطة العاضد. كما أن صلاح الدين أخضع مماليك عمه شيركوه، وأحكم قبضته على الجند، بعد أن «أحسن لجميع العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه»[4]. ومما ساهم فى تدعيم مركز صلاح الدين وقتئذ، أن نور الدين محمود أمده بقوة جديدة من العسكر، كان فيها شمس الدين تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين»[5].

على أن الصعاب كان تهدد صلاح الدين منذ أن تولى منصب الوزارة، فالخلافة الفاطمية لا زالت موجودة يسندها الجيش الفاطمى وكبار رجال الدولة الفاطمية، وأهم من ذلك أن الخطر الصليبى لا زال على مقربة من أبواب مصر الشرقية.

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٢ ؛ التاريخ الباهر، ص ١٤٢ ؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ، ص ١٦-١٧؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦٦ أ؛ Lamb (H.), The Crusades, The Flame of Islam (London, 1931), p. 36.

(٢) سورة القصص: آية: ٨٣ . القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٩ ، ص ٤٠٧؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٧٠-١٧١؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ٣٠٩ .

(٣) مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٧١ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ، ١٠٢؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٦٨- ١٧١؛ ابن أبى الهيجاء، تاريخه، ورقة ١٦٦ ب؛ النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٣٥ .

(٥) تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، جـ ١ ، ص ٦٧.

وكانت المؤامرة التى تزعمها جوهر مؤتمن الخلافة أحد طواشية القصر الفاطمى – وهو نوبى – وقائد الجند السودانيين، أولى المتاعب الحقيقية التى واجهت صلاح الدين. ذلك أن صلاح الدين عقب اعتلائه منصب الوزارة، ضايق أهل القصر وأثقل عليهم، واستبد بأمورا لدولة، وأضعف مركز الخلافة، فاستقر رأى المتآمرين على ضرورة التخلص منه بمكاتبة الصليبيين ودعوتهم إلى مصر، فإذا جاءوا إليها وخرج صلاح الدين للقائهم، قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة، فتصير البلاد قسمة بينهم وبين الصليبيين. غير أن صلاح الدين مالبث أن أمسك بخيوط المؤامرة، وأرسل إلى جوهر جماعة من أصحابه بقيادة أخيه تورانشاه، تمكنوا من قتله فى سنة ٥٦٤ هـ (أواخر سنة ١١٦٩ م)[١]. ونتيجة لذلك ثار الجند السودانيون تعصبا لمؤتمن الخلافة، وكان عددهم يربو عن خمسين ألف، ودارت معركة عنيفة بينهم وبين قوات صلاح الدين فى المكان المعروف ببين القصرين بالقاهرة، انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة. وكان الخليفة العاضد قد ظن فى أول الأمر أن الجند السودانيين سينتصرون ويخلصونه من قبضة صلاح الدين، فأمر «من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة»، وعندئذ هدد تورانشاه بإشعال النار فى قصر العاضد، فلم يسع العاضد إلا أن غير موقفه بسرعة، وقال: «دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم...». وكان الجند السودانيون يعتمدون على تأييد العاضد، فلما تخلى عنهم تخاذلوا وفت فى عضدهم، وفرت فلولهم إلى الصعيد، فأخذ جند صلاح الدين فى تعقبهم فى أقاصى الصعيد، إلى أن قضى على نفوذهم نهائيا فى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م)، بحيث «لم يبق منهم إلا القليل الشريد». وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن، فقام بإشعال النار فى معسكراتهم، وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودانيون[٢]، وبذلك ضعف أمر العاضد بالقضاء على حرسه. وهكذا قضى صلاح الدين على جيوب الخيانة والمقاومة التى حاولت الوقوف فى وجه مشاريعه، ولم يبق أمامه إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم الواسعة إلى مساندة الأوضاع القائمة، فتخلص منهم صلاح الدين، وأحل محلهم فى إقطاعاتهم جماعة من رجال أهل الشام[٣].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٣؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٧٥– ١٧٦؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ، ص ٢٥٨؛ سنا البرق الشامى، ص ٤٣– ٤٤؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، جـ ١ ، ص ٦٧–٦٨ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ، ص ١٠٣–١٠٤؛ مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٧٦–١٧٧؛ الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٥٠–٤٥١؛ تاريخ ابن الفرات، ص ٦٨–٧٢، إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٣١٣ .

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٤– ٢٥؛ الناصر صلاح الدين، ص ٨٣–٨٤ .

لم يكد صلاح الدين ينفض يده من مؤامرة جوهر ومشكلة السودانيين، حتى واجه أزمة أخرى أشد وطأة. ذلك أن الصليبيين بعد أن وحد نور الدين محمود بين مصر والشام أدركوا الخطر الداهم الذى يهدد وجودهم من الشمال والجنوب. وتفاقم الإحساس بالخطر إلى حد جعل عمورى الأول ملك بيت المقدس يبعث بسفارة إلى ملوك وأمراء الغرب الأوربى فى أوائل سنة ١١٦٩ م، لتطلب من فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا وكبار أتباعه، وهنرى الثامن ملك إنجلترا، ووليم الثانى ملك صقلية، وغيرهم من كبار حكام أوربا، الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لإنقاذ الموقف الصليبى المتردى بالشرق، ولكن انشغال حكام أوربا وقتئذ بأمورهم الخاصة حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول، وعادت السفارة إلى مملكة بيت المقدس دون أن تبلغ غرضها[1]. وبذلك لم يبق أمام الملك الصليبى سوى الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية.

والواقع أن الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين كان لا يزال راغبًا فى تنفيذ دوره فى الاتفاق الذى عقده معه وليم الصورى فى سبتمبر ١١٦٨ م للاشتراك فى غزو مصر، مع أن الصليبيين لم ينتظروا قدوم البيزنطيين، وانفردوا بمهاجمتها كما رأينا من قبل. وكان أن رحب الإمبراطور البيزنطى بتجديد التحالف، وذلك بالإشتراك مع الصليبيين فى مهاجمة مصر برًا وبحرًا عن طريق دمياط واقتسامها، ولهذا الغرض أعد أسطولا ضخما مؤلفا من مائة وخمسين سفينة حربية مسلحة تسليحًا متقنا، وستين سفينة لنقل الخيول، وحوالى من عشرة إلى عشرين سفينة لنقل المؤن وآلات الحرب؛ وقد غادر هذا الأسطول مياه الدردنيل، ووصل إلى ميناء عكا شتاء سنة ١١٦٩ م؛ على أن الصليبيين أبطأوا فى تجهيز قواتهم، فلم يتم إعدادها إلا فى منتصف أكتوبر ١١٦٩ ، وبذلك افتقدت الحملة عنصر المباغتة، ووقف صلاح الدين على نوايا الصليبيين، فاتخذ حذره[2]. ثم ما لبثت الحملة الصليبية البيزنطية أن خرجت من عسقلان فى أول صفر ٥٦٦هـ (١٦ أكتوبر ١١٦٩م)

---

(١) William of Tyre, II, pp. 360 - 361; Baldwin, op. cit., p. 556.
سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية، ص ٢١٨ - ٢١٩؛ الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧١٦ - ٧١٧

(٢) William of Tyre, II, p. 361; Stevenson, op. cit., p. 196; Davis (R.H.C.), "William of Tyre", p. 69.

الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٧١٨ - ٧١٩ .

إلى الفرما. (بيلوزيوم) بالقرب من البحر على الفرع الشرقى للنيـل، ومنهـا سارت بحذاء شاطىء بحيرة المنزلة، حتى وصلت دمياط فى ٢٧ أكتوبر ١١٦٩[١].

وكان صلاح الدين قد ظن أن الحملة الصليبية البيزنطية فى هذه المرة ستسلك الطريق الذى سلكته الحملات الصليبية السابقة، فعمل على تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية، فلما تبين له أن الحملة اتجهت إلى دمياط «أرسل إليها العساكر فى النيل، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر»، ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يغادر القاهرة إلى دمياط وقتئذ، خشية أن يقوم أنصار الدولة الفاطمية بإشعال ثورة ضده، ولذلك أرسل إلى دمياط ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين، وفى نفس الوقت أرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، «فسير نور الدين العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضا»، كما قام نور الدين بالهجوم على معاقل الصليبيين بالشام ليخفف الحصار عن دمياط، جريًا على عادته عندما تواجه مصر تهديدًا صليبيًا[٢]. ومما يذكر هنا أن الخليفة الفاطمى العاضد وقف أثناء حصار الصليبيين والبيزنطيين لدمياط إلى جانب صلاح الدين باعتباره وزيره، فأخذ يرسل له الأموال والثياب تباعا، وحفظ صلاح الدين للخليفة هذا الموقف المشرف بقوله: «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرى، سوى الثياب وغيرها»[٣].

ومما يسترعى الانتباه أن القوات البيزنطية أخذت تعانى نقصًا حادًا فى المؤن والأقوات منذ أن وصلت إلى دمياط، وسرعان ما نفذت الأقوات، وكادت تلك القوات أن تموت جوعا، على حين ضنت القوات الصليبية بما لديها من مؤن قليلة على أنقاذ البيزنطيين من خطر المجاعة، الأمر الذى ترتب عليه نشوب النزاع بين عمورى ملك بيت المقدس وقائد القوات البيزنطية. وزاد من سوء وضع القوات المتحالفة أن هبت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت معسكر عمورى الأول وحولته إلى مستنقع، فى الوقت الذى أبدى

(١) William of Tyre, II, pp. 362 - 363; Baldwin, op. cit., p. 557; Grousset, L' Epopée., pp. 235 - 236; الكامل، جـ ٩ ص ١٠٥ ، النوادر السلطانية، ص ٤١ – ٤٣؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٧٩ – ١٨١.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٠٥؛ النوادر السلطانية، ص ٤٢ – ٤٣؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٨١ – ١٨٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٤٥٦ – ٤٥٧؛ Baldwin, op. cit., p.557.

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٤٤؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٨٣؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١١٩؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٧ .

المسلمون شجاعة فى الدفاع عن المدينة، وأخذوا يشنون الهجوم على معسكرات القوات المتحالفة، ونتيجة لذلك فشل الحصار المضروب على دمياط، ورجعت الحملة الصليبية البيزنطية إلى عسقلان فى ٢٨ ربيع الأول ٥٦٥هـ (٢١ ديسمبر ١١٦٩م)، دون أن تحقق شيئا من أهدافها، بعد أن تسرب اليأس إلى نفوس رجالها[١].

ويعتبر البعض أن فشل الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحول فى تاريخ الشرق الأدنى، إذ لو حدث أن عمورى الأول لم ينفرد بالهجوم على مصر فى سنة ١١٦٨م، فإن التحالف الصليبى البيزنطى كان من الممكن أن يمنع اتحاد مصر والشام، ولو حدث أيضا أن البيزنطيين قد اعتنوا بتجهيز أنفسهم بالمؤن اللازمة، وهم فى هذا يقع عليهم اللوم الشديد، فمن المحتمل أن القوات المتحالفة أمكنها إيقاع الهزيمة بصلاح الدين فى الظروف الصعبة التى كان يمر بها قبل أن يقوى قبضته على مصر[٢]. وينبغى ألا ننسى أن فشل تلك الحملة يعتبر أيضا نقطة تحول هامة فى تاريخ صلاح الدين، وفى تاريخ الحملات الصليبية على مصر، ذلك أن انتصار صلاح الدين أقنع الخلافة الفاطمية المتداعية والباقين من رجالها وأهل القاهرة بأنه يستطيع حماية الدولة من إغارة المغيرين، وحماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز صلاح الدين إعجاب الجميع[٣]. ومما يزيد أهمية فشل هذه الحملة أنها آخر عمل مشترك تعاونى بين الصليبيين والبيزنطيين فى الحروب الصليبية، كما أنه أول نصر حربى أحرزه صلاح الدين ضد الصليبيين بعد أن صارت له الوزارة[٤].

ويبدو أن الخليفة الفاطمى العاضد كان يتطلع من وراء الحملة الصليبية البيزنطية إلى التحرر من نفوذ وزيره صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذى آلت إليه هذه الحملة خيب أمله. ومما يؤكد ذلك أنه فى أعقاب رحيل تلك الحملة أرسل العاضد إلى نور الدين محمود يطلب منه سحب جنده الأتراك من القاهرة لأنهم زرعوا الخوف فى نفوس أهلها، والاكتفاء بصلاح الدين وخواصه وأعوانه، فكتب إليه نور الدين «يمدح الأتراك، ويعلمه

---

(١) William of Tyre, II, pp.366 -368; Baldwin, op. cit., p.558.

(٢) Baldwin, op. cit., p. 558.

(٣) محمد مصطفى زيادة: الدولة الأيوبية، ص ٤٦١ .

(٤) فسر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ١١٩٠، Brooke, A Hist. of Europe., p. 489.

أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (رماح) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، وأن الفرنج لايخافون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية، ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس»[١].

ولما فرغ صلاح الدين من الحملة الصليبية البيزنطية، رأى أن يجمع حوله أفراد أسرته وعشيرته، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم فى تصريف شئون مصر، فلم يتأخر نور الدين عن الاستجابة لهذا الطلب، وأرسلهم مع قوة من الجند، وانضم إليهم عدد كبير من التجار الشاميين لتبادل التجارة مع مصر؛ وحرصًا من نور الدين على تأمين سلامة القافلة أثناء اجتيازها أراضى الصليبيين، هاجم حصن الكرك، فوصلت القافلة إلى مصر فى جمادى الآخرة ٥٦٥هـ (فبراير ١١٧٠)، ولم يلبث صلاح الدين أن جعل أباه على بيت المال، وأقطع إخوته وأعمامه وأبناء عمومته بعض الأراضى[٢].

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التى كان يمر بها صلاح الدين آنذاك، لم يغفل أمر الصليبيين، ففى ١٩ ربيع أول سنة ٥٦٦هـ (أول ديسمبر ١١٧٠م) خرج لمهاجمة معاقلهم، فأغار على عسقلان والرملة، وفرض الحصار على قلعة الداروم التى بناها الملك الصليبى عمورى الأول جنوبى غزة، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها، لأن عمورى أتى مسرعًا على رأس قواته لنجدتها، واكتفى صلاح الدين بتدمير نواحى غزة ونهبها[٣]. ولما رجع صلاح الدين إلى القاهرة، بنى عددًا كبيرًا من السفن، وحمل أجزاءها مفككة على ظهور الجمال إلى ميناء أيلة الواقع فى خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر، وهناك ركب الصناع السفن وألقى بها صلاح الدين فى البحر، ثم زحف على قلعة أيلة وحاصرها برًا وبحرًا، حتى سقطت فى يده فى الأسبوع الثالث من ديسمبر من نفس العام، وأسر من فيها من رجال الحامية الصليبية، وعاد إلى القاهرة[٤]. وتعتبر أيلة أول معقل صليبى يقع فى يد صلاح الدين[٥].

(١) مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٨٣؛ تاريخ ابن الفرات، ص ٨٧ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٠٦؛ التاريخ الباهر، ص ١٤٤؛ النوادر السلطانية ص ٤٤؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١١٧ - ١١٨؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٦ - ٧؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ص ٣٢٠ .

(٣) Baldwin, op. cit., p. 558.

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٠؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٩٩؛ إتعاظ الحنفا، جـ ٣ ص ٣٢؛ William of Tyre, II, pp. 371 - 375; Stevenson, op. cit., p. 199.

(٥) Newby, Saladin., p. 61.

وفى هذه السنة أيضا، وهى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) وجه صلاح الدين اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى، وأناب عنه قضاة شافعية فى جميع أنحاء البلاد، فارتفع شأن المذهب السنى، وانحسر المذهب الإسماعيلى تدريجيا، حتى اختفى فى النهاية، «ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به»[١]. كذلك استمر صلاح الدين فى خطته الرامية إلى القضاء على رسوم الدولة الفاطمية ومعالمها، فأبطل من الآذان حى على خير العمل، محمد وعلىّ خير البشر»، ووضع يده على القصور الفاطمية، وعين على حراستها الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى، وجرّد العاضد وجميع أفراد أسرته من أموالهم وأمتعتهم، وضيق على سائر أهل القصر[٢].

ومن الجدير بالذكر، أنه رغم انفراد صلاح الدين بالسلطة فى مصر، واهتمامه بسياسة إضعاف المذهب الإسماعيلى، إلاّ أنه ظل متخوفا من إقامة الخطبة للخليفة العباسى. ذلك أن موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة كان موقفا غريبًا فى حد ذاته، فهو وزير للخليفة الفاطمى العاضد الشيعى، وفى نفس الوقت قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء، ومع هذا كان صلاح الدين يتبع فى سياسته إزاء الرجلين الحكمة والتؤدة[٣]. ومن هذا المنطلق أعرض صلاح الدين فى بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين عندما أصدر اوامره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمى تحقيقا لوحدة العقيدة فى العالم الإسلامى، وقد اعتذر صلاح الدين بتخوفه من قيام المصريين بثورة، ولكن نور الدين عاد وألزمه بقطع الخطبة. وفى هذا الصدد يقول ابن واصل[٤]: «كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة العباسى، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك، لميلهم إلى العلوية، فلم يُصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه إلزامًا لا فسحة فيه...». ونتيجة لذلك، وجد صلاح الدين نفسه فى وضع لايسمح له بالخروج على أوامر سيده، فاضطر إلى اتخاذ تلك الخطوة، وألقيت أول خطبة للخليفة

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١١١٠؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٩٧ – ١٩٨؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٢١.

(٢) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٠٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٤٨٨؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٠؛ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص ٥٦ .

(٣) جمال الدين الشيال: «مصر فى العصر الفاطمى»، ص ٤٥٥ .

(٤) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٠٠؛ التاريخ الباهر، ص ١٥٦ .

العباسى المستضىء بنور الله بالفسطاط فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١م)، فلم يحتج أحد. ويقال إن العاضد كان مريضا وقتذاك مرضا ميئوسًا منه، فأخفى عنه ذلك أهله وأصحابه، حتى توفى فى العاشر من المحرم (يوم عاشوراء) من نفس العام[1]، دون أن يدرى بأمر هذا القرار الحاسم الذى أطاح بالخلافة الفاطمية.

وإذا كان المؤرخ ابن واصل[2] قد اعتبر تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية قيام الدولة الأيوبية فى مصر كما ذكرنا من قبل، فإنه رأى فى قطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد وإقامتها للخليفة العباسى، تأكيدًا القيام تلك الدولة، إذ قال: «واستقر قدم بنى أيوب بمصر، واستثبت الملك لهم».

وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية الشيعية، وعادت مصر إلى حظيرة المذهب السنى. وقد حكمت تلك الخلافة أكثر من مائتى عام (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م)، كانت مصر خلالها إمبراطورية واسعة الأطراف، نافست الخلافة العباسية. ومن الثابت أن زوال الخلافة الفاطمية قد أحدث دويا هائلا تردد صداه فى أرجاء العالم الإسلامى. والدليل على ذلك أنه لما وصل الخبر إلى الخليفة العباسى المستضىء بنور الله «زينت بغداد وظهر من الفرح والجذل مالا حد عليه»[3]. وسير المستضىء الخلع الثمينة الرائعة لنور الدين وصلاح الدين، ومعها الأعلام السود شعار العباسيين، «وكان فيما أرسل لنور الدين طوق ذهب وزنه ألف مثقال وحصانان، وسيفان تقلد بهما إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام»[4].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١١١ - ١١٢؛ التاريخ الباهر، ص ١٥٦؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٠٠-٢٠١؛ الروضتين، جـ ١ ص ٤٩٢-٤٩٣؛ سنا البرق الشامى، ص ٨٥؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٢١-١٢٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٤٧؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، جـ ١، ص ١٦١-١٦٣.

(٢) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٢ .

(٤) التاريخ الباهر، ص ١٥٧؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ٢١٩ - ٢٢٠؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، جـ ١ ص ١٧٨.

الفصل الخامس

صلاح الدين واكتمال الوحدة الإسلامية في مصر والشام والجزيرة

- الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين.
- صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام.
- تحصين مصر.
- موقف الصليبيين من صلاح الدين.
- ضم حلب والموصل إلى الجبهة الإسلامية.

زالت الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ (١١٧١)، وأقام صلاح الدين على أنقاضها – من الناحية العملية – دولة سنية تحمل إسم أسرته. على أن تلك الدولة لم تتوطد دعائمها بعد، بسبب العلاقة التى تربط صلاح الدين بنور الدين محمود، فحتى ذلك الحين ظل صلاح الدين يباشر نفوذه في مصر، بوصفه وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، وفى نفس الوقت تابعًا لنور الدين ونائبا عنه فى مصر؛ ولعل من الواضح أن الأمر كان يستوجب على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين، ويختار لنفسه أحد طريقين، فإما أن يظل على ولائه له، باعتباره ممثلا له فى مصر، وفى هذه الحالة عليه أن يطيع أوامر سيده، وإما أن يستقل عنه ويخرج عليه[١]. والحقيقة أن صلاح الدين كان بعيد النظر فى هذا الشأن، فقد أدرك بحكم وجوده بمصر أهميتها فى القيام بالدور الحاسم فى معركة الجهاد ضد الصليبين، نظرًا لما تملكه مصر من إمكانات بشرية ومادية هائلة وموقع استراتيجى هام. ولذلك استقر رأيه على تأسيس دولة تحمل اسم أسرته، قادرة على القيام بهذا الدور، بينما كان نور الدين يرى أن بلاد الشام هى ميدان الصراع الحقيقى بين المسلمين والصليبيين، وأن دور مصر فى هذا الشأن لا يتعدى كونها ولاية من الولايات التى تمده بنفقات الحرب والقوة البشرية[٢].

الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين :

وقد شهدت الفترة التالية لزوال الخلافة الفاطمية جفوة فى العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين، وهى التى تعرف فى المصادر العربية باسم الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. وترجع بداية الجفوة بين الاثنين إلى صفر سنة ٥٦٧هـ (أكتوبر ١١٧١)، عندما دعى نور الدين نائبه صلاح الدين ليسير بقواته إلى حصن الشوبك Krak de Montreal ، حيث قرر هو الآخر السير إليه فى نفس الوقت، ومن ثم يتعاون الاثنان على الاستيلاء عليه. وتنفيذًا لتعليمات نور الدين خرج صلاح الدين من مصر على رأس قواته، وضيق الحصار على الحصن، وكاد أن يفتحه، ولكنه ما لبث أن رفع الحصار عنه عندما علم بمسيرة نور الدين إليه من دمشق لمساعدته، وأرسل إليه كتابا مؤداه أن الموقف فى مصر

(١) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ٩٦ .

(٢) Gibb, "The Rise of Saladin", pp. 565-566.

غير مأمون العواقب، وأنه يخشى انتفاض الفاطميين واضطراب البلاد أثناء تغيبه، الأمر الذى يستدعى رجوعه إلى مصر، فغضب نور الدين لذلك، وعزم على دخول مصر، وإبعاد صلاح الدين عنها[١].

ويبدو أن صلاح الدين أحس أن علاقته بنور الدين تسير فى طريق مسدود. ولذلك أسرع إلى عقد اجتماع مع أهله وعشيرته وفيهم والده وخاله وسائر الأمراء وأخبرهم بحقيقة الموقف، واستشارهم فيما ينبغى اتخاذه لمنع نور الدين من القدوم إلى مصر، فأشار عليه البعض مثل ابن أخيه تقى الدين عمر بالوقوف فى وجه نور الدين ومحاربته، ولكن نجم الدين أيوب – والد صلاح الدين – هب واقفا فى الاجتماع مسفهًا ومنكرًا ذلك الرأى، وشتم تقى الدين وأقعده، ثم وجه الحديث إلى صلاح الدين قائلا: «أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين، لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقه بالسيف لفعلنا!». ثم خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين وقال له: «أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكبير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم ترمعك من هذا العسكر أحدًا»؛ ثم طلب إليه أن يكتب لنور الدين، مظهرًا له الولاء والإخلاص، ففعل ما أشار به والده عليه[٢]. ومن المؤكد أن نجم الدين تصرف بحكمة تثير الدهشة والإعجاب، وأثبت فعلا أنه السند الأكيد لابنه فى تلك المرحلة الحرجة التى تمر بها الدولة الأيوبية الفتية. فعلى الرغم من أن القوات التى تحت يد صلاح الدين كانت تدين له بالولاء والطاعة، إلا أن ظهور نور الدين فى مصر سوف يكون كافيا لحمل هذه القوات على التخلى عن صلاح الدين، وهذا ما أدركه ووعاه صلاح الدين فعلا[٣].

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١١٢ – ١١٣؛ التاريخ الباهر، ص ١٥٨؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٢١ ؛ السلوك، جـ ١ ص ٤٨ – ٤٩؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢١ – ٢٢؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، جـ ١ ص ١٨٤ –١٨٥ .

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٥٨ – ١٥٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٢٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥١٨ – ٥١٩ ؛ السلوك ، جـ ١ ص ٤٩ ؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٢ – ٢٣ .

(٣) Lamb,The Crusades., p. 41.

وطبقا للإرشادات التى تلقاها صلاح الدين من أبيه، فقد أرسل إلى نور الدين هدية قيمة من الحيوانات النادرة، وذخائر وأمتعة انتقاها من مقتنيات القصر الفاطمى، وجواهر، وطيب وعطر، ومصنوعات غريبة، فلما وصلت الهدية إلى نور الدين استقلها، وإن كان قد «أظهر شكر صلاح الدين، ووصف فضيلته»[1]. ومع هذا فقد ظل نور الدين على توجسه من موقف صلاح الدين ومشاريعه، وأراد أن يقف على حقيقة ما يجرى فى مصر، فأرسل وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى، لعمل حساب مفصل عما استولى عليه صلاح الدين من قصور الخلفاء الفاطميين، فقدم إليه صلاح الدين البيانات المطلوبة، وأحاطه علما بأموال الجند، وإقطاعاتهم، والأموال التى تنفق فى حكم مصر[2].

على أن صلاح الدين أراد أن يحتاط لنفسه فى ظل الظروف التى كانت تمر بها دولته الوليدة، ولهذا فكر فى ضرورة إيجاد مكان أمين يلجأ إليه إذا قصد نور الدين مصر، وأرغمه على مغادرتها. واستقر رأيه على غزو بلاد النوبة، فجهز لهذا الغرض حملة كبيرة بقيادة أخيه تورانشاه الذى سار إلى مدينة أسوان فى جنوب مصر فى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢)، ومنها تطرق إلى بلاد النوبة، فوجدها «قليلة الجدوى» لا تصلح للغرض المنشود[3]. وجدير بالذكر أنه كان من بين أهداف تلك الحملة حرص صلاح الدين على حماية حدود مصر الجنوبية من غارات النوبيين آنذاك، ولهذا كان غزو النوبة ضرورة حربية لتأمين مصر من خطر تلك الغارات[4].

ونستشف من المصادر الإسلامية أن الأمور قد هدأت مؤقتا بين نور الدين وصلاح الدين، بدليل أنه فى شوال ٥٦٨هـ (مايو ١١٧٣)، اتفق الاثنان على غزو معاقل الصليبيين، فخرج صلاح الدين بجيوشه من مصر لغزو حصن الكرك جنوب شرقى البحر الميت، ولكنه ما كاد يفرض الحصار عليه، حتى انسحب راجعا إلى مصر بعد أن علم بقرب وصول نور الدين على رأس قواته، متعللا بمرض أبيه مرض الموت، فزادت تلك الواقعة

---

(١) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٦؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥٢٤؛ السلوك، جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٣٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ك تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦٩ ب؛ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص ٥٨ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١١٨ – ١١٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥٣٠ – ٥٣٣؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٦٩ أ؛ Lamb, op. cit., p.42.

(٤) محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٥٤ –٥٥ .

من سخط نور الدين وغضبه على صلاح الدين، وبات من المؤكد أن صبر نور الدين قد نفذ، ولم يعد أمامه إلا اللجوء إلى استخدام القوة لإخراج صلاح الدين من مصر، أورده إلى الطاعة والخضوع[١].

وفى هذه المرة أيضا لم يقف صلاح الدين ساكنا، بل فكر فى مكان آخر يلوذ به إذا هاجمه نور الدين، خاصة بعد أن تبين له أن بلاد النوبة لا تصلح مأوى للأيوبيين. لذلك أرسل أخاه تورانشاه إلى اليمن فى رجب سنة ٥٦٩هـ (أواخر سنة ١١٧٣)، بحجة القضاء على النفوذ القاطمى وإعادة المذهب السنى، فأخضعها وصارت منذئذ تابعة لنفوذ صلاح الدين[٢]. وينبغى ألا ننسى أن غزو اليمن كان مطلبا هاما آنذاك، فمن المعروف أنه كان يأتى من اليمن وحضر موت اللبان والبخور والمر، كما أن عدن كانت سوقا كبيرا لتجارة الهند وزنجبار والحبشة وعمان وغيرها، ومن ثم فإن من يسيطر على عدن، كان يحصل على مورد هائل من الضرائب[٣].

وفى تلك الأثناء واجه صلاح الدين مؤامرة خطيرة فى القاهرة فى رمضان ٥٦٩هـ (أبريل ١١٧٤)، دبرها سلالة الفاطميين وأنصارهم الناقمين على الوضع الجديد، بغرض أحياء الدولة الفاطمية التى غربت شمسها، واشترك فيها جماعة من الشيعة، وجماعة من الجند وحاشية القصر، والقاضى سلامة العوريس متولى ديوان النظر، والشاعر عمارة اليمنى الذى أنشد قصائده فى مدح الفاطميين، وبقايا الجند السودانيين وخدم القصر وغيرهم. ولما أدرك المتآمرون أنهم فى حاجة إلى عون من الخارج لضمان نجاح مؤامرتهم، كاتبوا سنانا زعيم الباطنية (الحشيشية) يطلبون منه أن يرسل من الفداوية من يغتال صلاح الدين، واتصلوا أيضا بالكيان الصليبى بالشام، وملك صقلية وليم الثانى النورمانى ليهاجم أسطوله الإسكندرية. واتفق المتآمرون على تنفيذ مؤامرتهم أثناء غياب تورانشاه فى اليمن، حتى لا يحل محل أخيه فى حالة اغتياله. ولكن صلاح الدين أمسك بخيوط المؤامرة ووقف على تفاصيلها بعد أن اكتشف الصلة بين الصليبيين بالشام وزعماء الفتنة فى مصر، فألقى

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٠-١٢١؛ النوادر السلطانية، ص ٤٧؛ على بيومى: قيام الدولة الأيوبية، ص ١٨٧.

(٢) النوادر السلطانية، ص ٤٦؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٣٧؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥٥١ – ٥٥٤؛ الدر المطلوب، ص ٤٢ .

(٣) Newby, Saladin., pp. 62 - 63.

القبض على زعماء المتآمرين، وأمر بشنقهم جميعا فى أبريل من نفس العام، ومن بينهم الشاعر عمارة اليمنى[١].

بعد أن نجح صلاح الدين فى استئصال شأفة تلك المؤامرة، شاء يمن طالعه أن يضع حلا للمشاكل القائمة بينه وبين نور الدين، ففى الوقت الذى كان يتأهب فيه الأخير للسير إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين، كان الأجل له بالمرصاد، إذ مات فجأة بعلة الخوانيق (الذبحة الصدرية) فى ١١ شوال عام ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤)، عن ست وخمسين عامًا[٢]. وكان موته خسارة عظيمة بالنسبة للمسلمين، أحدث رجة عنيفة فى العالم الإسلامى. فقد أشاد المؤرخون بعدله، وفى ذلك يقول ابن الأثير[٣]: «وقد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريا منه للعدل». وعلى أية حال، فإن وفاة نور الدين فجأة أزاحت عقبة كأداء كانت تعترض طريق صلاح الدين لتحقيق هدفه فى تأسيس دولة مستقلة تحمل إسم أسرته فى مصر.

صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام :

طويت بموت نور الدين صفحة رائعة من صفحات الجهاد ضد الصليبيين. فقد نجح فى أقل من ثلاثة عقود فى بناء دولة قوية ذات حدود متصلة تواجه ممتلكات الصليبيين فى الشام، كما تمكن من مد نفوذه إلى بلاد الجزيرة، واستولى على مصر، وأنزل بمعاقل الصليبية ضربات كثيرة حتى جعل قادتهم يتجهون للغرب الأوربى طالبين النجدة[٤].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٣ – ١٢٤؛ الروضتين، جـ ١ ص ٥٦٠ – ٥٦١؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٤٣–٢٥١؛ العبر، المجلد الخامس، القسم الثالث، ص ٦٣٢–٦٣٣؛ محمد عنان: تراجم إسلامية، ص ٥٨–٥٩. ومن المعروف أن هذه المؤامرة اشتهرت فى التاريخ باسم عمارة اليمنى، الذى كان وفيا للدولة الفاطمية، رغم أنه سنى معتز بسنيته، وهو القائل فى رثاء تلك الدولة من قصيدة طويلة:

رميْت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حُسْن الحَلْى بالعَطَل
هدمت قاعدة المعروف عن عجلٍ ... سُقيتَ مُهْلا، أما تمشى على مَهَل؟
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إنْ قصّرت فى عذلى
بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله ما التحمت ... فيكم جراحى ولا جرحى بمندمل

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٦١؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٢٤ – ١٢٥؛ النوادر السلطانية، ص ٤٧.
(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٥.
(٤) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٤٨.

وبذلك كله جعل الطريق ممهدًا لمن يخلفه فى مواصلة المسيرة. ولاشك أن صلاح الدين كان خير من يخلف نور الدين، بفضل عمق واتساع الأثر الدينى فى شخصيته والتزامه القوى بالسلوك القويم، وانعكاس ذلك على أفعاله وتصرفاته طيلة حياته، وقد أفاض المؤرخ القاضى ابن شداد فى إعطائنا صورة حية صادقة عن أخلاق صلاح الدين وصفاته الحميدة ومدى حبه للجهاد.

على أن الأمر لم يكن سهلا كما نتصوره، ذلك أن مشكلة تقسيم دولة نور الدين محمود كادت أن تعود بالمسلمين إلى حالة التمزق والانقسام التى كانوا عليها قبل أن يبدأ عمادالدين وابنه نور الدين جهودهما لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية والتصدى للصليبيين فى آن واحد. فقد صار الوريث الأول لدولة نور الدين فى مصر والشام وأجزاء من إقليم الجزيرة بالعراق ابنه الملك الصالح إسماعيل (٥٦٠ - ٥٧٦هـ / ١١٧٤ - ١١٨١)، وهو صبى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره عند وفاة أبيه، مما جعله هدفا للمطامع وتنافس أمراء أبيه فى السيطرة عليه. ويتضح ذلك فى اتساع هوة النزاع بين الأميرين شمس الدين على بن الداية وشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، إذ نصب الأخير نفسه وصيا على إسماعيل بدمشق، بينما اعتبر ابن الداية أمير حلب نفسه وصيا[١]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد اغتنم سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل (١١٧٠ -١١٨٠) - وهو ابن أخى نور الدين محمود -فرصة وفاة عمه، وأضاف إلى أملاكه نصيبين وكل إقليم الجزيرة والرها. وبهذا توزع الجزء الشامى العراقى من دولة نور الدين إلى ثلاث دويلات تركز كل منها حول واحدة من المدن الرئيسية: الموصل، وحلب، ودمشق، وبقيت مصر بحكم هذا الوضع معزولة عن بلاد الشام؛ وبعبارة أخرى، تحولت الجبهة الموحدة إلى أقسام منفصلة يحذر كل منها الآخر ويتربص به، ومثل هذا الموقف لابد أن يشيع فى المسلمين قلقا متزايدًا على البناء الضخم الذين تحملوا فى سبيل إقامته أشد العناء[٢].

وكان صلاح الدين الأيوبى قد اعترف بسلطنة الملك الصالح إسماعيل، وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة، وضرب السكة باسمه[٣]. بيد أن ما حدث من تنافس أمراء نور الدين

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٤ - ١٢٥؛ العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧٣٧.
(٢) محمد حلمى أحمد: مصر والشام والصليبيون، ص ١٢٢ .
(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٢٦ .

على وصاية إسماعيل طمعا فى ملكه، ومصالحتهم للصليبيين فى بيت المقدس فى هذا الوقت العصيب الذى تمر به الأمة الإسلامية، أثار سخط صلاح الدين، وأدرك أن أوجب واجباته الحفاظ على وحدة المسلمين قبل التصدى للصليبيين. ويتضح ذلك فى رسالة كتبها إلى الأمراء بدمشق، جاء فيها: «لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى، أو يثق إليه مثل ثقته بى، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه بالموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده[1]». وفى رسالة أخرى يقول صلاح الدين: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله، إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكى أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه، أو دفع ضره، وجلب نفعه؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا فى واد، والظانون بنا ظن السوء فى واد، ولنا من الصلاح مراد، ولم يعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك فاحش، ولمن ألقى السلاح إنك جارح[2]».

ومما يجدر الإشارة إليه، أن الخلافات القائمة بين أمراء نور الدين وقتئذ، دفعت بعض الأصوات الحكيمة إلى ضرورة الاستعانة بصلاح الدين لحل تلك الخلافات. فقد أشار القاضى كمال الدين الشهرزورى على الأمير ابن المقدم وبقية أمراء الدولة النورية، وأعظمهم نفوذًا، وقال لهم: «قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه، والمصلحة أن يُشاور فى الذى نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر»، ولكنهم تغاضوا عن هذا الرأى الحصيف، مخافة أن يطيح بهم صلاح الدين، ويضم الشام إلى مصر[3]. ومن هنا فرضت الأحداث على صلاح الدين أن يبادر بحسم تلك الخلافات حفاظا على وحدة المسلمين، بيد أن الأمور فى مصر شغلته عن التوجه إلى الشام. إذ تعرضت مصر آنذاك لخطرين جسيمين أحدهما أتى من الشمال، والآخر من الجنوب.

---

(١) الروضتين، جـ ١ ص ٥٨٩؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧ .

(٢) الروضتين، جـ ١ ص ٥٩٧ – ٥٩٨؛ سنا البرق الشامى، ص ٧٦ .

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٦٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣ .

ففى ذى الحجة سنى ٥٦٩هـ (٢٥ يوليو ١١٧٤) ظهر أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثانى ملك صقلية. وكان أنصار الدولة الفاطمية المنهارة قد كتبوا – كما سبق أن ذكرنا – إلى وليم الثانى والصليبيين ليقصدوا مصر للإطاحة بصلاح الدين، ولكن ملك صقلية لم يعلم بما حاق بالمتآمرين، فأرسل أسطولا ضخما إلى مياه الإسكندرية حسب الاتفاق المعهود معهم، وحاصر المدينة بالمجانيق والدبابات ثلاثة أيام، كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى الميناء. غير أن شجاعة الجيش الأيوبى ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثانى، وحملت أسطوله على أن يقلع من الإسكندرية فى مستهل أغسطس من نفس العام. ويصف ابن واصل[١] شجاعة أهل الإسكندرية فى المعركة الفاصلة بينهم وبين الصليبيين بقوله: «وفى اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد، وخرجوا على غفلة، وركب من كل هناك من الأمراء، وخرجوا من الأبواب، وكثر عندها القتال، وأنزل الله سبحانه نصره على المسلمين، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وهو رابع يوم نزولهم، وقد فشل الفرنج، وفتر قتالهم، واحترقت آلات قتالهم، واستمر القتل فيهم، ودخل المسلمون إلى البلد لقضاء فريضة الصلاة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهرب، ثم كبسهم المسلمون بغتة عند قرب اختلاط الظلام، فهاجموهم فى خيامهم، فتسلموها بما فيها، وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى». ومما هو جدير بالملاحظة أن التجار الإيطاليين المقيمين بالإسكندرية أبدوا استعدادهم لمساعدة الغزاة الصليبيين، على أمل أن تصير لهم السيطرة على ميناء الإسكندرية، فلما فشلت الحملة أمام صمود أهل الإسكندرية، توسلوا إلى صلاح الدين أن يغفر لهم جريرتهم، حتى لا يفقدوا ما حصلوا عليه من امتيازات تجارية[٢]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهل الإسكندرية البواسل ضربة قاصمة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون فى إعادة التجربة مرة ثانية فى عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة تماما، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[٣].

---

(١) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٥١؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٢٩ – ١٣٠؛ السلوك، جـ ١ ص ٥٥ – ٦٠؛ النويرى الإسكندرانى، كتاب الإلمام، جـ ١ ص ١٦٣ – ١٧٠ .

(٢) العرينى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٧٤٢ .

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين (سوريا ١٩٨٦)، ص ٣٨٣ .

أما الخطر الذى ووجه به صلاح الدين من الجنوب وعاقه عن التوجه إلى الشام، فيتمثل فى الحركة التى تزعمها كنز الدولة، وهو أحد ملوك النوبة فى أسوان، حيث التف حوله السودانيون وبقايا الفاطميين، وأوهمهم أن بوسعه إعادة الدولة الفاطمية، وبادر بالتوجه شمالاً إلى قوص. وعندما علم صلاح الدين بما أقدم عليه كنز الدولة، أرسل أخاه الملك العادل ساعده الأيمن على رأس جيش ضخم «من الذين ذاقوا حلاوة مُلك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم»؛ والتقى العادل بالثائر فى قرية طود (بالقرب من الأقصر) التى صارت مركز تجمع قواته، وحدثت معركة ضارية انتهت بمصرع كنز الدولة فى المحرم سنة ٥٧٠هـ (أغسطس ١١٧٤)، وبذلك قضى على آخر محاولة قامت بها البقايا الفاطمية[١].

ولما فرغ صلاح الدين من القضاء على حركة كنز الدولة، واطمأن إلى استقرار الأوضاع بمصر، وجد الفرصة مواتية للخروج إلى الشام لوضع حد للأوضاع المتدهورة بعد وفاة نور الدين، والعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية من الفرات إلى النيل أمام الصليبيين؛ ومن العوامل التى شجعت صلاح الدين على التدخل فى أمور الشام أن عمورى الأول ملك بيت المقدس إنتهز فرصة وفاة نور الدين وما ترتب عليها من نزاع بين ورثة دولته، وزاد من هجماته على بلاد الشام وأملاك المسلمين للاستيلاء عليها، ولكن الأمير شمس الدين بن المقدم بدلًا من أن يتصدى للصليبيين، فإنه «راسلهم ولاطفهم»، وعرض عليهم مبلغا من المال مقابل الرجوع عن بانياس، وإطلاق سراح الأسرى الصليبيين الموجودين عند المسلمين، فقبل الصليبيون هذا العرض، وجرى الصلح بينهما؛ ولما وصلت الأنباء إلى صلاح الدين بما حدث، أنكر هذا التصرف واستعظمه، وكتب إلى الأمراء بدمشق «يقبح عليهم ما فعلوه»[٢].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٠؛ النوادر السلطانية، ص ٤٧-٤٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦-١٧؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ١٢٤؛ محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٣٧-٣٨، العادل الأيوبى، ص ١٦-١٧.

وقد جاء فى المصادر الإسلامية وما نقل عنها من الباحثين المحدثين أن الكنز كان من قادة الفاطميين، ونزح إلى أسوان وأقام بها، حيث التف حوله السودانيون. والصواب أن الكنز لم يكن من قادة الفاطميين، بل هو من سلالة ملوك النوبة الذين يرجعون فى أصولهم إلى قبيلة ربيعة العربية التى استقرت حول أسوان وفى بلاد النوبة. وقد منحه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لقب كنز الدولة بعد أن قبض على الثائر أبى ركوة الفار إلى بلاده، فصار هذا اللقب علما على خلفائه. أنظر ما جاء فى كتابنا أسوان فى العصور الوسطى.

(٢) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٧ - ٨ .

وكان أن استخلف صلاح الدين أخاه الملك العادل نائبا عنه بمصر، وخرج إلى الشام على رأس جيش كثيف سعيا وراء هدفه، ولم يلبث أن وصل إلى دمشق فى آخر ربيع الآخر ٥٧٠هـ (٢٨ أكتوبر ١١٧٤)، دون أن يصطدم فى طريقه بالصليبيين. وهناك استقبل بحفاوة، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه إياها دون مقاومة، «بلا ضربة ولا طعنة»، ونزل صلاح الدين بدار والده بدمشق[١]. ولاشك أن استيلاء صلاح الدين على دمشق، كان الخطوة الأولى فى تطويق الإمارات الصليبية، ذلك أن سياسة الصليبيين القديمة ضد خصومها فى مصر وشمال الشام، قد ارتكزت على التحالف مع دمشق والوقوف إلى جانبها، هذه السياسة قد أحبطت إلى حد بعيد؛ ومما زاد من حرج موقف الصليبيين أن صلاح الدين بدأ يتخذ من دمشق نقطة انطلاق إلى الشمال ضد حلب التى تعتبر مفتاح سوريا الشمالية[٢].

وبعد أن استمال صلاح الدين قلوب أهل دمشق بتوزيع الأموال والهدايا وإبطال بعض المكوس والضرائب التى فرضت بعد وفاة نور الدين، غادرها متجها نحو الشمال على رأس قوة صغيرة لفتح المدن الإسلامية ووضعها تحت قيادته لتحقيق هدفه الرامى إلى طرد الصليبيين، فاستولى على حمص وحماه فى جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ (ديسمبر ١١٧٤)، وأثناء وجوده بحماه بعث سفيرًا ليتوسط بينه وبين الحلبيين، فسار إليهم وحذرهم من قوة صلاح الدين، فلم يلتفوا إليه، بل أمروا بسجنه. ولما أبطأ السفير على صلاح الدين، كتب إليهم يلومهم على ماهم فيه من الاختلاف، وأخذ يذكرهم بما قام به هو وأبوه وعمه من خدمات لنور الدين محمود، ولكن الأمراء القائمين على أمر الصالح إسماعيل ردوا عليه بأنه ليس بينه وبينهم إلا السيف. ونتيجة لذلك توجه صلاح الدين إلى حلب لمحاصرتها، ولكنه لقى معارضة شديدة، خاصة أن الصالح إسماعيل خاطب مشاعر أهل حلب قائلا: «قد عرفتم إحسان أبى إليكم، ومحبته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه، يأخذ بلادى، ولا يراقب الله والخلق»[٣]، فاستجاب أهالى حلب السنيون

(١) النوادر السلطانية، ص ٥٠؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٠٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٧-١٨؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٤ - ٢٥؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ٢٣٩؛ Gibb, op. cit., p. 567.

(٢) Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem", p. 594.

(٣) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٢٣؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٣٢، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٢؛ سنا البرق الشامى، ص ٨٣ - ٨٤ .

لندائه ووقفوا إلى جانبه، أما الشيعة من أهل حلب فقد اشترطوا لمؤازرته أن يعاد الأذان بحى على خير العمل، وأن يذكر أسماء الأئمة الإثنى عشر بين يدى الجنائز، وأن يكبروا على الجنازة خمسا، فوافق الصالح إسماعيل[١]. حدث هذا فى هذا الوقت الذى لجأ كمشتكين الوصى على الصبى إسماعيل إلى الاستعانة بسنان زعيم الباطنية فى الشام لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب، فاستجاب إلى طلبه، وبعث سنان بجماعة من الفداوية إلى معسكر صلاح الدين لاغتياله متنكرين فى ثياب الجند، وتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمة صلاح الدين، وطعنه أحدهم بخنجره فى رأسه وخده، فجرح جرحًا غير مميت، ونجا بأعجوبه من محاولة اغتياله، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٧١هـ (يناير ١١٧٥)[٢]. ولاشك أن الباطنية لم يقوموا بمحاولتهم إلا بعد أن أدركوا ما يتعرضون له من أخطار بظهور صلاح الدين، وما عزم عليه من توحيد المسلمين ونشر المذهب السنى، ولذلك اعتبروه من ألد أعدائهم[٣] .

بعد أن فشل الباطنية فى اغتيال صلاح الدين، أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى والوصى على عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة عمورى الأول فى ١١ يوليو سنة ١١٧٤م، يطلبون منه العون، فاستجاب على الفور، ليسد الطريق أمام صلاح الدين فى تكوين جبهة إسلامية موحدة تجمع مصر والشام، وتوجه على رأس قواته لمهاجمة حمص فى رجب ٥٧٠هـ (فبراير ١١٧٥)، ليصرف أنظار صلاح الدين عن حلب، وفعلا اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عنها والرحيل من أمام أسوارها لإنقاذ حمص، ولم يرجع الصليبيون إلى طرابلس إلا بعد أن تأكدوا من انسحابه من حلب[٤]. ولما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجها إلى بعلبك للاستيلاء عليها، فلما رأى حاكمها كثرة عساكر صلاح الدين، أرسل إلى حلب يطلب النجدة، ولما فشل

---

(١) البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٢٤؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٠٧ – ٦١١؛ سنا البرق الشامى، ص ٨٣؛ محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية، ص ٦١ – ٦٢.

(٣) Lewis (Bernard), "The Ismâilites and the Assassins", p. 122; الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧٤٦ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦١٤؛ سنا البرق الشامى، ص ٨٣ – ٨٤؛ Gibb, op. cit., p. 567.

فى الحصول عليها، طلب الأمان من صلاح الدين فأمنه، وسلمه بعلبك فى ٤ رمضان عام ٥٧٠هـ[١].

وفى تلك الأثناء، عمل صلاح الدين على تقوية موقفه بالشام بإضفاء الشرعية عليه أمام المسلمين. فكتب إلى الخلفية العباسى المستضيء بنور الله رسالة طويلة فى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٥)، عدد له فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية، وعلى وجه الخصوص إعادته الخطبة العباسية بمصر، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن. ثم أشار فى رسالته إلى «أنه قدم الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نور الدين وكفالته، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويبالغون فى ظلمه، وطلب فى ختامها أن يقلده الخليفة تقليدًا جامعًا لمصر واليمن والمغرب والشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين، وكل ما يفتحه بسيفه[٢].

على أن ظهور صلاح الدين فى بلاد الشام جعل الزنكيين يتكاتفون لمواجهته، إذ أحسوا جميعا بالخطر الذى يتهددهم من قبله، بعد أن خضعت له مدن دمشق وحمص وحماه وبعلبك. ولذلك أجمع الحلبيون رأيهم على مكاتبة سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجدون به ضد صلاح الدين، وأخبروه أن صلاح الدين متى ملك حلب، لم يكن له قصد إلا الموصل، فأرسل سيف الدين جيشا إلى الشام بقيادة أخيه مسعود، وبعد أن انضم إليه عسكر الصالح إسماعيل صاحب حلب، زحف الجميع إلى حماه وفرضوا عليها الحصار، ومع ذلك فقد راسلوا صلاح الدين فى أمر الصلح، فقبل أن يرد عليهم حمص وحماه، «وأن يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصالح منتميا إليه، والخطبة والسكة له»[٣]. فلما رأوه مجيبا إلى طلباتهم، وتبين لهم قلة عسكره، اشتطوا عليه، وتمادوا فى مطالبهم، فرفض صلاح الدين الإذعان لهم، ودارت معركة بين الجانبين عند سفح قرون حماه فى ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ (١٤ أبريل ١١٧٥)، إنتهت بانتصار صلاح الدين، وغنم منهم غنائم كثيرة،

---

(١) الروضتين، جـ ١ ص ٦٣١؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) الروضتين، جـ ١ ص ٦١٦-٦٢٣؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٢٥-٢٩؛ السلوك، جـ ١ ص ٥٩-٦٠.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٣؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٣٣-٦٣٤؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٠-٣٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٥.

وعادت القوات الزنكية تجر أذيال الهزيمة إلى حلب[١]. ولم يشأ صلاح الدين أن يضيع انتصاره، فتتبع الزنكيين إلى حلب وفرض عليها الحصار، وتحت أسوار المدينة قطع خطبة الملك الصالح، وأزال إسمه عن السكة في بلاده، ولما طال أمد الحصار، بعث الحلبيون يلتمسون منه الصلح، فأجابهم بشرط «أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب»، واستقر الصلح بين الجانبين، ورحل صلاح الدين عن حلب إلى حماه في العشر الأول من شهر شوال من نفس العام. ولم تمض أيام قليلة على وصول صلاح الدين إلى حماه، حتى وافته رسل الخليفة العباسي المستضيء بنور الله حاملة التشريفات السلطانية والتقليد بما أراده صلاح الدين من الولايات[٢]. وإذا كان هذا التقليد مجرد إجراء شكلي لا قيمة له في نظر أمراء البيت الزنكي، فإنه بالنسبة لصلاح الدين كان يعني الكثير، فقد صار في نظر المعاصرين المسئول الأول عن قيادة حرب الجهاد ضد الصليبيين، وصاحب السلطة الشرعية التي نالت تأييد الخليفة العباسي[٣].

ولما علم سيف الدين غازي صاحب الموصل بانهزام عساكره وانتظام الصلح بين صلاح الدين والحلبيين ثارت ثائرته، وعتب عليهم ووبخهم، واتهمهم بالضعف والتسرع، وأخذ يحرضهم على نقض الصلح، ويدعوهم إلى محاربة صلاح الدين، فأذعنوا له. ولم يكد صلاح الدين يتحقق من أن الزنكيين نقضوا الصلح، حتى أخذ يستعد للقتال، وأرسل إلى أخيه العادل الأيوبي نائبه في مصر يخبره بما حدث، ويأمره بإعداد العساكر والخروج إلى الشام في شعبان ٥٧١هـ (فبراير ١١٧٦)[٤]، ليصفي حسابه مع الصالح إسماعيل وسيف الدين غازي وأمراء البيت الزنكي.

وفي نفس الوقت، جمع سيف الدين غازي صاحب الموصل عساكره ووزع عليهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا[٥] وصاحب حصن ماردين وغيرهما، ثم سار

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٣؛ النوادر السلطانية، ص ٥٠-٥١؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٣٤؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٢؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٣؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٣٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٣-٣٤؛ النوادر السلطانية، ص ٥١؛ تاريخ ابن أبي الهيجاء، ورقة ١٧٥أ.

(٣) Gibb, op. cit., p. 568.

(٤) الروضتين، جـ ١ ص ٦٤٧ - ٦٤٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٦ -٣٧ .

(٥) حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة، مشرفة على نهر دجلة. (معجم البلدان).

بهذه الجموع إلى حلب، حيث انضم إليه كمشتكين مدبر دولة الملك الصالح إسماعيل على رأس الجيوش الحلبية، ثم تحركت القوات المتحالفة فى عدد يزيد على عشرين ألف مقاتل إلى تل السلطان جنوبى حلب بخمسة عشر ميلا. ومع أن قوات صلاح الدين كانت لا تزيد على ستة آلاف فارس، إلا أن اليأس لم يتسرب إلى نفسه، واستطاع بفضل شجاعته أن يلحق هزيمة فادحة بالمواصلة والحلبيين فى ١٠ شوال ٥٧١هـ (٢٢ أبريل ١١٧٦)، راح ضحيتها العديد منهم[1]. وقد فر غازى من ميدان المعركة، تاركا وراءه معسكره وبه جميع متعلقاته، فدخله صلاح الدين، ووجد به آلات الطرب والصيد وأنواع الخمور وأدوات اللهو من الحمام والبلابل والببغاوات فى الأقفاص، فبعث بها إلى غازى مع رسول، وقال له فى لهجة تفيض بالتهكم والسخرية: «خذ هذه الأقفاص واذهب بها إلى سيف الدين وأوصلها إليه، وسلم عنا عليه وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهى سليمة لا توقعك فى المحذور»[2]، وبعبارة أخرى يجدر بغازى أن يعود إلى اللعب بهذه الطيور، بدلا من خوض الحروب.

وعلى أية حال، ظلت حلب ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين، فلم يشأ أن يضيع وقته، وركز جهوده للاستيلاء على المناطق الواقعة بينها وبين الفرات، فهاجم بزاعة واستولى عليها فى ٢٢ شوال ٥٧١هـ (٤ مايو ١١٧٦)، ثم سار إلى منبج وأحكم عليها الحصار، ولكنه لقى مقاومة عنيفة، ولم تستسلم له إلا بعد أن أمر النقابين بنقب أسوار قلعتها، ثم قام بفرض الحصار على أعزاز، «وهى من أحصن القلاع وأمنعها»، فاستولى عليها فى ذى الحجة ٥٧١هـ (يونيو ١١٧٦)؛ وفى هذا الموضع كاد صلاح الدين أن يلقى حتفه على يد أحد الباطنية، الذى تسلل إلى خيمته، وضرب رأس صلاح الدين بسكين، ولولا الزرد الذى تحت القلنسوة (العمامة) لقتله[3]. وبعد أن استولى صلاح الدين على أعزاز توجه إلى حلب، وحاصرها للمرة الثالثة، وفى أثناء الحصار ترددت الرسل بينه وبين الحلبيين بشأن

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٢ – ١٣٦؛ النوادر السلطانية، ص ٥١ – ٥٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٥٠؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٨ – ٣٩؛ سنا البرق الشامى، ص ٩٤ – ٩٥؛ Gibb, op. cit., pp. 569 - 570.

(٢) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٩؛ سنا البرق الشامى، ص ٩٦ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٦ – ١٣٧؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٥٥ – ٦٥٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٤٢ – ٤٥؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٧ ، ٧٦.

الصلح، فوافق الطرفان وعقد الصلح فى المحرم سنة ٥٧٢هـ (يوليو ١١٧٦)، وعقب ذلك انصرف صلاح الدين من أمام أسوار حلب[١].

أما الباطنية – أو الحشيشية – الذين حاولوا اغتيال صلاح الدين ونجا منهم بأعجوبة خلال حصاره لأغزاز، فقد وطد عزمه على الثأر منهم، لذا لم يكد يفرغ من الصلح مع الحلبيين، حتى اتجه من فوره لحصارهم فى أمنع قلاعهم مصياف[٢]، وقتل الكثير منهم، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماه، «وكانوا قد راسلوه فى ذلك لأنهم جيرانه»[٣]. ونتيجة لهذا الحادث حرص صلاح الدين على أن يأخذ حذره، فأعد برجا من الخشب حول خيمته، صار ينام فيه، ولا يسمح لمن لا يعرفه بالاقتراب منه أو الدخول عليه[٤].

وفى أواخر صفر سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) قرر صلاح الدين العودة إلى مصر، ولكنه قبل أن يعود إليها بأيام تزوج من عصمة الدين خاتون، إبنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود. ويشير أبو شامة[٥] إلى أن صلاح الدين أراد بالزواج منها «حفظ حرمتها، وصيانتها، وعصمتها». وإن كان البعض يرى أن صلاح الدين إنما قصد بالزواج من أرملة سيده نور الدين أن يمكن لنفسه، حتى يظهر فى صورة الوريث الشرعى لنور الدين فى عين الشاميين، وليقوى الرابطة بينه وبين بيت نور الدين، الأمر الذى يساعده على تحقيق مشاريعه السياسية فى المستقبل[٦].

وفى تلك الأثناء، وصلت الأخبار إلى صلاح الدين بحدوث الكارثة التى حلت بالإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين على يد خصمه قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم فى معركة ميريو كيفالوم فى ١٧ سبمبر ١١٧٦ ، وبلغ من شدة وقع هذه الكارثة أن

(١) الروضتين، جـ ١ ص ٦٦٨ – ٦٦٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٤٦؛ سنا البرق الشامى، ص ١٠٢.

(٢) مصياف أو مصياب أو مصياث، حصن الإسماعيلية (الباطنية) بالشام قرب طرابلس. (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٩؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٤٧

Stevenson, op. cit., 212; Gibb, "The Rise of Saladin", p. 570.

(٤) Lewis, op. cit., p. 123.

(٥) الروضتين، جـ ١ ص ٦٧٥ – ٦٧٦؛ سنا البرق الشامى، ص ١١٣.

(٦) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٧٢٣ .

الإمبراطور نفسه عقد مقارنة بينها وبين كارثة مانزكرت التى حدثت قبل ذلك بقرن فى سنة ١٠٧١م، ولقى فيها الإمبراطور البيزنطى رومانس الرابع ديوجينيس هزيمة ساحقة(١). ولاشك أن الانتصار الذى أحرزه قلج أرسلان على البيزنطيين قد بعث الفرح والسرور فى نفس صلاح الدين، إذا لو حدث أن انتصر مانويل لتحالف مع الصليبيين فى عمل عدائى ضد المسلمين بالشام، ولكن ما حدث فعلا جعل القسطنطينية تخرج من دائرة الموازين العسكرية القوية لمدة طويلة، ولم يعد بوسع الإمبراطورية البيزنطية أن تلعب دورًا فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين بالشام، الأمر الذى زاد من قوة مركز صلاح الدين ونفوذه(٢).

تحصين مصر :

ترك صلاح الدين أخاه تورانشاه الذى كان قد عاد من اليمن بعد غياب طويل نائبا عنه فى دمشق، وذلك قبل أن يصل إلى مصر فى ربيع الأول عام ٥٨٢هـ (سبتمبر ١١٧٦)، لينظم أمورها الداخلية، ويحصن حدودها وموانيها وثغورها تحصينا قويا، تحسبًا لأى هجوم صليبى، حتى يتفرغ بعدئذ لتوحيد الجبهة الإسلامية ومقاومة الصليبيين(٣).

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين لم يقلد نور الدين فى اتخاذ الشام مقرًا له بحكم أنها مركز القوة فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين. فقد كان باستطاعة صلاح الدين أن يقيم بالشام ويعهد بحكم مصر إلى أحد أخوته تورانشاه أو العادل، ولكنه رأى بثاقب نظره أن الاستراتيجية الجديدة لمحور دمشق – القاهرة، تقوم على قوته الاقتصادية بمصر، ومن ثم فإن الدفاع عن مصر وتحصينها له طابع الأولوية، وهذا ما جعله يرجع إلى مصر(٤).

وعلى أية حال، شرع صلاح الدين فى بناء القلعة على جبل المقطم، وأمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة. ويروى أبو شامة(٥) أن صلاح الدين «لما تملك مصر

(١) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State., p. 347.

(٢) Baldwin, op, cit., p. 59; Newby, op. cit., p. 74.

(٣) النوادر السلطانية، ص ٥٢؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٧؛ Gibb, "The Rise of Saladin", p. 570.

(٤) Newby, op. cit., p. 73.

(٥) الروضتين، جـ ١ ص ٦٨٧ .

رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ». والحقيقة أنه منذ أن تولى صلاح الدين الوزارة أيام الخليفة الفاطمى العاضد، كان ينزل بدار الوزارة التى نزل بها من قبل عمه أسد الدين شيركوه، ولم ينزل قط بالقصور الفاطمية، حتى بعد إخلائها من ساكنيها، فلما توالت مؤامرات أنصار الدولة الفاطمية ضده، رأى أن يبنى له معقلا حصينا يحتمى به، ويكون آمنا فيه على نفسه من شيعة الفاطميين وغيرهم[١]. كما أن صلاح الدين أثناء وجوده بالشام قد شاهد القلاع والحصون والتحصينات المتناثرة فى أرجائه، لاسيما استحكامات الصليبيين. وقد علمته التجربة أن المدينة كثيرا ما تسقط، فى حين تظل القلعة صامدة فتشكل ملاذًا للأهالى وقاعدة للمقاومة يمكن منها استعادة المدينة مرة أخرى. وقد كان اختيار جبل المقطم لبناء القلعة مناسبًا من الناحية العسكرية، ذلك أنه لما كان صلاح الدين عازما على إحاطة الفسطاط والقاهرة بسور واحد، كانت تلزمه نقطة يشيد عليها قلعة يسيطر منها على المدينة ويسهل عليه الدفاع عنها، وتكون على بعد كاف من المدينة، وفى الوقت نفسه كان الهدف من القلعة التى تسيطر على القاهرة من علو مائتى وخمسين قدما، أن تكون مقرًا يليق بالأسرة الجديدة[٢]. وقد بدأ العمل فى بناء القلعة والسور فى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦)، واستمر العمل فى القلعة مدة طويلة، حتى أنه لم ينته إلا بعد ثلاثين عامًا فى عهد الملك الكامل ابن أخى صلاح الدين، وأشرف على البناء الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى[٣] أحد معاونى صلاح الدين المخلصين، الذى قام بهدم كثير من الأهرامات الصغيرة التى كانت بالجيزة لاستخدام حجارتها فى بناء السور والقلعة، وبلغ محيط السور الجديد بعد إتمامه أربعة وعشرين كيلو مترا[٤]. وساعد فى العمل عدد كبير من أسرى

---

(١) محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية، ص ٦٢ .

(٢) لينبول: القاهرة، ص ١٥٧؛ أولج فولكف: القاهرة، ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) هو أبو سعيد قراقوش بن عبدالله الأسدى الملقب بهاء الدين (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، وقراقوش معناها بالتركية العقاب (النسر الأسود)، وقيل إنه كان من خدم شيركوه، ثم أعتقه صلاح الدين وعهد إليه بشئون القصر الفاطمى، فأبدى همة وكفاية، وقد ارتبط إسمه بكثير من الإنشاءات فى مصر، وغدا الساعد الأيمن لصلاح الدين. وإذا كانت الرواية التاريخية تقدمه إلينا وزيرًا نابها وإداريا حازما، فإن القصص الشعبى يقدمه إلينا طاغية غشوما وحاكما ظالما، حتى صار مضرب الأمثال لكل ظلم، يتمثل ذلك فى المأثورة الشعبية «حكم قراقوش». أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٩١ - ٩٢؛ محمد عنان: المرجع السابق، ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) الروضتين، جـ ١ ص ٦٨٧ - ٦٨٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٤؛ محمد عنان: المرجع السابق، ص ٦٢ - ٦٣؛ عبد الرحمن زكى: قلعة صلاح الدين الأيوبى، ص ٣١ .

الصليبيين، شاهدهم الرحالة ابن جبير[1] يعملون فى بناء القلعة عندما قدم إلى القاهرة عام ٥٧٨هـ (١١٨٢)، فقد قال: «وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين القلعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر (الفسطاط) والقاهرة، والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر خندق يُنقر بالمعاول نقرًا فى الصخر عجبًا من العجائب الباقية الآثار، العُلوج الأسارى من الروم (الصليبيين)، وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يُمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم».

ووجه صلاح الدين جهوده أيضا إلى حماية الثغور والموانى المصرية، بعد أن تكررت اعتداءات الصليبيين عليها من ناحية البحر، فأمر بإعادة تنظيم الأسطول وتقويته. وحرص صلاح الدين على التوجه بنفسه إلى ثغر دمياط لتفقد أحواله، ثم غادره إلى ثغر الإسكندرية، حيث شاهد السور الدائر الذى أمر ببنائه، ورأى «الأسطول أُخلقت سُفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة. ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعا مخصصًا وديوانا مفردًا»[2].

كذلك اهتم صلاح الدين بإقامة مراكز محصنة أو نقط حراسة فى شبه جزيرة سيناء، وهى المنطقة التى تفصل بين مصر ومملكة بيت المقدس الصليبية بفلسطين الممتدة إلى حدود مصر فى صحراء النقب، وجاءت جميع غزوات الصليبيين لمصر عن طريقها، فأمر بإنشاء سلسلة من القلاع، أهمها قلعة صدر فى قلب سيناء وشرقى السويس فى طريق أيلة، ولاتزال موجودة إلى الآن، وزودها بالصهاريج لحفظ المياه[3].

موقف الصليبيين من صلاح الدين :

ونلاحظ أنه أثناء انشغال صلاح الدين بمنازلة الزنكيين فى السنوات الأولى التى كان يبنى فيها دولته ويدعمها، لم يغفل أمر الصليبيين، إذ كان توحيد القوى الإسلامية فى نظره وسيلة لغاية أعظم وهى القضاء على الكيان الصليبى الدخيل ببلاد الشام.

(١) رحلة ابن جبير (بيروت ١٩٦٤)، ص ٢٥ .
(٢) الروضتين، جـ ١ ص ٦٨٦ - ٦٩٠ .
(٣) عبد المنعم ماجد: صلاح الدين الأيوبى، ص ١٠٥ .

وفى السنوات ما بين ٥٦٩هـ (١١٧٤) – ٥٧١هـ (١١٧٦) التى كان صلاح الدين يعمل خلالها على استتباب نفوذه فى بلاد الشام، تهيأ للصليبيين فرصة لم يستغلوها كما ينبغى. فقد سبقت الإشارة إلى أنه لم يكد عمورى الأول ملك بيت المقدس يسمع بوفاة نور الدين محمود، حتى جمع قواته وحاصر بانياس، غير أنه مالبث أن رفع الحصار عنها، بعد أن دفع له ابن المقدم صاحب النفوذ الفعلى فى دمشق مبلغا من المال، وأُطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين، وذلك فى شهر ذى القعدة ٥٦٩هـ (يونيو ١١٧٤). ولعل مرض الملك الصليبى هو الذى جعله يرجع عن بانياس، فقد مات فى ١١ يوليو ١١٧٤ ، وخلفه إبنه بلدوين الرابع (١١٧٤ – ١١٨٥م) الذى كان أبرص، ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره[١]. ومن المؤكد أن بارونات مملكة بيت المقدس الصليبية قد تطلعوا بأفكارهم للبحث عن شخصية أخرى تتولى عرش المملكة وتقوم بأعبائها، ولكنهم لم يعثروا على تلك الشخصية لأن بلدوين الرابع كان الأمير الوحيد الباقى من البيت الملكى[٢]. ونتيجة لذلك حدث نزاع حاد بين البارونات الصليبيين حول من تكون له الوصاية على الملك الصليبى، بيد أنه لم يكن من بينهم رجل قادر على فرض سيطرته ونفوذه على بقية أقرانه؛ ويشبه هذا النزاع الأحقاد والمنافسات التى اضطرمت بين أمراء البيت الزنكى حول السيطرة على الملك الصالح إسماعيل وريث دولة نور الدين محمود. وعلى أية حال، فقد تولى ريموند الثالث كونت طرابلس الوصاية على الملك الصغير بلدوين الرابع فى خريف سنة ١١٧٤م، وكان ريموند قد أُطلق سراحه من الأسر الذى استمر تسع سنوات فى حلب، نظير فدية جرى دفعها قبل أن يموت نور الدين بقليل[٣].

والواقع أن ريموند الثالث لم يكن الرجل المناسب الذى تعتمد عليه مملكه بيت المقدس الصليبية فى مشاريعها ضد المسلمين، فقد كان ضعيفا، وعليه وحده تقع مسئولية الدور الذى لعبه الصليبيون خلال النشاط الحربى الذى قام به صلاح الدين سنة ١١٧٥م، ففى ديسمبر سنة ١١٧٤م رأى الصليبيون فى بيت المقدس، أنه إذا لزم توجيه ضربة لصلاح الدين، فيجب الإسراع بها قبل أن يؤمن صلاح الدين مركزه بإحراز نجاح آخر بعد أن

(١) Stevenson, The Crusaders in the East., p. 213; Parkes, A Hist. of Palestine., p. 129.

(٢) Newby, Saladin., p. 67.

(٣) Stevenson, op. cit., p. 213.

ضم دمشق إلى حوزته. وكان أن وضعت قوات مملكة بيت المقدس فى أول يناير سنة ١١٧٥م تحت قيادة ريموند، لشن هجوم على صلاح الدين من ناحية طرابلس. وفى خلال أربعة أشهر ثمينة، كان صلاح الدين يحقق خلالها نجاحا بعد آخر فى شمال الشام، لم يفعل ريموند شيئا من الناحية العملية، بل بدد الوقت فى مساومات حمقاء مع الزنكيين أعداء صلاح الدين، فى حين كان عليه آنذاك أن يتخذهم حلفاء له بأية شروط؛ وكل مافعله ريموند أنه قام بتحركات هزيلة هنا وهناك، وقد أضاع بذلك أغلى فرصة كانت فى يده، وانتهى الأمر بأن عقد صلحا مع الزنكيين لإطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين نظير مبلغ من المال قام بدفعه[١]. وفى السنة التالية، وهى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)، خرج الصليبيون بقيادة ريموند الثالث للإغارة على البقاع، فتصدى لهم الأمير شمس الدين المعروف بابن المقدم حاكم بعلبك، وقتل منهم، ووقع فى يده أكثر من مائتى أسير[٢]. على أن تورانشاه الذى كان قد عاد من اليمن بعد غياب طويل وولاه أخوه صلاح الدين حكم دمشق أثناء غيابه بمصر، اشتبك فى معركة مع قوة صليبية خرجت من مملكة بيت المقدس، إنتهت بهزيمته عند عين الجر (عين الجار)، وأسر من معه، فاجترأ الصليبيون بعد هذه المعركة، «وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم»[٣].

وفى صيف هذا العام (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)، قام تحالف هزيل بين أنطاكية وحلب ضد صلاح الدين، ومن أهم الأحداث التى ترتبت على هذا التحالف، هو إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين كانوا معتقلين عند المسلمين، ومنهم ريجنالد شاتيون صاحب حصن الكرك فيما بعد والمعروف فى المصادر الإسلامية باسم أرناط، بعد أن قضى خمسة عشر عامًا ونصف فى سجون حلب[٤].

وفى هذه الأثناء، ظهرت مشكلة بالغة الخطورة فى داخل مملكة بيت المقدس كان لابد من إيجاد حل لها. فقد وصلت صحة الملك بلدوين الرابع إلى مرحلة بالغة السوء

---

(١) Stevenson, op. cit., pp. 213 - 214.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٣٩ – ١٤٠؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٦٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٤٨ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٠؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٧ .

(٤) William of Tyre, II, p. 414; Stevenson, op. cit., p. 214;
مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٣٨؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٢٩٢ .

بسبب داء البرص الذى كان يعانى منه منذ طفولته، وبات من المؤكد أنه لن يعيش طويلا، الأمر الذى أوجب على زعماء الصليبيين وباروناتهم الإسراع فى اختيار خليفة له، واستقر الأمر فيما بينهم على دعوة وليم دى مونتفرات William of Monteferrat أحد المغامرين الصليبيين الوافدين للقدوم إلى فلسطين، فوصل صيدا فى مستهل أكتوبر سنة ١١٧٦م. وبعد ستة أسابيع من وصوله تزوج من سيبل أخت الملك، غير أنه لم يلبث أن مرض بالملاريا ومات فى يونيو سنة ١١٧٧م، بعد أن أنجب منها طفلا اعتلى عرش مملكة بيت المقدس فيما بعد باسم بلدوين الخامس؛ وبموت وليم صار موقف مملكة بيت المقدس أكثر حرجًا مما كان قبل وصوله، وكان أن وقع الاختيار على ريجنالد شاتيون ليتولى منصب نائب الملك[١].

وفى نفس السنة (١١٧٧م) وصل إلى ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز على رأس قوة ضخمة من أتباعه الفلمنكيين، واستقبله كبار رجال مملكة بيت المقدس بحفاوة بالغة، إذ كانوا يأملون من وراء قدومه تحقيق الكثير لقرابته من الملك بلدوين الرابع[٢]. حدث هذا فى الوقت الذى أرسل الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين أسطولا مؤلفا من سبعين سفينة إلى ميناء عكا، ليشترك مع الصليبيين فى غزو مصر طبقا للاتفاق الذى عقد بينهما من قبل. ولما كانت وطأة المرض قد اشتدت على الملك الصليبى، وجعلته عاجزًا عن المشاركة بنفسه فى الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، فقد عرض على فيليب أن يضطلع بأعباء الوصاية على المملكة، على أمل أن يساهم بقواته فى تلك الحملة بدلا من الملك، ولكن فيليب رفض الوصاية، كما رفض الاشتراك فى الحملة، بحجة أنه لم يأت إلى فلسطين إلا لزيارة الأماكن المقدسة، ونتيجة لذلك قرر الصليبيون إبلاغ حلفائهم بإرجاء القيام بالحملة المشتركة إلى أبريل من العام القادم (١١٧٨)، ولم يكن لهذا القرار من معنى سوى التخلى نهائيا عن القيام بالجملة[٣]. وبذلك أضاع الصليبيون فرصة ذهبية لا تعوض لضرب صلاح الدين فى مصر، فى وقت لم تثبت أقدامه بعد فى شمال الشام[٤].

---

(١) Stevenson, op. Cit., pp. 215 - 216.

(٢) William of Tyre, II, p. 414; Newby, Saladin., pp. 80 -81; الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧٦٤ .

(٣) William of Tyre II. PP, 417 - 418; Stevenson, op. cit., p. 216.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٧٢٦ .

وإذا كان فيليب كونت فلاندرز قد رفض الاشتراك فى مشروع الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، فإنه وافق فى النهاية على القيام ببعض الأعمال الحربية ضد المسلمين فى أطراف أنطاكية وطرابلس. وهنا نلاحظ أن الهدنة كانت قائمة بين المسلمين والصليبيين آنذاك، ومن شروطها أنه إذا قدم أمير صليبى من الغرب الأوربى، فمن حق الصليبيين فى مملكة بيت المقدس إنهاء تلك الهدنة وتقديم أية مساعدة له لحين رحيله، وعلى هذا الأساس قدم بلدوين الرابع قوات من بيت المقدس لمساندة فيليب فى الهجوم على ممتلكات المسلمين[١]. واتجه الصليبيون بقيادة ريموند الثالث كونت طرابلس وفيليب كونت فلاندرز إلى حماه، وبادروا بشن هجوم عليها فى ١٤ نوفمبر سنة ١١٧٧ ، ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها بعد أربعة أيام من الوقوف أمامها، وارتدوا عنها خائبين[٢]. ولم يلبث أن انضم فيليب بقواته إلى بوهيموند الثالث أمير أنطاكيه لمساعدته فى الاستيلاء على قلعة حارم التابعة للزنكيين فى حلب، ووصل الصليبيون إلى تلك القلعة فى نهاية نوفمبر من نفس العام وحاصروها، وكانوا يتوقعون أن تقع فى أيديهم بسهولة، نظرًا لصغر سن الملك الصالح إسماعيل، وتغيب صلاح الدين فى مصر، ولكنهم فشلوا فى أن ينالوا من خارم بعد حصار دام أربعة شهور، وانسحبوا من أمام أسوارها بعد أن بذل لهم الصالح إسماعيل مبلغا من المال، أما فيليب كونت فلاندرز، فقد اتجه إلى ميناء اللاذقية، ومنه ارتحل بقواته إلى القسطنطنية[٣].

ولما وصلت الأخبار إلى صلاح الدين بفشل مشروع الحملة الصليبية البيزنطية لغزو مصر، وتوجه فيليب كونت فلا ندرز إلى شمال الشام للاشتراك فى بعض الأعمال الحربية ضد القوى الإسلامية هناك، قرر أن يقوم بهجوم على الساحل الفلسطينى، ليرغم الصليبيين على الرجوع عن حماه وحارم. وفعلا خرج صلاح الدين على رأس قواته من مصر، وانطلق إلى عسقلان فوصلها فى ٢٤ جمادى الأولى ٥٧٣هـ (٢٣ نوفمبر ١١٧٧)؛ وكان بلدوين

(١) Stevenson, op. cit., p. 216; Gibb, op. cit., p. 571.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٧٠٦؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٦٤؛ Stevenson, op. cit., p. 216.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٢ - ١٤٣؛ الروضتين، جـ ١ ص ٧٠٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٦٤؛ William of Tyre, II, pp. 425; Stevenson, op. cit., pp. 216 -217.

الرابع قد دخلها قبيل وصول صلاح الدين إليها بأيام قليلة، ومعه قوات قليلة جمعها على وجه السرعة لمقاومة الهجوم المتوقع من قبل صلاح الدين، فى الوقت الذى أرسل يدعو كل صليبى لديه القدرة على حمل السلاح للالتحاق به فى عسقلان. وبسبب ذلك انتشرت قوات صلاح الدين فى الأرض، وأخذت تغير على المعاقل الصليبية القريبة حتى بلغت الرملة، فوجدت أن الصليبيين قد أخلوها وأحرقوها. وسرعان ما تغير الموقف لصالح الصليبيين، ففى يوم ٢٥ نوفمبر وصلت الإمدادات الصليبية إلى عسقلان، حيث انضم إلى الملك الصليبى ثمانين فارسًا من منظمة الداوية، وبذلك توفر لديه ثلاثمائة وخمسة وسبعون فارسا، فضلا عن المشاة الذين كانوا كثيرى العدد، وبهذا الجيش باغت الصليبيون جيش صلاح الدين الرئيسى أثناء عبوره مخاضة عند تل الصافية، فأصابت صفوفه الفوضى والاضطراب، وحلت به الهزيمة[١]. ولم يكتف الصليبيون بذلك، بل أخذوا فى مطاردة المسلمين حوالى اثني عشر ميلا، ففر الذين نجوا بأنفسهم إلى مصر، وهم يعانون من قسوة البرد والمطر وقلة المؤن، ووصل صلاح الدين إلى مصر فى حالة سيئة بعد رحلة شاقة قطعها عبر صحراء سيناء فى ١٤ جمادى الآخرة ٥٧٣هـ (٨ ديسمبر ١١٧٧)، بينما اعتلت الفرحة وجوه الصليبيين[٢].

ومع أن الانتصار الذى حققه الصليبيون فى موقعة تل الصافية قد آلم صلاح الدين وحز فى نفسه، إلا أنه فى الواقع لم يكن حاسمًا، فبعد مرور أربعة أشهر على تلك الموقعة، غادر صلاح الدين القاهرة على رأس قواته فى أول شوال ٥٧٣هـ (٢٣ مارس ١١٧٨م)، بغرض إنقاذ حارم من الحصار الصليبى بقيادة فيليب كونت فلاندرز، وقد استخلف أخاه العادل على مصر، وترك تحت يده قوات كافية لحراسة أمنها، ومر على أيلة، إلى أن وصل إلى دمشق فى ١٦ أبريل، وهناك علم أن فيليب قد انسحب من أمام حارم[٣].

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٤١ – ١٤٢؛ الروضتين، جـ ١ ص ٦٩٩ – ٧٠٣؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٥٩ – ٦٠؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٧؛

William of Tyre, II, pp. 426 - 413; Stevenson, op. cit., p. 217; Gibb, op. cit., p. 571.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٢؛

William of Tyre, II, p. 431; Stevenson, op. cit., pp. 217 - 218; Newby, op. cit., pp. 81 - 82.

(٣) William of Tyre, II, pp. 434 - 435; Stevenson, op. cit., p. 218; Gibb, op. cit., p. 571.

وفى نفس العام (١١٧٨م) أنشأ الصليبيون حصنا على مخاضة الأحزان، وهو بيت يعقوب فى شمالى بحيرة طبرية، وقد صار «على المسلمين منه ضرر عظيم»[(١)]. إذ يحرس هذا الحصن الطريق الآتى من دمشق، حيث دأب المسلمون على التوجه غربا وتهديد ملاك الجليل، كما أن هذا الحصن يتحكم فى سهول بانياس الخصبة، ويمكن من خلاله مراقبة الفرسان الذين يأتون من بانياس أسفل وادى الأردن المفتوح؛ وقد أراد الصليبيون من بناء هذا الحصن ألا يكون مركزا للدفاع فحسب، بل أيضا قاعدة للهجوم على قوافل المسلمين ومنعها من المرور، وعهد بلدوين الرابع بهذا الحصن لفرسان الداوية[(٢)]. ولما أدرك صلاح الدين مدى خطورة هذا الحصن على المسلمين، حاول التخلص منه، فكاتب الصليبيين طالبا هدمه، ولكنهم ردوا عليه قائلين: «إن كان لابد من ذلك فأعطنا ما غرمنا عليه من الأموال، فإنا قد غرمنا عليه مالا كبيرا»، فعرض عليهم ستين ألف دينار، ثم زاد المبلغ إلى مائة ألف، ولكنهم رفضوا[(٣)].

وفى ذى القعدة سنة ٥٧٤هـ (أبريل ١١٧٩م)، إعتدى الصليبيون على بعض أهالى دمشق الذين خرجوا لرعى مواشيهم بالقرب من بانياس، فعهد صلاح إلى ابن أخيه عز الدين فرخشاه بالخروج لقتالهم على رأس ألف فارس، وأمره بعدم الاشتباك معهم إلا بعد التيقن من دخولهم الأراضى الإسلامية. ولما صار الصليبيون فى متناول القوات الإسلامية إنقض عليهم فرخشاه، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وكان الملك بلدوين الرابع مع الجيش الصليبى، فتعرض لخطر الموت، لولا أن أنقذه أتباعه المخلصين، وخاصة همفرى صاحب تبنين Humphrey of Toron ، الذى أصيب بجرح نافذ مات على أثره فى قلعة يعقوب فى ٢٢ أبريل[(٤)].

بعد ذلك بوقت قصير وصل صلاح الدين إلى بانياس، التى اتخذها قاعدة لتحركاته، ومنها أخذ يشن غاراته على صيدا وبيروت، ولم يجد الصليبيون بدًا من مواجهة عدوهم.

---

(١) الروضتين، (طبعة القاهرة ١٢٨٧هـ)، جـ ٢ ص ٨ .

(٢) Stevenson, op. cit., pp. 219 - 220.

(٣) الروضتين، جـ ٢ ص ١٨؛ إبن شاهنشاه الأيوبى: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م) ص ٢٤ - ١٢٥؛ Newby, Saladin., p. 83.

(٤) الروضتين، جـ ٢ ص ١٠؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٧٢ - ١٧٣؛
William of Tyre, II, pp. 438 - 440; Stevenson, op. cit., p. 220; Gibb, op. cit., p. 572; Newby, Saladin., p. 83.

صلاح الدين، فخرج بلدوين الرابع ملك بيت المقدس على الرغم من أنه كان يهتز فوق سرجه من شدة المرض، وانضم إليه ريموند الثالث كونت طرابلس؛ وفى المعركـة التى دارت رحاها بالقرب من تل القاضى فى سهل مرج عيون، حقق صلاح الدين انتصارًا ساحقا على الصليبيين فى ٣ محرم ٥٧٥هـ (١٠ يونيو ١١٧٩م)، وفيها قتل العديد من فرسانهم، ولم ينج بلدوين نفسه إلا بصعوبة، ووقع فى الأسر ما يزيد عن مائتين وسبعين من الفرسان والبارونات، من بينهم أودو سانت أمانـد Odo of Saint - Amande مقدم الداوية[١]، فعرض عليه صلاح الدين أن يطلق سراحه مقابل إطلاق سراح أحد كبار أمراء صلاح الدين المعتقل فى بيت المقدس، ولكن أودو رفض هذا العرض قائلا له أن الداوى لا يفدى نفسه إلا بحزامه وخنجره Belt and dagger ، وفى هذا الرد إهانة لصلاح الدين الذى وضع أحد أمرائه فى مكانة مساوية لأودو، فأرسله صلاح الدين إلى دمشق، حيث مات فى العام التالى[٢]. وعلى هذا النحو ثأر صلاح الدين للهزيمة التى لحقت به فى تل الصافية سنة ١١٧٧م. ومن غريب المصادفات أنه فى اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى مرج عيون، أحرز الأسطول المصرى على سفن الصليبيين، إذ استولى المسلمون على بطستين[٣] كبيرتين، وقادوهما إلى ميناء الإسكندرية[٤].

توالت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى سرعة مذهلة، بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته. فلم يكد يمر شهران على موقعة مرج عيون، حتى جمع صلاح الدين قواته من جميع الأطراف والأمكنة، وخرج بهم «كالبحر الزاخر» من دمشق فى ٥ ربيع الآخر سنة ٥٧٥هـ (٢٠ سبتمبر ١١٧٨م)، قاصدًا حصن بيت يعقوب الذى شيد حديثا للاستيلاء عليه، وبعد حصار استغرق أربعة أيام، تمكن الناقبون خلالها من إحداث ثغرة

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٧٥ – ٧٧؛ مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ١٦ – ١١٨؛

William of Tyre, II, pp. 442 - 443; Stevenson, op. cit., pp. 220 -221; Gibb, op. cit., p. 573.

(٢) Newby, Saladin., pp. 84 - 85.

(٣) البطسة سفينة كبيرة، كثيرة القلوع، قد يصل عدد القلوع فى البطسة الواحدة إلى أربعين قلعا. واشتهر هذا النوع من السفن فى أيام الحروب الصليبية. وكانت البطسة تقوم بشحن الغلات والأقوات والمير والأموال، علاوة على آلات الحرب فى القتال، هذا إلى جانب عمل البطسة الأصلى وهو القيام بعمليات القتال. أنظر: درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص ١٤ – ١٥ .

(٤) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٧٧ .

فى الحصن، وأشعلوا النار فيها، سقط الحصن فى أيدى المسلمين فى ٢٥ ربيع الآخر (٣٠ أغسطس ١١٧٩م)، واندفعوا لتخليص الأسرى المسلمين، وأخذوا معهم إلى دمشق حوالى سبعمائة أسير صليبى، ولم يترك صلاح الدين الحصن إلا بعد أن هدمه من أساسه وسواه بالأرض، وردم بئره[١].

ونتيجة للضربات المتلاحقة التى تلقاها الصليبيون على أيدى صلاح الدين، طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين فى مايو ١١٨٠م، فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين[٢]، وقد دفعه إلى ذلك حرصه على المضى فى توحيد الجبهة الإسلامية بالشام، بأن يستولى على حلب[٣]. ومن الأسباب التى جعلت صلاح الدين يوافق على عقد تلك الهدنة، ما عانته بلاد الشام كلها من آثار قحط رهيب فى أوائل تلك السنة، فقد كانت المجاعة محتملة الوقوع، ومن الصعب المخاطرة بتدمير المحاصيل الباقية الضئيلة؛ أما بالنسبة لبلدوين الرابع فقد كانت الهدنة فرصة سانحة له يلتقط فيها أنفاسه، وخاصة أنه كان فى حاجة لمساعدة من الغرب الأوربى والامبراطور البيزنطى مانويل كونين، فأرسل السفراء إلى الغرب الأوربى لشرح المصاعب التى يمر بها المسيحيون فى الشرق، ولكن أحدًا من الملوك والحكام لم يرد على ندائه، فقد كانوا فى شغل شاغل بقضاياهم وأمورهم[٤].

وهنا نلاحظ أن إمارتا أنطاكية وطرابلس لم تدخلا فى الهدنة التى عقدها الملك الصليبى بلدوين الرابع مع صلاح الدين، الأمر الذى جعل الأخير فى حل من مهاجمة الصليبيين فى شمال الشام. ثم كان أن ظهر الأسطول المصرى فى مياه ساحل الشام، حيث أنزل قوات أخذت تنهب نواحى طرسوس فى ٥ محرم ٥٧٦هـ (مستهل يونيو ١١٨٠م)، وأوقع بها كثيرًا من الخسائر، جعلت ريموند كونت طرابلس بعد أيام قليلة يعقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين، فى حين ظلت أنطاكية على تحالفها مع القوى الإسلامية المناهضة لصلاح الدين[٥]. ثم غادر صلاح الدين دمشق عائدًا إلى القاهرة، فوصلها فى ١٣ شعبان سنة ٥٧٦هـ (٢ يناير ١١٨١م)، وهى المرة الأخيرة التى زار فيها مصر.

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٤٥-١٤٦؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٨٠-٨٢؛ مضمار الحقائق، ص ٢٥-٢٨؛ Stevenson, op. cit., pp. 221 - 222; Gibb, op. cit., p. 573; Newby, Saldin., p. 85. .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 222.

(٣) الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧٧٣ - ٧٧٤ .

(٤) بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٨٣ .

(٥) Stevenson, op. cit., p. 222.

ولاشك أن الانتصارات المتتالية التى أحرزها صلاح الدين على أعدائه الصليبيين قد أحدثت دويا هائلا فى جميع الأقاليم التى يحكمها، علاوة على أنها جعلت منه بطل الإسلام وقائد مسيرة الجهاد المقدس فى بغداد والمدن الزنكية وحلب والموصل(١).

وبينما كان صلاح الدين موجودًا بمصر، ومنشغلا بتنظيم أمورها، حدث فى سنة ١١٨١م أن قام ريجنالد شاتيون Reginald of Chatillon – الذى عرفته المصادر العربية باسم أرناط – صاحب حصن الكرك، بعمل أصاب المسلمين بالفزع والغضب. ومن المعروف أن ريجنالد قد أتى إلى الشرق فى سنة ١١٤٨م ضمن حملة لويس السابع ملك فرنسا، واشترك فى الهجوم الصليبى على دمشق. ولما لم يكن له إقطاع فى الغرب الأوربى، فقد بقى فى الأرض المقدسة ليجرب حظه، واستطاع بوسامته أن يدير رأس الأرملة كونستانس Constance صاحبة أنطاكية، فتزوجها فى سنة ١١٥٣م وأصبح سيدًا لتلك المدينة. وعلى الرغم من أنه كان شجاعًا لا يهاب الموت، إلا أنه كان متهورًا يفتقر إلى الحكمة والتعقل، وشديد التعصب، ومثلا سيئا للفرنجة الوافدين الجدد الذين يحتقرون الفرنجة المستقرين فى الشرق(٢)، وبسياسته الرعناء أودى بهم فى مهاوى الكارثة. وفى إحدى غاراته فى شمال الشام وقع أسيرًا فى قبضة المسلمين فى سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠م)، وقضى ما يقرب من ستة عشر عاما فى سجون حلب، ولم يتحرك أحد حتى زوجته لافتدائه. وقد أطلق الملك الصالح إسماعيل سراحه ومعه آخرون فى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) عرفانا بما قام به الصليبيون عندما أجبروا صلاح الدين على فك الحصار عن مدينة حلب كما ذكرنا من قبل. ولما كانت كونستانس قد ماتت، فقد تزوج من أرملة أخرى وهى ستيفانى Stephanie وريثة إمارة الكرك الواقعة إلى الجنوب الشرقى من البحر الميت، وبهذا الزواج صار سيدًا على حصن الكرك، حيث أخذ يهدد طريق القوافل المتجهة إلى مصر والحجاز(٣).

ولما كان الغدر من طبيعة ريجنالد، فقد التهب غيظا من الشروط التى فرضتها عليه الهدنة الموقعة مع صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م)، بما تضمنته من حرية عبور المسلمين

---

(١) Newby, op. cit., p. 85.

(٢) Lamb, The Crusades., pp. 59 - 60; Baldwin, "Latin States under Baldwin III", pp. 539 - 540; Newby, Saladin., p. 92.

(٣) Newby, Saladin., p. 92.

والصليبيين أراضى كل منهم الآخر دون خوف. ومن ثم فقد حشد ريجنالد قواته وخرج على رأسها، وتوغل فى صحراء العرب حتى واحة تيماء، بغرض التوجه إلى المدينة المنورة، «ليستولى عليها وعلى تلك النواحى الشريفة»، ولما علم بذلك فرخشاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق، أسرع بالعساكر الدمشقية إلى حصن الكرك، وأخذ ينهب ويخرب نواحيه، وظل مرابطًا تجاه الصليبيين، الأمر الذى جعل ريجنالد يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها، فعاد فروخشاه إلى دمشق[1].

ضم حلب والموصل إلى الجبهة الإسلامية :

وفى خلال النشاط الحربى الذى قام به صلاح الدين ضد قوى الصليبيين، لم يظهر الزنكيون فى حلب والموصل أى استعداد لمساندة صلاح الدين والوقوف إلى جانبه؛ والمهم أنه على الرغم من الانتصارات التى حققها صلاح الدين فى نضاله ضد الصليبيين، فقد أدرك أن القضاء عليهم لن يتحقق بقوات دمشق وحدها، وما يجرى الاستغناء عنه من القوات المصرية التى تتولى الدفاع عن مصر، وسيشكل الزنكيون خطرًا جسيمًا على جناحه، ما داموا فى حلب يخضعون لغيره. وإذا حدث أن انضموا إليه، فسوف يؤدى هذا إلى اشتداد كراهية الزنكيين فى الموصل له، مما يعرض جناح جيشه لهجماتهم. ويترتب على ذلك كله، أن صلاح الدين لن يستطيع حشد قوات الشام ومصر معا لقتال الصليبيين، وجناح جيشه ومؤخرته عرضة لهجمات الموصل، الأمر الذى يحتم عليه السيطرة على قوات الموصل وقطع صلتها بحلب، ودمجها فى قواته للجهاد[2].

على أن تطور الأحداث فى الموصل وحلب إتخذ مسارًا جديدًا شد اهتمام صلاح الدين وهو مقيم بمصر. ففى ٣ صفر سنة ٥٧٦هـ (٢٩ يونيو ١١٨٠م) توفى سيف الدين غازى صاحب الموصل، وخلفه فى الحكم أخوه عز الدين مسعود[3]. وقد طلب

---

(١) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٠١-١٠٢؛ مضمار الحقائق، ص ٦٠؛ الكامل، جـ ٩ ص ١٥٢-١٥٣؛ سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، ص ١٤٢-١٤٣؛ الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٥٧-٥٨.

(٢) Gibb, op. cit., p. 573; Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem", p. 595; باركر: الحروب الصليبية، ص ١٧١؛ الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ ١ ص ٧٧٤-٧٧٥.

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٨٠ - ١٨١؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٤؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٤ ؛ السلوك، جـ ١ ص ٧٠ .

عز الدين من صلاح الدين «أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين فى يده»، ولكن صلاح الدين رفض إجابته إلى طلبه، بحكم أن هذه الأماكن تابعة له بتفويض من الخلافة العباسية، وأنه لم يتركها لسيف الدين غازى إلا بشرط تعهده بمساعدة صلاح الدين بجيوشه، وأوضح له صلاح الديـن حاجته إلى قوات تلك الأماكن للاستعانة بها فى حروبه ضد الصليبيين[١].

وفى ٢٥ رجب سنة ٥٧٧هـ (٤ ديسمبر ١١٨١م)، توفى الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب فجأة فى التاسعة عشرة من عمره، وكان قد أوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه فى حكم حلب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، باعتباره الشخصية القادرة على الحفاظ عليها من صلاح الدين، والإبقاء على البيت الزنكى، «لكثرة عساكره وبلاده وأمواله»[٢]؛ وبعبارة أخرى أراد الصالح إسماعيل أن يجعل من حلب والموصل جبهة واحدة تستطيع مواجهة صلاح الدين. وعلى أية حال، لم يتردد عز الدين فى قبول حكم حلب، وأسرع بالسير إليها وبصحبته مدبر أمور دولته مجاهد الدين قايماز، خوفا من أن يسبقه إليها صلاح الدين الأيوبى، فدخلها فى ٢٠ شعبان سنة ٥٧٧هـ (٢٩ ديسمبر ١١٨١م)، واستولى على خزائنها وذخائرها، وأقام بقلعتها، على أنه لم يلبث أن أدرك صعوبة الاحتفاظ بحكم حلب والموصل معا من صلاح الدين لبعد المسافة بينهما، خاصة وأن أمراء حلب ألحوا عليه فى زيادة إقطاعاتهم وطلب الأموال، وأكثروا من الإدلال عليه «بسبب اختيارهم إياه»، ولذلك تنازل عنها لأخيه عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار، مقابل أن يأخذ سنجار عوضا عنها، فوافق عماد الدين، وتوجه إلى حلب فى ١٣ محرم ٥٧٨هـ (١٩ مايو ١١٨٢)، واستقر بها[٣].

ومن الواضح أن تطور الأحداث على هذا النحو فى الموصل وحلب لم تكن فى صالح أهداف صلاح الدين الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية من ناحية، والتفرغ لمحاربة الصليبيين

---

(١) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٩٤ – ٩٥؛ الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٧٥؛ Gibb, "The Rise of Saladin", p. 575.

(٢) التاريخ الباهر، ص ١٨٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٠٦ – ١٠٨؛ النوادر السلطانية، ص ٥٥؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٢١ – ٢٢؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨ ، ٩٠؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٣٠٩؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٤؛ Gibb, op. cit., p. 576.

(٣) النوادر السلطانية، ص ٥٥–٥٦؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٢٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٠٨–١١٠؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٤–٢٠٥؛ سنا البرق الشامى، ص ١٨٥؛ مضمار الحقائق، ص ٩٥–٦٠.

من ناحية أخرى[١]. بدليل أنه عندما علم صلاح الدين بوفاة الصالح إسماعيل «تحرك عزمه، واحتد أواره، وندم على النزوح من الشام، مع قرب هذا المرام، وشرع فى جد الاهتمام»[٢]. وكتب صلاح الدين إلى ابن أخيه تقى الدين عمر صاحب حماه يأمره بالتأهب والنهوض بعسكره، وإلى الأمير معين الدين عبد الرحمن بن أنر صاحب الراوندان - وهى قلعة حصينة من نواحى حلب - يأمره أن ينضم إلى تقى الدين عمر ويعمل برأيه، وكان ذلك فى أواخر شعبان سنة ٥٧٧هـ (يناير ١١٨١م)[٣]. ولم يكتف صلاح الدين بذلك، إنما بعث برسالة إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يشرح فيها بلاءه فى الإسلام وجهاده، وما قدمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية، ويذكر فيها غدر عز الدين مسعود صاحب الموصل بقوله: «وأنه قد طمع فى حلب وطمح إليها، ومدّعين التعدى بالاحتواء عليها، وأنه نكث الأيمان المبرمة ونقضها، وترك المراقبة التى فرضها الله بأن رفضها، فإن حلب وأعمالها داخلة فى ولايتنا..»، وهو يقصد بذلك أن حلب من ضمن البلاد التى قلدها له الخليفة العباسى المستضىء بالله. كما أشار صلاح الدين فى رسالته إلى ما قام به الحلبيون من الإغارة على الراوندان التابعة له، واستنجادهم بالصليبيين، ومراسلتهم للحشيشية، فى الوقت الذى انصرف ابن أخيه تقى الدين عمر إلى إبعاد ريجنالد شاتيون عن المدينة المنورة[٤].

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك صلاح الدين أن الوقت قد حان للتوجه إلى الشام لحماية مصالحه، فجمع الجيوش، واستكثر من السلاح، وترك مهمة الإشراف على أعمال تحصينات القاهرة إلى بهاء الدين قراقوش، ثم غادر مصر إلى الشام فى المحرم عام ٥٧٨هـ (مايو ١١٨٢م)، وكانت هذه آخر مرة يرى فيها القاهرة، ولم يعد إليها قط، إذ انشغل بحروبه ضد الصليبيين ببلاد الشام، «إلى أن قضيت منيته بدمشق»[٥].

---

(١) Gibb, op. cit., p. 91;
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢ ص ٧٣٦ .

(٢) الروضتين، جـ ٢ ص ٣٥؛ سنا البرق الشامى، ص ١٨٥؛ مضمار الحقائق، ص ٦٠.

(٣) مضمار الحقائق، ص ٦٠ .

(٤) مضمار الحقائق، ص ٦٢ .

(٥) الروضتين، جـ ٢ ص ٢٧؛ مفرج الكروب، ص ١١٢ - ١١٣ .

وفى طريقه إلى الشام، سلك صلاح الدين طريق أيلة، ولما وصلت الأخبار إلى الصليبيين بمسيرة صلاح الدين وبرفقته جماعة كبيرة من التجار، اجتمعوا بالكرك «لعلهم ينتهزون فرصة من القافلة»، غير أنه أخذ يشن الغارات على معاقلهم فى نواحى الكرك والشوبك، «فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم على الدنو منه»[١]. حدث هذا فى الوقت الذى انتهز فروخشاه ابن أخى صلاح الدين فى دمشق فرصة احتشاد الصليبيين بالكرك، فأغار على طبرية وعكا، ونهب دبورية (قرب طبرية) وما يجاورها من القرى، واستولى على حصن حبيس جلدك، وهو المعروف بالشقيف، الذى كان يشرف على بلاد المسلمين، ورجع بالأسرى والغنائم، ووصلت البشرى بذلك إلى صلاح الدين خلال سيره إلى دمشق[٢]. ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق فى صفر سنة ٥٧٨هـ (يونيو ١١٨٢م)، استراح وجنده بضعة أيام، ثم خرج وأغار على معاقل الصليبيين فى طبرية وبيسان، والتقى معهم فى معركة تحت حصن كوكب، إنتهت بهزيمتهم وفروا إلى الحصن للاحتماء به، «ثم رجع السلطان مظفرًا» إلى دمشق[٣].

ولم يلبث صلاح الدين أن غادر دمشق على رأس قواته للاستيلاء على بيروت، فى الوقت الذى اتفق مع أخيه العادل نائبه فى مصر على خروج الأسطول المصرى لحصارها بحرًا. ولما بلغه وصول الأسطول إلى مياه بيروت فى ٢٨ ربيع الأول ٥٧٨هـ (مستهل أغسطس ١١٨٢م)، هاجمها برًا، ولكنها قاومت هجماته، وعندئذ «رأى أن أمر بيروت يطول»، فانصرف عنها وعاد إلى دمشق[٤].

ثم قرر صلاح الدين أن يولى اهتمامه لشمال الشام وأعالى العراق. إذ بلغه أن المواصلة كاتبوا الصليبيين ورغبوهم فى مهاجمة الثغور الإسلامية، ليشغلوه عن قصد بلادهم[٥]. وعندئذ شرع صلاح الدين فى الزحف على حلب أولا، وقبل أن يقترب منها أتاه مظفر الدين

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٤ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٥؛ مفرج الكروب، ص ١١٤ – ١١٥؛ سنا البرق الشامى، ص ١٩٥ – ١٩٦؛ مضمار الحقائق، ص ٩٤ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٦؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٥؛ مضمار الحقائق، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٦؛ النوادر السلطانية، ص ٦٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٥ – ١١٦ .

(٥) النوادر السلطانية، ص ٦٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٥؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٢ .

كوكبورى صاحب حران، وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على البلاد الواقعة شرقه قبل التوجه إلى حلب حتى لا تشغله عن غيرها، وقال له: «ومتى عبرت الفرات سُلمتْ إليك البلاد وأطاعتك العباد، فملكت حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وسائر المواضع، وملكت الموصل لا محالة»، فاستصوب صلاح الدين رأيه[١]. ومما يذكر أن مظفر الدين لجأ إلى صلاح الدين وأطمعه فى بلاد الزنكيين فى الجزيرة والموصل، بسبب «استيحاشه من مجاهد الدين قايماز – صاحب النفوذ الفعلى فى الموصل – وعز الدين مسعود صاحب الموصل»[٢]. إذ عمل مجاهد الدين على إقصائه عن أمارة إربل، فأراد أن يثأر منه بانضمامه إلى عدو الموصل صلاح الدين، الذى يعتبر فى نفس الوقت عدوًا شخصيا لمجاهد الدين[٣]. وإن كان البعض يرى أن صلاح الدين كان وحده القادر على إعادة الأمن والاستقرار إلى بلاد الجزيرة التى كانت تعج آنذاك بالفوضى والاضطراب[٤]. وعلى أية حال، اتجه صلاح الدين نحو الفرات، فلما اجتازه عند البيرة كتب إلى أمراء الجزيرة بأن «من جاء مستسلما سلمت بلاده»، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة (الصليبيين)، فوافاه رسول من صاحب حصن كيفا نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقى معلنا طاعته، ولم يلبث صلاح الدين أن استولى على الرها وحران والرقة والخابور ونصيبين[٥]. وبذلك نجح صلاح الدين فى تكوين حلف قوى من أمراء الجزيرة يدين له بالطاعة والولاء ضد إمارة الموصل، وما عليه إلا فرض سيطرته عليها. وفى أثناء مقام صلاح الدين بنصيبين لإصلاح شأنها، أغار الصليبيون بقيادة ملكهم بلدوين الرابع على إقليم دمشق وقراه حتى وصلوا إلى داريا على بعد ستة كيلومترات من دمشق، ولما بلغه ما حدث، أشار عليه بعض الموالين لعز الدين مسعود صاحب الموصل بالعودة إلى دمشق لإنقاذها، ولكنه رفض الرجوع عن منازلة الموصل، وأجابهم بأن الصليبيين «يخربون قرى، ونملك عوضها بلادًا، ونعود نعمرها، ونقوى على قصد بلادهم»[٦].

---

(١) النوادر السلطانية، ص ٥٦ – ١٥٧ مضمار الحقائق، ص ١٠٢ – ١٠٣؛ Gibb, op. cit., p. 567.

(٢) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٦؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٥ .

(٣) عبد القادر طليمات: مظفر الدين كوكبورى (سلسلة أعلام العرب)، ص ٨٢ – ٨٣ .

(٤) Newby, Saladin., p. 94.

(٥) الكامل، جـ ٩ ص ٥٦–١٥٧؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٣٣؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٦–١١٨؛ مضمار الحقائق، ص ٩٦–١٠٦؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٥ .

(٦) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٧ .

بعد أن استولى صلاح الدين على معظم مناطق الجزيرة دون مقاومة تذكر، زحف بقواته على الموصل ونزل عليها فى ١١ رجب سنة ٥٧٨هـ (١٠ نوفمبر ١١٨٢م)، وأحكم حصارها، ثم مالبث أن شن هجوما عليها، ولكنه لم ينل منها، واستعصت عليه بسبب مناعتها ومتانة أسوارها. فقد وصفها الرحالة ابن جبير[١] بأنها مدينة «حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت أبراجها تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض، وباطن الداخل منها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة بجداره المُطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه، وللمقاتلة فى هذه البيوت حرز وقاية، وهى من المرافق الحربية. وفى أعلى البلد قلعة عظيمة قد رُصّ بناؤها رصا، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج». أضف إلى ذلك أن صاحبها عز الدين مسعود كان قد تجهز للحصار، فملأ أسوار المدينة بالمدافعين، وحشد داخلها عددًا ضخما من المقاتلين، وكميات وافرة من المؤن والسلاح والآلات[٢].

ويبدو أن عز الدين مسعود قد ساوره القلق من ناحية صلاح الدين لتفوقه فى السلاح والعدد، بدليل أنه أرسل القاضى المؤرخ بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ببغداد، يسأله المساعدة لصد صلاح الدين عن بلاده. فبعث الخليفة رسولا من قبله، وهو صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة، للتدخل فى الصلح بين الطرفين والسعى بينهما؛ وفى المفاوضات التى دارت بينهما طلب عز الدين أن يعيد صلاح الدين البلاد التى أخذها منه، فوافق صلاح الدين بشرط أن يسلمه الزنكيون حلب، فرفض عز الدين بحكم أن حلب لعماد الدين زنكى وليست للموصل، فعاد صلاح الدين وأعلن موافقته على تسليم البلاد إليه، بشرط ألا يقف مع صاحب حلب ضده، فرفض عز الدين خيانة أخيه فى حلب، قائلا: «هو أخى، وله معى العهود والمواثيق، ولايسعنى نكثها»[٣]. وبذلك فشلت المفاوضات الرامية إلى عقد الصلح بين صلاح الدين وعز الدين. ثم وصلت رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان وشاه أرمن صاحب خلاط للتدخل فى الصلح بين الجانبين، «فلم ينتظم أمر ولا تم صلح»[٤].

---

(١) الرحلة، ص ٢١٠ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٧؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٣٣؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١١٩ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٨؛ النوادر السلطانية، ص ٥٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٨؛ النوادر السلطانية، ص ٥٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٢٢ .

تأكد لصلاح الدين استحالة الاستيلاء على الموصل لمناعتها وحصانتها، فتركها وسار إلى سنجار للاستيلاء عليها. وهنا نلاحظ أن ابن شاهنشاه الأيوبي صاحب حماه يروى أن صلاح الدين قد ارتحل عن الموصل «لقبول الشفاعة الإمامية الناصر لدين الله»[١]. والحقيقة أن صلاح الدين لم يرفع الحصار عن الموصل إلا لأن المواصلة قد قاوموه بعنف، واستماتوا فى الدفاع عن مدينتهم، مما جعله يدرك حينئذ أن الموصل صعبة المنال، فغادرها إلى سنجارالتى تبعد عن الموصل بحوالى ثمانين كيلو متر. وكانت العساكر الموصلية بسنجار تقطع على صلاح الدين خطوط مواصلاته والإمدادات العسكرية الآتية إليه، فزحف عليها، وضيق عليها الخناق خمسة عشر يوما؛ ويذكر ابن الأثير[٢] أن بعض الأكراد فى داخل المدنية راسلوا صلاح الدين واتفقوا معه على فتح الباب ليلا، وأسقط فى يد صاحبها، وطلب الأمان، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وتسلم المدينة فى ٢ رمضان سنة ٥٧٨ هـ (٣٠ ديسمبر ١١٨٢)، ودخل قلعتها، ورتب أمورها بعد أن رحلت حاميتها إلى الموصل[٣]. ثم سار إلى حران، فوصلها فى أوائل ذى القعدة عام ٥٧٨ هـ (فبراير ١١٨٣)، وأذن لعساكره بالتفرق ليستريحوا، وبقى هو فى جماعة من ثقاته[٤].

وكان عز الدين مسعود قد أنفذ الرسل إلى شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط يطلب منه العون لرد صلاح الدين عن الموصل وأعمالها، فأرسل شاه أرمن عدة رسل إلى صلاح الدين فى الشفاعة إليه بالكف عن الموصل، ولكن صلاح الدين رد الرسل خائبين. وفى محاولة أخيرة من أرمن شاه أرسل مملوكه سيف الدين بكتمر، وأوصاه فى حالة تمسك صلاح الدين أن يهدده بقصده ومحاربته، وكان صلاح الدين وقتئذ يحاصر سنجار، فلما أتاه بكتمر وأبلغه الشفاعة فى صاحب الموصل، أخذ يماطله ويسوفه حتى يتسنى له الاستيلاء على سنجار، فلما لاحظ بكتمر أن صلاح الدين لازال على موقفه، أبلغه الرسالة الثانية وهى التهديد بالحرب، وفارقه غاضبا، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة. ولما عاد بكتمر إلى خلاط أبلغ صاحبها بما حدث من صلاح الدين ورفضه لشفاعته، وحذره من الخطر

---

(١) مضمار الحقائق، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٨-١٥٩؛ النوادر السلطانية، ص ١٥٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٢٣-١٢٤؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٣٠٩؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٦؛ Gibb, Op. Cit., p. 577.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٨؛ النوادر السلطانية، ص ١٥٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٢٢.

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩؛ مفرج الكروب، ص ١٢٤ .

الذى يهدد أمراء الجزيرة على أيدى صلاح الدين إذا لم يوقف عند حده[1]. وكان شاه أرمن صاحب خلاط مخيما بقواته بظاهرها، فسار إلى ماردين، ونزل عند صاحبها إبن أخته قطب الدين بن نجم الدين ألبى، وانضم إليهما دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وخرجوا جميعا، والتقوا بعز الدين مسعود على رأس قواته، لمواجهة صلاح الدين، مستغلين فرصة وجوده فى حران وتفرق عساكره. فلما بلغ صلاح الدين بمسير عز الدين وخلفائه، أرسل إلى ابن أخيه تقى الدين عمر صاحب حماه يستدعيه، فأتاه مسرعاً، وتقدم صلاح الدين بقواته إلى رأس عين، فخاف عز الدين مسعود وحلفاؤه من الدخول فى معركة مع صلاح الدين وتفرقوا عائدين إلى بلادهم[2]. وبذلك أخفقت خطة عز الدين مسعود على الرغم من تأييد بعض الأمراء فى المدن المجاورة له، ولم تنجح محاولاته لعرقلة زحف صلاح الدين نحو الموصل، بعد أن أخضع أغلب مدن الشام والجزيرة، وتحالف مع أصحاب الإمارات المجاورة لأتابكية الموصل، ولم يعد لعز الدين بعد ذلك من القوة ما يستطيع به مواجهة قوة صلاح الدين، فعمد إلى اجتذاب أصحاب الإمارات المجاورة عن طريق تحذيرهم من اتساع نفوذ صلاح الدين فى بلادهم حتى ينضموا إليه ويساعدوه فى صراعه مع صلاح الدين[3].

ولاشك أن فشل عز الدين مسعود وحلفائه فى الوقوف أمام صلاح الدين قد شجعه على ضم باقى البلاد فى الجزيرة لنفوذه. فتقدم نحو حصون آمد المنيعة فى ١٧ ذى الحجة عام ٥٧٨ هـ (مستهل أبريل ١١٨٣)، وكان صاحبها آنذاك محمود بن إيكلدى، وقد آلت إليه من جهة سلاطين السلاجقة، «وهى غاية الحصانة والمنعة، وسورها يضرب به المثل»، وما لبث صلاح الدين أن زحف على آمد، ولما أحس الأهالى بتراخى أمير المدينة فى الدفاع عنها، تهاونوا فى القتال، وجنحوا إلى السلامة، فتسلم صلاح الدين المدينة فى المحرم ٥٧٩هـ (أبريل ١١٨٣)، وعهد بحكمها إلى نور الدين قرا أرسلان صاحب كيفا، وكان قد وعده بذلك[4]. وبسقوط آمد فى أيدى صلاح الدين، جاءته رسل ملوك الأطراف، «كل منهم يطلب الأمان لصاحبه، وأن يتخذه من جملة أنصاره»، ومن هؤلاء الملوك

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٣٤ – ١٣٦.

(٣) رشيد الجميلى: دولة الأتابكة فى الموصل (بغداد ١٩٧٥)، ص ١٤٦ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩ .

صاحب ماردين وصاحب ميافارقين، فأجابهم صلاح الدين إلى طلبهم[1]. وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر آمد، عبر الفرات قاصدًا حلب وأعمالها، وفى طريقه إليها استولى على تل خالد وعينتاب، وهما من أعمال حلب، فى المحرم ٥٧٩هـ (أبريل ١١٨٣)[2].

ولم يكد صلاح الدين يحاصر حلب، حتى أبدى أهلها مقاومة عنيفة ضده، وقاتل الأمراء النوريون بعساكرهم قتالا شديداً، ولما طالبوا عماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب بالمزيد من الأموال لسد نفقات الجند والدفاع، اعتذر بقلة المال عنده، بسبب ما اشتهر به من بخل وتقتير، فقال له بعضهم: «من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال، ولو باع حلى نسائه»، وانصرفوا عنه، فمال عندئذ إلى تسليم المدينة إلى صلاح الدين رغم مناعتها وصمود أهلها. ودارت المفاوضات بينه وبين صلاح الدين فى جو من السرية، انتهت إلى أن يتنازل عماد الدين عن حلب إلى صلاح الدين، فى مقابل أن يعوضه عنها بسنجار، فأجابه صلاح الدين إلى طلبه، وزاد عليه نصيبين والخابور والرقة وسروج، ولكنه اشترط عليه أن يعاونه فى قتال الصليبيين، وجرت اليمين على ذلك[3]. وقد قوبل تنازل عماد الدين عن حلب لصلاح الدين بالسخرية والاستهزاء، وقد علق ابن الأثير[4] على تلك الصفقة الرابحة التى عقدها صلاح الدين بقوله: «وباعها (صاحب حلب) بأوكس الأثمان، أعطى حصنا مثل حلب، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فنزل عنها، وتسلمها صلاح الدين، فعجب الناس كلهم من ذلك، وقبحوا ما آتى، حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجّانة[5] وماء، وناداه أنت لا يصلح لك الملك، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب،

---

(١) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٣٦؛ Gibb, Op. Cit., p. 578.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٦١ – ١٦٢؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٤٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٣٦ :

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٢؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٤١؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٤١ – ١٤٢؛ مضمار الحقائق، ص ١٤٢ – ١٤٣؛ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٠٤ – ٢٠٥ ؛ Gibb, Op. Cit., p. 578.

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٢ .

(٥) الإجانة هى المركن الذى يغسل فيه الثياب (لسان العرب)، وقد عمل عوام حلب أشعاراً عامية، كانوا يدقون بها على طبيلاتهم، منها:

آحباب قلبى لا تلومونى ... هذا عماد الدين مجنون

قايض بسنجار لقلعة حلب ... وزاده المولى نصيبين

أنظر: مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٤١ – ١٤٣؛ الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ.

وأسمعوه المكروه»، وناداه السفلة بحلب «يا حمار بعت حلب بسنجار»[١]. ودخل صلاح الدين قلعة حلب فى ١٨ صفر عام ٥٧٩ هـ (٢٢ يونيو ١١٨٣)، ورفع عليها رايته الصفراء، ونشر العدل، ورفع الضرائب، وأسقط المكوس، وعين عليها ابنه الظاهر غازى[٢]. وكانت فرحة صلاح الدين عظيمة بأخذ حلب، حتى أنه قال: «الآن قد تبينت أننى أملك البلاد، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت»[٣]. وعندما وصل خبر استيلاء صلاح الدين على حلب تضاعفت مخاوفهم، وأحسوا بأن الكارثة وشيكة الوقوع بهم، إذ كانوا يدركون تماما أنه لو نجح صلاح الدين فى ضم حلب إلى حوزته، فإن ممتلكاتهم بالشام ستصبح فى حالة حصار دائم[٤].

ومهما يكن الأمر، فقد ارتعدت فرائص الصليبيين فى شمال الشام، لقرب حلب من ممتلكاتهم، وخاصة أنطاكية التى يصف ابن واصل حالتها آنذاك، فيقول «وخاف أهل أنطاكية من السلطان، فأرسل صاحبها (بوهيموند الثالث) جماعة من أسرى المسلمين، وانقاد، وسارع إلى اللياذ بعفو السلطان وأمانه، فقبله السلطان»[٥]. هذا فى الوقت الذى أصبح صلاح الدين فى موقف يسمح له بالانتقام من صليبيى مملكة بيت المقدس، بسبب الإغارات التى شنوها على أملاك المسلمين أثناء غيابه بالجزيرة، خاصة ما قام به ريجنالد شاتيون صاحب حصن الكرك من غارات فى شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر[٦].

وكان ريجنالد شاتيون (أرناط) صاحب إمارة الكرك شرقى البحر الميت قد قام بمحاولة جريئة رعناء استهدفت الاستيلاء على الحرمين الشريفين، والاعتداء على قبر الرسول ﷺ وهدم الكعبة. ففى خريف سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢) بنى عدة سفن ونقلها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت، وشحنها بالرجال والعتاد والمؤن، ثم بدأ عمله فى البحر الأحمر بالإغارة على الموانى المصرية، ومنها ميناء عيذاب المواجه لجدة.

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٢ – ١٦٣؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٤١ .

(٢) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٤٧؛ مضمار الحقائق، ص ١٤٤ .

(٣) مضمار الحقائق، ص ١٤٤ .

(٤) Davis, William of Typc., p. 68.

(٥) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٦) Gibb, "The Riac Of Saladin", p. 579.

فأخذ مراكب التجار الراسية فيه، ونهب ما فيها، وأسر من بها من الرجال، وقتل عددًا كبيرًا من المسلمين[١]. وقد أفاض المقريزى[٢] فى ذكر ما فعله أرناط فى عيذاب، إذ أخذ مركباً كان يأتى بالحجاج من جدة، وأسر قافلة كانت آتية من اليمن والهند، واستولى على مؤن كانت معدة للحرمين الشريفين، ويصور المقريزى ما فعله أرناط قائلا: «وأحدثوا (الصليبيون) حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع، فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد». وبعد أن نهب أرناط ميناء عيذاب أبحر بأسطوله يريد غزو المدينة المنورة لينبش قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فاجتاز البحر الأحمر إلى ساحلة الآسيوى، متجها إلى الأراضى المقدسة. وما كاد هذا الخبر يصل إلى الملك العادل الأيوبى بمصر، حتى بادر بقمع تلك المحاولة الطائشة بأن أعد أسطولا قويا أسند قيادته إلى الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فسار إلى أيلة، ووجد مراكب الصليبيين فأحرقها، ثم توجه إلى ميناء عيذاب ولم يجد به أحداً من الصليبيين، فرجع إلى الشمال وتتبع الصليبيين حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة المنورة إلا مسافة يوم، فاحبط محاولتهم وعاد بأسراهم إلى القاهرة. وكان موسم الحج قد اقترب، فأرسل حسام الدين لؤلؤ بعض الأسرى الصليبيين إلى منى، لكى ينحروا بها كما تنحر البدن التى تساق، «عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ»[٣]. ولاشك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلى شواطىء الحجاز، يوضح لنا مدى الخطورة التى كانت تهدد المسلمين فى أعظم مقدساتهم، ولكن يقظة الدولة الأيوبية فى تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلى نحورهم، فلم ينالوا مغنما مما أرادوه.

والحقيقة أن تلك المحاولة الطائشة لفتت أنظار صلاح الدين إلى الخطر الذى يهدد المسلمين، فانشغل مؤقتا عن محاولة ضم الموصل إلى نفوذه، وعوّل على ألا يترك الصليبيين

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٣٥؛ سنا البرق الشامى، ص ٢١٢ - ٢١٣؛ البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ٣١١؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٧٩أ - ١٧٩ب؛
Lamb, op. cit., p. 60; Newby, op. cit., pp. 92- 93.

(٢) السلوك، جـ ١ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٩- ١٦٠؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٣٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٢٧-١٣١؛ تاريخ ابن أبى الهيجاء، ورقة ١٧٩أ -١٧٩ب؛ سنا البرق الشامى، ص ١١٣؛ محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ١٢٦؛ Lamb, op. cit., pp. 60 - 61.

فى راحة. وكان أن أبلغ صلاح الدين الخليفة العباسى فى بغداد بعزمه على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وخرج من حلب بمن انضم إليه من الحلبيين وعساكر الجزيرة وفرسان التركمان وقوة ضخمة من المتطوعين[١]. وبعد أن توقف فترة قصيرة فى دمشق، عبر نهر الأردن وزحف على بيسان فى ٩ جمادى الأخرى سنة ٥٧٩ هـ (٢٩ سبتمبر ١١٨٣)، فخربها وأحرقها، وأغار على نواحيها لمحاولة استدراج قوات مملكة بيت المقدس للاشتباك معه فى معركة، ولكن محاولته لم تنجح، فعاد إلى دمشق[٢]. ولم يلبث أن غادرها لمنازلة حصن الكرك، وأتى إليه أخوه الملك العادل على رأس جيش كثيف لمساندته، ولما وصل صلاح الدين إلى الحصن ضيق عليه الحصار، «ورماه بالمجانيق صباحاً ومساء»، ولكن مناعة الحصن حالت دون اقتحامه، كما أن الملك الصليبى بلدوين الرابع رغم شدة مرضه أسرع بقواته لنجدة الكرك، فرأى صلاح الدين «أن أمر الكرك يطول» فانسحب عائدًا إلى دمشق فى رمضان ٥٧٩ هـ (ديسمبر ١١٨٣)[٣].

على أن الأحداث التى جدت فى الموصل ما لبثت أن فرضت على صلاح الدين التدخل فى شئونها. ففى جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ إستمع عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى وشاية بعض أمراء دولته وقبض على نائبه مجاهد الدين قايماز صاحب النفوذ الفعلى فى الموصل والبلاد التابعة لها، وصادر أمواله. وكانت إربل وجزيرة ابن عمر وشهرزور ودقوقا وقلعة عقر الحميدية تحت حكم قايماز، فلما قبض عليه، إمتنع أميرا إربل وجزيرة ابن عمر عن طاعة عز الدين، «وراسلا السلطان (صلاح الدين) بالطاعة له والركوب فى خدمته، فأجابهما إلى ذلك»، أما ولاية دقوقا فقد استولى عليها الخليفة العباسى الناصر لدين الله، وبذلك لم يتبق لعز الدين من أملاك مجاهد الدين قايماز إلا شهرزور وقلعة عقر الحميدية[٤]. وبهذا التصرف الطائش ساهم عز الدين مسعود فى التعجيل بتدمير دولته، فقد خسرت أتابكية الموصل بضياع تلك الأماكن الثلاثة نفوذها فى البلاد التى كانت

---

(١) Gibb, op. cit., p. 579.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١١٦٤؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥٠ - ١٥١؛ Gibb. op., cit., p. 579.

(٣) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٥-١١٦٦؛ النوادر السلطانية، ص ٦٣-٦٤؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥١؛ النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٩؛ محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ٢٦-٢٧؛ Newby, Saladin, p. 100.

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١١٦٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥٤ .

تحت حكم قايماز، فى الوقت الذى كانت فى أشد الحاجة إلى تدعيم نفوذها وتقوية مركزها فى الموصل[١].

وعلى أية حال، فقد أرسل عز الدين مسعود القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله فى شوال سنة ٥٧٩هـ (يناير ١١٨٤) يطلب منه التوسط من جديد فى الصلح بينه وبين صلاح الدين، فاستجاب الخليفة لطلبه، وأرسل شيخ الشيوخ وبشير الخادم، فلما وصلا إلى الموصل، إنضم إليهما القاضى محيى الدين بن كمال الدين الشهرزورى ممثلا عن عز الدين، ومعه القاضى بهاء الدين بن شداد، وتوجه الجميع إلى دمشق للتفاوض مع صلاح الدين فى حل المشاكل القائمة بينه وبين صاحب الموصل، غير أن مفاوضات الصلح تعثرت لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميرى إربل وجزيرة ابن عمر حرية الاختيار فى الانضمام إليه أو إلى صاحب الموصل، فرفض محيى الدين هذا الشرط، على أساس أن إربل وجزيرة ابن عمر تابعتان لصاحب الموصل، «ورجعت الرسل من غير ظفر بطائل»[٢]. ويذكر ابن واصل[٣] أن صلاح الدين أصدر منشورًا لزين الدين يوسف أمير إربل بحكم إربل وأعمالها، وذلك لوقوفه معه ضد صاحب الموصل، وفى هذا المنشور أوضح صلاح الدين أن غرضه جمع كلمة المسلمين للجهاد ضد الصليبيين، فمن ساعده على أداء هذا الواجب يحظى بمكافأته وحسن صنيعه. أما عز الدين مسعود، فقد أدرك الظروف الصعبة التى تمر بها دولته، وندم على ما بدر منه فى حق نائبه مجاهد الدين قايماز، فأطلق سراحه من السجن بعد أن ظل به حوالى عشرة أشهر، وخلع عليه، وأعاد إليه نفوذه السابق فى المحرم سنة ٥٨٠ هـ (إبريل ١١٨٤)[٤].

ويبدو أن صلاح الدين رأى ضرورة الاستيلاء على حصن الكرك قبل التفرغ لمشكلة الموصل، ولهذا خرج على رأس قواته من دمشق، وشدد الحصار على الحصن فى ٤١ جمادى

---

(١) رشيد الجميلى: دولة الأتابكة فى الموصل، ص ١٥ .

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٥٦– ١٥٧؛ النوادر السلطانية، ص ٦٥؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥٣–١٥٦؛ مضمار الحقائق، ص ١٥٣ .

(٣) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٤) التاريخ الباهر، ص ١٨٤ .

الأولى عام ٥٨٠ هـ (٢٣ أغسطس ١١٨٤)، غير أن مناعة هذا الحصن حالت دون الاستيلاء عليه، في الوقت الذى وصلت إمدادات ضخمة من مملكة بيت المقدس لإنقاذه من الوقوع فى أيدى صلاح الدين، الأمر الذى اضطره إلى رفع الحصار والعودة إلى دمشق[١]. ثم خرج صلاح الدين قاصدًا نابلس، وأخذ ينهب كل البلاد الصليبية الواقعة فى طريقه، فلما وصل إلى نابلس أحرقها ونهبها، وألحق التخريب بسبسطية وجنين، ثم إلى دمشق فى ٧ جمادى الآخرة ٥٨٠ هـ (١٥ سبتمبر ١١٨٤)، ليجد فى انتظاره شيخ الشيوخ وبشير الخادم رسولى الخليفة العباسى الناصر لدين الله، للتوسط من جديد فى الصلح بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، «فلم يتقرر أمر»[٢].

غير أنه لم يكد رسولا الخليفة العباسى يغادران دمشق، حتى وصل رسول من قبل زين الدين يوسف صاحب إربل إلى صلاح الدين، وأخبره أن عساكر الموصل بقيادة مجاهد الدين قايماز ومعهم عساكر أذربيجان قد زحفوا على إربل ونهبوها وأحرقوها وسبوا النساء، ولكن زين الدين يوسف إنتهز فرصة انشغالهم بالنهب والسلب فهزمهم شر هزيمة. ولما كان صاحب إربل من حلفاء صلاح الدين ويدين له بالطاعة، فقد قوى عزمه على التوجه إلى الموصل لحصارها[٣]. ومن حسن حظ صلاح الدين حينذاك أن ريموند الثالث أمير أنطاكية قد طلب منه عقد هدنة مدتها أربع سنوات، فوافق صلاح الدين من فوره ليضمن حماية مؤخرة جيشه[٤]. ولم يلبث صلاح الدين أن حشد عساكره فى حلب فى المحرم سنة ٥٨١ هـ (أبريل ١١٨٥)، وغادرها قاصدًا الموصل ليضع حدًا لما يقوم به صاحبها، فعبر نهر الفرات إلى حران فوصلها فى صفر من نفس العام، وألقى القبض على صاحبها مظفر الدين كوكبورى واعتقله برغم الحماس الذى كان يبديه مظفر الدين للانتصار له ضد صاحب الموصل. ذلك أنه منذ أن فشل صلاح الدين فى حملته على الموصل سنة ٥٧٨ هـ، ومظفر الدين دائم التحريض له لمعاودة المحاولة للاستيلاء عليها،

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٥؛ النوادر السلطانية، ص ٦٦-٦٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥٧-١٥٨؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٥٤-٥٥؛ مضمار الحقائق، ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٦-١٦٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٥٨-١٦٢؛ مضمار الحقائق، ص ١٨٨-١٩٠.

(٣) النوادر السلطانية، ص ٦٧؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٤) Gibb, op. cit., p. 580.

وتعهد له بالقيام بما يحتاج إليه من النفقات والأزواد له ولجيشه متى عبر الفرات، ولكن صلاح الدين حين وصل حران، لم يجد شيئا مما وعده به، واعتقد أنه مال مع صاحب الموصل، فاعتقله حتى تتبين له حقيقة أمره. غير أن صلاح الدين لم يطل اعتقال مظفر الدين، إذ سرعان ما أثبتت الأيام صدق ولاء مظفر الدين له، فأطلق سراحه وأرضاه وخلع عليه «وأعاده إلى قانونه فى الاكرام والاحترام»[١].

وسار صلاح الدين بجيوشه من حران، ونزل برأس عين، وهناك قدم إليه رسول سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان يهدده إذا هاجم الموصل وماردين، غير أن صلاح الدين لم يأبه لهذا التهديد، ورحل إلى دنيسر، وهناك انضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عساكر أخيه نور الدين صاحب حصن كيفا وآمد، ثم زحف صلاح الدين نحو الموصل فى ١١ربيع الأول سنة ٥٨١ هـ (١٤ يونيو ١١٨٥)، ونزل بموضع قريب منها يعرف بالإسماعيليات[٢]. وتدعيما لموقفه، أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى رسولا يخبره بعزمه على تصفية أموره مع الموصل، وأشار إلى أن أهلها يدعون فى المنابر لطغرل السلجوقى سلطان العجم، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم راسلوا الصليبيين يغرونهم بمهاجمة بلاد المسلمين، «وأنه لم يأت لأجل الازدياد فى الملك ولا لقلع البيت القديم (البيت الزنكى) وقطع أصله، وإنما مقصوده أن يردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام، وردهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم، وقطعهم عن مواصلة العجم، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم»[٣].

وعلى أية حال، ظل صلاح الدين محاصرًا للموصل، وكان الحر شديدًا، فأمر بإيقاف المناوشات العسكرية التى كانت تجرى بين عساكره وعساكر الموصل إلى أن يزول الحر؛ وتصادف أن قلت مياه نهر دجلة وقتئذ، فتقدم أحد المهندسين من صلاح الدين، وأشار عليه بتحويل مجرى النهر بعيدًا من أهل الموصل، فينقطع الماء عنهم ويصيبهم العطش، وبذلك يضطرون إلى تسليم المدينة دون قتال، ولكن صلاح الدين رأى أن هذا المشروع يستغرق مدة طويلة، ويأخذ مجهودًا شاقًا، فانصرف عنه[٤].

---

(١) النوادر السلطانية، ص ٦٨؛ عبد القادر طليمات: مظفر الدين كوكبورى، ص ٨٥ – ٨٧ .

(٢) النوادر السلطانية، ص ٦٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٦ .

(٣) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٥ – ١٦٦؛ مضمار الحقائق، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٧ .

على أنه حدث ما جعل صلاح الدين يرفع حصاره عن الموصل للمرة الثانية، ففى نهاية ربيع الآخر سنة ٥٨١هـ (أول يوليو ١١٨٥)، علم بوفاة الأميرين شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط دون أن يترك ولدًا يخلفه فى الحكم، ونور الدين قرا أرسلان صاحب آمد وحصن كيفا، فترك صلاح الدين جزءًا من جيشه أمام الموصل، واتجه ببقية الجيش شمالا لوضع حد للفوضى الناشبة فى تلك الأماكن عقب وفاة الأميرين، ولكنه فشل فى الاستيلاء على خلاط، فاضطر إلى الرجوع عنها، فى حين اعترف له قطب الدين سكمان الذى خلف أباه فى حكم آمد وكيفا بالطاعة والولاء. ثم زحف صلاح الدين على ميافارقين، واستولى عليها دون قتال فى ٢٩ جمادى الأولى سنى ٥٨١هـ (٢٨ أغسطس ١١٨٥)، ورتب أمورها[١].

عاد صلاح الدين لفرض الحصار على الموصل للمرة الثالثة، ونزل بموضع على نهر دجلة يقال له كفر زمار بالقرب من الموصل فى شعبان سنة ٥٨١هـ (نوفمبر ١١٨٥)، وقد قرر أن يقضى فصل الشتاء فى هذا الموضع لمضايقة الموصل وإضعافها. وهناك أرسل إليه عز الدين مسعود صاحب الموصل وفدًا يضم والدته وزوجته ابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة، يطلبون منه الصلح، ويتعهدون بإنجاده بالعساكر، على أن يرفع يده عن الموصل ويرحل عنها. ويذكر المؤرخ ابن الأثير الذى كان موجودًا وقتذاك أن عز الدين مسعود أرسل النساء إلى صلاح الدين، «لأنه وكل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك، لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين، فلما وصلن إليه أنزلهن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله، فأشار أكثرهم بإجابتهن إلى ما طلبن منه»، ولكن صلاح الدين رفض ما عرضه عليه عز الدين ورد النساء خائبات، بعد أن حذره أحد كبار رجاله من الإجابة إلى الصلح، بقوله: «مثل الموصل لا تترك لا مرأة، فإن عز الدين ما أنقذهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد»[٢].

---

(١) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٩؛ النوادر السلطانية، ص ٦٩؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٦٨ - ١٧٠؛ مضمار الحقائق، ص ٢١٩ - ٢٢٠؛ Gibb, op. cit., p. 580.

(٢) الكامل، جـ ٩ ص ١٦٨؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٧٠ - ١٧١؛ تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٤٣؛ شذرات الذهب، جـ ٤ ص ٢٦٨ .

وفى أثناء وجود صلاح الدين بكفر زمار دهمه مرض شديد، فرحل إلى حران فى رمضان سنة ٥٨١هـ (ديسمبر ١١٨٥)، فوصلها وقد اشتد عليه المرض، ورجف بموته، وحضر عنده أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها. وقد اغتنم عز الدين مسعود فرصة مرض صلاح الدين، وأوفد إليه القاضى بهاء الدين بن شداد للتفاوض فى أمر الصلح بينهما، بعد أن خاب ظنه فى وقوف الخليفة العباسى وسلطان العجم إلى جانبه، ويروى ابن شداد[١] ما حدث قائلا: «كان عز الدين قد سيّر إلى الخليفة يستنجد به، فلم يصل منه زبدة، وسيّر إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة، فلما وصلت بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من النجدة، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا فى ذلك فرصة، وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده فى ذلك الوقت، فندبونى لهذا الأمر». وجرى الصلح فى المحرم سنة ٥٨٢هـ (مارس ١١٨٦) على أساس أن يتسلم صلاح الدين شهر زور وقلاعها وحصنها، والبوازيج[٢] والرستاق[٣]، وجميع ما وراء الزاب من الأعمال، مقابل الإبقاء على عز الدين مسعود أتابكًا للموصل وتوابعها، وأن يخطب لصلاح الدين على منابرها، وتضرب السكة باسمه، وأن يتعهد عز الدين بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد فى استرداد بيت المقدس؛ ولما تم الصلح أهدى صلاح الدين هدايا قيمة لعز الدين، ثم عاد بعد شفائه إلى دمشق فى ربيع الأول عام ٥٨٢هـ (مايو ١١٨٦)[٤]. وقد ترتب على اتفاق الصلح الذى عقد بين عز الدين مسعود وصلاح الدين نتائج سياسية هامة، فقد خسرت الموصل كيانها كدولة مستقلة، وأصبح أتابك الموصل واحدًا من نواب صلاح الدين وتابعًا من أتباعه، وليس له من الحكم سوى الاسم واللقب[٥].

وفى رسالة بعث بها السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام ملك اليمن، وهى بأسلوب العماد الأصفهانى المسجوع، يذكر فيها ما جرى من الصلح مع المواصلة وعزمه

---

(١) النوادر السلطانية، ص ٧٠؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٧١ – ١٧٢؛ الروضتين، جـ ٢ ص ٦٤ .

(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت ومصب الزاب الأسفل من دجلة (معجم البلدان).

(٣) الرستاق: مدينة بفارس من ناحية كرمان (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٤) الكامل، جـ ٩ ص ١٧٠؛ مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٧٢؛ سنا البرق الشامى، ص ٢٦٧؛ مضمار الحقائق، ص ٢٢٣؛ وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٢٠٧؛ Gibb, "The Rise of Saladin", p. 580.

(٥) رشيد الجميلى: دولة الأتابكة فى الموصل، ص ١٥٩ .

على الجهاد ضد الصليبيين، جاء: «وقد حصلت لنا من صاحب الموصل، ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وصارت فى كل خطة لدولتنا الخطبة، وتمت فينا الرغبة، ونمت لنا المحبة وعمت الهيبة والرهبة.. والعزائم إلى الجهاد فى سبيل الله عز وجل نوازع، وقد زالت العوائق، وارتفعت الموانع»[1].

ونصل أخيرًا إلى القول أن صلاح الدين الأيوبى نجح فى بناء أعظم دولة متماسكة البنيان فى مصر والشام والجزيرة (أعالى العراق)، كانت القاعدة الصلبة التى حققت وحدة المسلمين تحت زعامته، وهى الوحدة التى غرس بذورها عماد الدين زنكى، وبلغ بها ابنه نور الدين محمود شأوًا بعيدًا، ثم جاء صلاح الدين فأتم بناء صرحها، ولم يعد أمامه من شاغل إلا أن يخطو بقدم ثابتة فى طريق الجهاد، لينزل ضربة قاصمة بالكيان الصليبى فى موقعة حطين بفلسطين يوم ٢٥ ربيع الثانى عام ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧)، وتصبح مملكة بيت المقدس الصليبية أثرًا بعد عين.

---

(١) مضمار الحقائق، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

المصادر والمراجع

أولا - المخطوطات والمصادر العربية :

إبن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م)
الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (المطبعة التجارية بالقاهرة).
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة ١٩٦٣م).

أسامة بن منقذ: (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر، ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م)
كتاب الاعتبار، نشره وحققه د. فيليب حتى (برنستون ١٩٣٠م).

إبن أيبك الدواداري: (أبو بكر عبدالله، ت بعد ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م)
كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وعنوانه: الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق د. صلاح المنجد (القاهرى ١٩٧٧).
كنزا لدرر وجامعا لغرر،ا لجزء السابع وعنوانه: الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٧٢م).

البنداري: (الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى، ت ٦٤٣هـ / ١٢٥١م)
إختصار تاريخ دولة أل سلجوق للعماد الكاتب الأصفهانى (بيروت ١٩٧٨م)
سنا البرق الشامى، ٥٦٢ - ٥٨٣هـ، إختصار البندارى، من كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق د. فتحية النبراوى (القاهرة ١٩٧٩م).

إبن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)
الرحلة (بيروت ١٩٦٤م)

إبن الجوزى: (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى، ت ٥٩٧هـ / ١٤٠٥م)
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ ١٠ (حيدر آباد، الدكن، ١٣٥٨هـ).

إبن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس (بيروت ١٩٦٨م)

إبن خلكان: (أبو القاسم شمس الدين أحمد بن أبى بكر، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨م)

الذهبى: (محمد بن أحمد المعروف بالذهبى، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)
دول الإسلام، الجزء الثانى (القاهرة ١٩٧٤م)

إبن سعيد: (أبو الحسن على، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م).
المغرب فى حلى المغرب، الجزء الثانى، الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ٢٧١٢ تاريخ.

إبن شاهنشاه الأيوبى: (محمد بن تقى الدين بن عمر، ت ٦١٧هـ / ١٢٣٠م).
مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م).

أبو شامة: (عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م)
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية (بولاق ١٢٧٨هـ)؛ الجزء الأول، القسم الثانى، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٦٢م).

ابن الشحنة: (أبو الفضل محمد الشحنة، ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م)
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب (سوريا ١٩٨٤م)

إبن شداد: (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٤م).

إبن الحنبلى: (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٥١هـ)

الفارقى: (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى، مولده سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م)
تاريخ الفارقى (بيروت ١٩٧٤م)

إبن الفرات: (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)
تاريخ ابن الفرات (العراق ١٩٦٧م).

إبن القلانسى: (أبو يعلى حمزه بن أسد بن على بن محمد التميمى، ت ٥٥٥ / ١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق، ٣٦٠ – ٥٥٥هـ، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣م).

القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩م)

إبن كثير: (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر الحافظ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
البداية والنهاية، ١٢ جزءا (بيروت ١٩٦٦م).

أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٤ جزءا (القاهرى ١٩٢٩ – ١٩٧١م)

المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٥٤هـ / ١٤٤١م)
السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٩م)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ)
إتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٧١م).

إبن ميسر: (محمد بن على بن يوسف بن جلبى المعروف بابن ميسر، ت ٦٣٧هـ / ١٢٧٨م)
أخبار مصر، الجزء الثانى (القاهرة ١٩١٩م)

النويرى: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)
نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية، جـ ٢٦ ، رقم ٥٤٩ معارف عامة.

النويرى الإسكندرانى: (محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى، ت بعد ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م)
الإلمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية، تحقيق د. عزيز سوريال عطية (الهند ١٩٧٣ – ١٩٧٦م).

إبن أبى الهيجاء :(عصر صلاح الدين الأيوبى، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م).
تاريخه، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، رقم ٩٤٥ .

إبن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٦م)
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ثلاثة أجزاء، تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٦٠م).

إبن الوردى: (أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م).
تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردى، الجزء الثانى (بيروت ١٩٧٠م).

ياقوت الحموى: (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى، ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٩م)
معجم البلدان، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦م)

ثانيا – المراجع العربية والمترجمة :

أحمد كمال الدين حلمى: (دكتور)
السلاجقة فى التاريخ والحضارة. (الكويت ١٩٧٥م)

أومان (تشارلز):
الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر. (القاهرة ١٩٥٣م)

باركر (إرنست):
الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، الطبعة الثانية (القاهرة بدون تاريخ)

بردج (أنتونى):
تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودى، مراجعة د. سهيل زكار. (دمشق ١٩٨٥م)

جمال الدين الشيال: (دكتور)
«مصر فى العصر الفاطمى»، مقالة فى موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية. (القاهرة بدون تاريخ).

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)
العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى. (القاهرة ١٩٦٧)
الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى. (الإسكندرية ١٩٨٨م).

حامد زيان غانم: (دكتور)
حلب فى العصر الزنكى (٤٨٨ - ٥٧٩هـ)، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب بجامعة القاهرة، ١٩٧٠م.
الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٨٣م).

حامد غنيم أبو سعيد: (دكتور)
الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٧٢م)

حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: (دكتور)
المعز لدين الله. (القاهرة ١٩٦٤م).

حسن حبشى: (دكتور)
الحرب الصليبية الأولى. (القاهرة ١٩٥٨م).

حسين مؤنس: (دكتور)
نور الدين محمود. (القاهرة ١٩٥٩م).

دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بهروز»، «أيوب».

درويش النخيلي: (دكتور)
فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى، ٣٥٨ – ٣٦٢هـ (الإسكندرية ١٩٧٩).
السفن الإسلامية على حروف المعجم. (الإسكندرية ١٩٧٩م).

رايس (تامارا تالبوت)
السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الداقوقى، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨م).

رشيد الجميلى: (دكتور)
دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى، الطبعة الثانية. (بغداد ١٩٧٥م)

رنسيمان (ستيفن):
تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ – ١٩٦٩م).

زابوروف (ميخائيل):
الصليبيون فى الشرق، ترجمه عن الروسية إلياس شاهين. (موسكو ١٩٨٦م).

سعاد ماهر: (دكتورة)
البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية. (القاهرة ١٩٦٧م)

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)
الناصر صلاح الدين. (القاهرة ١٩٦٥م).
الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام. (القاهرة ١٩٧٠م)
«شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية»، مقالة فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى (بيروت ١٩٧٧م).
أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٧٨م).
الحركة الصليبية، جزءان (القاهرة ١٩٧٨م).

السيد الباز العرينى: (دكتور)
مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠م).

الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول. (القاهرة ١٩٦٣م)
الدولة البيزنطية. (بيروت ١٩٨٢م).

عبد الرحمن زكى: (دكتور)
قلعة صلاح الدين الأيوبى وماحولها من الآثار. (القاهرة ١٩٧٥م).

عبد القادر احمد اليوسف: (دكتور)
الإمبراطورية البيزنطية. (بيروت ١٩٦٦م).

عبد القادر طليمات: (دكتور)
مظفر الدين كوكبورى (سلسلة أعلام العرب).

عبد المنعم ماجد: (دكتور)
العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. (بيروت ١٩٦٦م)
صلاح الدين الأيوبى (القاهرة ١٩٨٨م)

عبد المنعم محمد حسنين: (دكتور)
سلاجقة إيران والعراق. (القاهرة ١٩٥٩م).
دولة السلاجقة. (القاهرة ١٩٥٧م)

على بيومى:
قيام الدولة الأيوبية. (القاهرة ١٩٥٢م).

عماد الدين خليل: (دكتور)
عماد الدين زنكى. (بيروت ١٩٨٢م).

عمر كمال توفيق: (دكتور)
مملكة بيت المقدس الصليبية (الإسكندرية ١٩٥٨م).
مقدمات العدوان الصليبى. الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية. (القاهرة ١٩٦٦م)
الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين. (الإسكندرية ١٩٨٦م).

فشر (هـ. ا. ل):

تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الأول، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، د. السيد الباز العرينى، الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٦٦م).

فولكف (أولج):

القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ٩٦٩ - ١٩٦٩م، ترجمة أحمد صليحة (القاهرة ١٩٨٦م).

فيليب حتى: (دكتور)

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجى، مراجعة د. جبرائيل جبور، الجزء الثانى (بيروت ١٩٥٩م).

لين بول (ستانلى):

سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. على إبراهيم حسن، إدوارد حليم. (القاهرة ١٩٥٠م).

مجهول المؤلف:

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٧٨م).

محسن محمد حسين: (دكتور)

الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين. (سوريا ١٩٨٦م).

محمد جمال الدين سرور: (دكتور)

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة. (القاهرة ١٩٦٤م).

النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب. (القاهرة ١٩٦٤م).

الدولة الفاطمية فى مصر. (القاهرة ١٩٦٦م).

محمد حلمى محمد أحمد: (دكتور)

مصر والشام والصليبيون. الطبعة الثانية. (القاهرة ١٩٨٢م).

محمد حمدى المناوى: (دكتور).
الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى. (القاهرة ١٩٧٠م).

محمد عبد الله عنان:
مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الرابعة. (القاهرة ١٩٦٢م).
تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية. (القاهرة ١٩٧٠م).

محمد مصطفى زيادة: (دكتور)
«الدولة الأيوبية»، مقالة فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية (القاهرة بدون تاريخ).

محمد كرد على:
خطط الشام، جـ ١ ، ٢ ، الطبعة الثالثة (بيروت ١٩٨٣م).

محمود سعيد عمران: (دكتور)
السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول، ١١٤٣- ١١٨٠م. (القاهرة ١٩٨٥م).

محمود محمد الحويرى: (دكتور)
أسوان فى العصور الوسطى. (القاهرة ١٩٧٩م).
العادل الأيوبى، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية. (القاهرة ١٩٧٩م).
الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القاهرة ١٩٧٩م).

هايد (ف):
تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة (القاهرة ١٩٨٥م).

يوشع براور:
عالم الصليبيين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن (القاهرة ١٩٨٥م).

ثالثا – المصادر والمراجع الأوربية :

Baldwin (Marshall W.):
"The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143 - 1174", "Decline and Fall of Jerusalem, 1174 - 1189", in Setton (ed.), A History of the Crusades. Vol I. (Philadelfia, 1955).

Berry (Virginia G.):
"The Second Crusade.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Brooke (Z. N.):
A Hist. of Europe from 911 to 1198. (London, 1938).

Caher (Claude):
La Syrie du Nord a L' Epoque des Croisades. (Paris, 1940).
"The Turkish Invosion: The Selchukids.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Charanis (Peter):
"The Byzantine Empire in the Eleventh Century.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Davis (R. H. C.):
"William of Tyre.", in Relations Between East and West in the Middle Ages., ed. by Derek Baker. (Edinburgh, 1973).

Diehl (Charles):
Histoire de L' Empire Byzantin. (Paris, 1924).

Duncalf (Frederic):
"The First Crusade: Clermont to Constantinople.", "The Councils of Piacenza and Clermont.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Fink (Harold S.):
"The Foundation of the Latin States.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades. Vol I.

Fulcher of Chartres:
Fulcheri Carnotensis Historia Hierosolymitana., (Cronicle of the First Crusade), tr. by Martha Eveln Mc Ginty. (Phila delphia, 1941).

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.,
(The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem, tr. by Rosalind Hill, (London, 1962).

Gibb (Hamilton A.R.):
"The Career of Nur - ad - Din.", "Zangi and the Fall of Edessa.", "The Rise of Saladin, 1169 - 1189.", "The Caliphate and the Arab States.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Grousset (Réné):
L' Empire des Steppes, (Paris, 1948).
L' Epopée des Croisades, (Paris, 1955).

Hoyt (S.), Chodorow (S.):
Europe in the Middle Ages., (U. S. A., 1976).

Lamb (H.):
The Crusades, The Flame of Lslam, (London, 1931).

Lone - Poole (S.):
A Hist. of Egypt in the Middle Ages, (London, 1901).

Levtchenko (M. V.):
Byzance des origines a 1453, (Paris, 1949).

Lewis (Bernard):
"The Ismailites and the Assassins.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, Vol. I.

Newby (P. H.):
Saladin in his Time., (London, 1983).

Nicholson ( ):
"The Growth of the Latin States, 1118 - 1144.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Ostroyorsky (George):
Hist. of the Byzantine State, (New Jersey, 1968).

Painter (Sidney):
"Europe in the Eve of the Crusade.", in Setton (ed.), A His. of the Crusades., Vol. I.

Parkes (James):
A Hist. of Palestine from 135 A. D. to Modern Times., (London, 1949).

Pirenne (Henri):
A Hist. of Europe from the Invasions to the XVI Century, tr. from French by Bernard Miall, (London, 1961).

Poissonade (P.):
Life and Work in Medieval Europe., (London, 1937).

Riley - Smith (Jonathan):
The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, C. 1050 - 1310, (London, 1967).

Riley - Smith (Louise & Jonathan):
The Crusades. Idea and Reality., 1095 - 1270, (London, 1981).

Runciman (Steven):
A Hist. of the Crusades, 3 vol. (Cambridge, 1951 - 1954). "The Pilgrimages to Palestine before 1095.", "The First Crusade: Constantinople to Antioch.", "The First Crusade: Antioch to Ascalan.", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades., Vol. I.

Saunders (J. J.):
Aspects of the Crusades, (Canterbury, 1962).

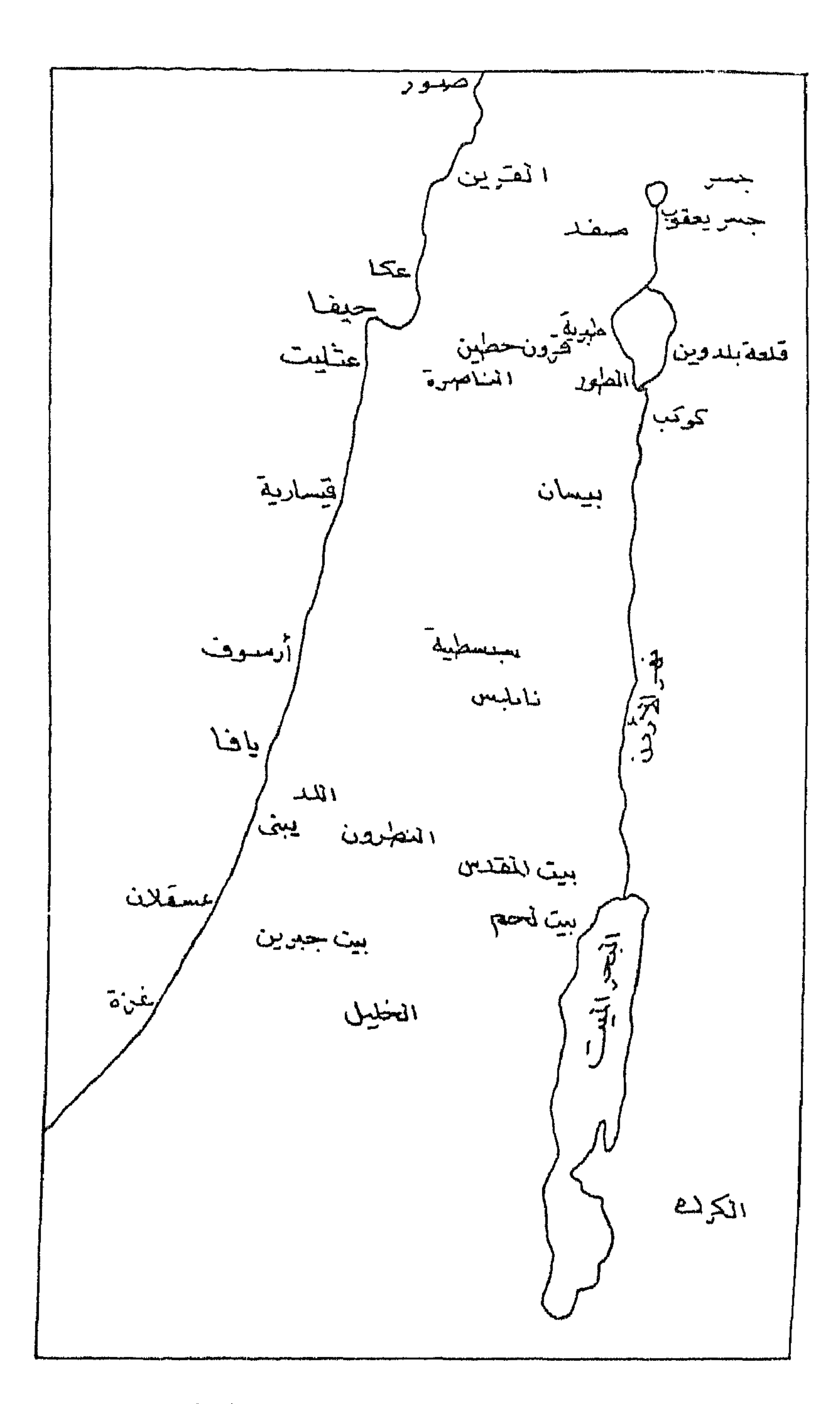
Schlumberger (Gustave):
Campagnes du Roi Amaury I er de Jerusalem en Egypte., (Paris, 1906).

Scott (Martin):
Medieval Europe., (London, 1964).

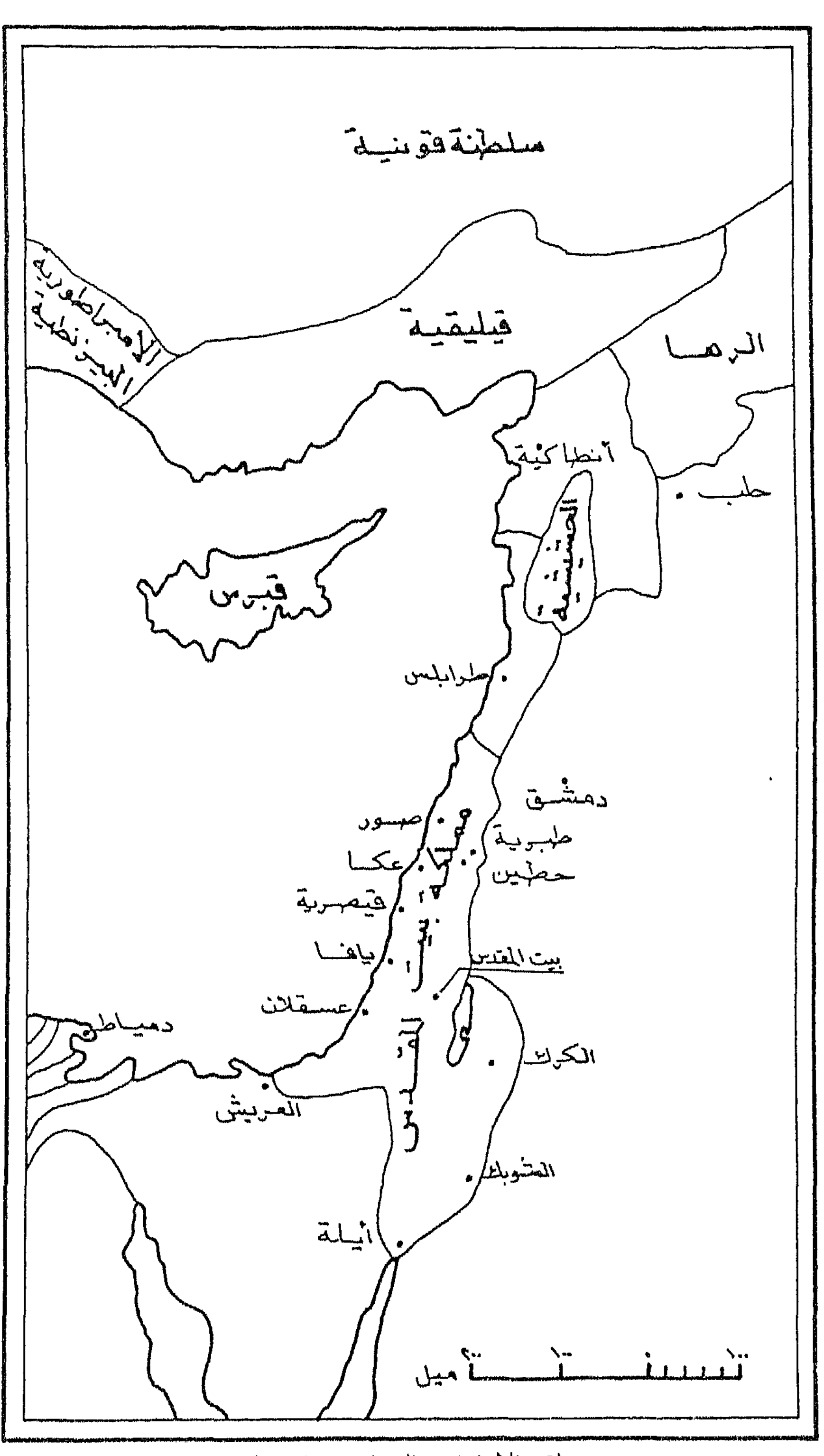
Smail (R. C.):
The Crusaders in Syria and the Holy Land., (London, 1973).

Stevenson (W. B.):
The Crusaders in the East., C Cambridge, 1907).

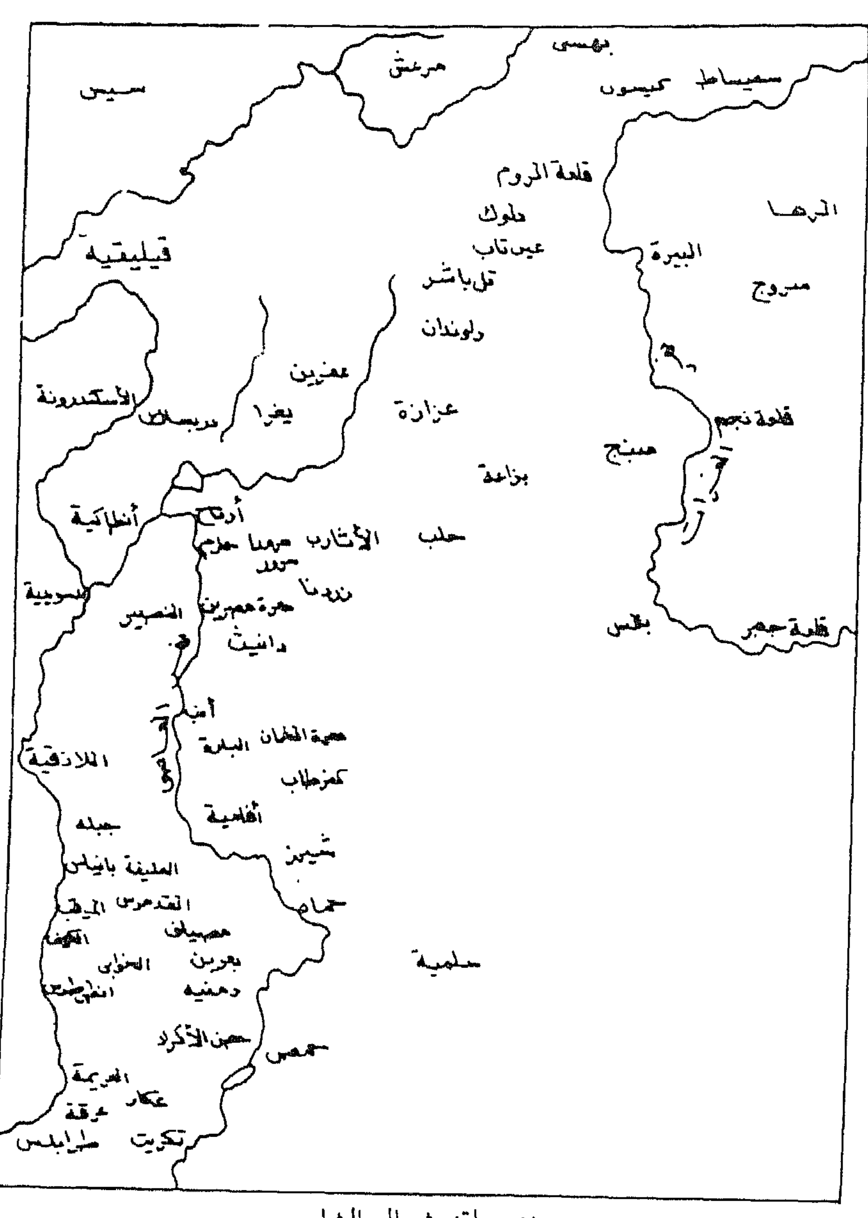
William of Tyre:
A Hist. of Deeds done beyond the Sea, 2 vol., tr. by Babcock (E. A.) & Krey (A. C.), (New york, 1943).



(خريطة) فلسطين فى عصر الحروب الصليبية



(خريطة) الإمارات الصليبية ببلاد الشام



(خريطة) شمال الشام



فهرس

صفحة

رقم الايداع : ٢٦٣٠ /٩٣
I. S. N ; 977 - 02 - 3979 - 8

مطبعة قباء ت / ٢٤٧٥٧٠٢





١٢٢٧٤٧

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب